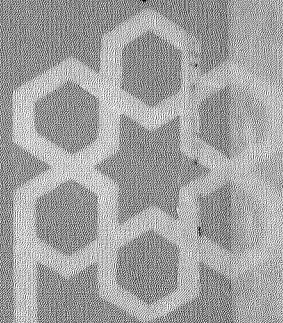
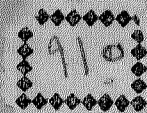
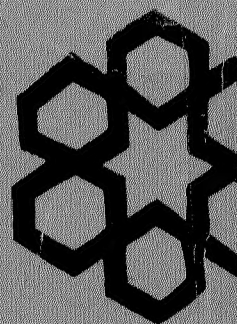


زكى مبارك

الاخلاق عند الفزارى

"وكما عظم المطلوب وشرف ، صعب
مسلكه ، وطال طريقه ، وكثرت عقباته"
الفزارى



زكى مبارك



الأخلاق عند الغزالي

”وكما عظم المطلوب وشرف ، صعب
مسلكه ، وطال طريقه ، وكثرت عقباته“
الغزالي

قدم هذا الكتاب الى الجامعة المصرية ونوقش في ١٥ مايو سنة
١٩٢٤ ، ونال به المؤلف شهادة العالمية بدرجة « جيد جدا »
ولقب « دكتور في الآداب » •

مقدمة

بقلم : د . منصور فهمي

لم يكد مؤلف هذا الكتاب يجتاز امتحان الدكتوراه مصحوبا بالتوفيق ، حتى قام نفر من أصحاب الأغراض : يذيعون عنه المقريات ، ويتقولون عليه الأقاويل . وقد بدا للمؤلف أن يدفع الشر بالشر ، ولكن أستاذه الفيلسوف الدكتور منصور فهمي كتب اليه خطابا يوصيه فيه بالرفق ، وينصح له بالتثبت ، ويدعوه الى مقابلة الشر بالصفح الجميل .

والمؤلف يشب هنا هذا الأثر الخالد ، ويشكر أستاذه على نصيحته القيمة ، ويعاهد ربه وقومه على ألا يعمل غير ما يعتقد أنه حق وصواب أخى العزيز :

طالما وجدنا فى تاريخ الأفكار عامة حملات للنقد شديدة . وطالما رأينا علماء المسلمين وفلاسفتهم ينال بعضهم بعضا بالنقد والتجريح . وطالما غلوا فى النقد حتى انقلب ايداء وايلاما .

ولكن هل أخفت شدة النقد يوما فضل المنتقد عليه ؟ وهل ضن الزمان على المنتقدين بما هم أهل له من الحرمة والمكانة ؟ وكيف ذلك ، والنقد ليس الا أداة لاطهار الحقائق واضحة جلية ؟

ولئن كان للناقد فضل فى اظهار خطأ المنتقد عليه ، فلقد كان لهذا أعظم الفضل بسبقه الى موارد العلم ، وخوضه فى مسائل كانت سببا فى يقظة هذا الباحث الأخير .

الا أنه يجمل بنا حين ننظر فى كتب المتقدمين ، الذين يخالفوننا فى أساليب البحث ، ومناهج التفكير ، أن تمثل أنفسنا فى أزمئتهم ، وأمكنتهم ،

وأن تتمثل ما استخدموه للحصول على الحقائق من مختلف الأدوات ،
لكي نلتمس لهم العذر ، اذ رأيانهم لم يصلوا الى الاغوار البعيدة التي ينبع
منها الماء صافيا نقيا •

وما أبعد الفرق بين من يدخل الهيحاء بما سلحته به العصور الخوالي
من سهام ونبال ، وبين من يدخلها مدرعا بما ابتدعة العصور الحديثة من
معدات النزال ! وما أكبر الفرق بين الضوء ينبعث من زيت المصباح ، وبين
النور يتفجر من ثريات الكهرباء ! ولكننا مع ذلك ايها الاخ العزيز نعجب
بأصحاب القسي والنبال ، اذ لم تنقصهم الشجاعة ، ولم يفترقهم الثبات ،
ونحمد الأضواء الضئيلة التي تنبعث من زيوت المصابيح ، لانها على ضالتها
تصدع جوانب الظلام •

فاذا رأينا الغزالي غفل عن حقيقة تنبها نحن اليها ، أو أغلق عليه
موضوع فتحت لنا أبوابه ، أو أدركه وهن في الرأي ، أو تناقض في
فهم فكرة ، فجدد بنا أن نقدر ظروف زمانه ومكانه ، وأن نذكر كيف
كانت وسائله الى الفهم والادراك ، قبل أن نصب عليه جام اللوم والتشريب •

ان أهل تلك الأعصر الخالية ، كانوا يعتمدون كثيرا على ذاكرتهم ،
وكانوا في الوقت نفسه يتناولون كثيرا من الموضوعات ، لأن فكرة الاحصاء
وتوزيع الأعمال ، لم تكن مألوفة لديهم على نحو ما هي اليوم ، وكانوا
يرون الجهد في طلب العلم طاعة لله • فمن ثم حفظوا كثيرا ، وكتبوا
كثيرا ، ولكن ضاق وقتهم ، ووهنت قوتهم ، فلم يستطيعوا ترتيب ما كنزوا
من العلوم الكثيرة ، فخلطوا الغث بالسمين ، وعرض لهم الضعف ،
والتناقض ، والاضطراب •

وكذلك كان من أكبر الخدمات أن يتناول الشباب المثقف كتب
المقدمين ، فيدرسها ، ويفهمها ، ويحللها ، ثم يبين ما فيها من الخطأ
والصواب •

ومن أولى بذلك من طلبة الجامعة المصرية ، التي أنشئت لوصل

القديم بالجديد ، وحثَّ الخلف ، على الانتفاع بمراث السلف ، وانقاذ الجيل الحاضر ، من غلطات الجيل الغابر ؟

لا يخطيء من يتناول كتب المتقدمين بالدرس ، والتمحيص ، والتهذيب ، بل ذلك حق وواجب ، لأن فيه حياة لما يجب أن يحيا من الأفكار ، وموتا لما يجب أن يموت من الأوهام ، ولأن في النقد الصحيح تهذبا للمشاعر ، وتنويرا للعقول .

وانما يخطيء من يبالغ في حب المتقدمين ، فينسى سيئاتهم ، مع أن لهم سيئات ؛ أو يبالغ في بغضهم ، فينسى حسناتهم ، مع أن لهم كثيرا من الحسنات . والنقد الحق يركز على سرد المحاسن والعيوب ، بلا جور ولا محاباة ، وقد يذهب بصاحبه الى التوفيق بين الآراء المختلفة ، فيجعل من الزوايا المتعددة التي تنظر منها الى الحقائق شكلا واحدا منسجما الترتيب تنظر من نواحيه الى تلك الحقائق . فأعداء النقد ليسوا فقط أعداء لحرية الآراء ، ولكنهم أعداء لمنازع التوفيق .

وأنت يا أخى درست مؤلفات الغزالي ، وفهمتها ، وحللتها ، وبينت ما فيها من الخطأ والصواب ، فماذا ينقم الناس منك ، وقد ذكرته بالخير ، حين رأيت أن يذكر بالخير ، وذكرته باللام ، حين رأيت أن يذكر باللام ، وما كان الغزالي بأكبر من أن يخطيء ، ولا كنت أنت بأصغر من أن تصيب .

لقد راعهم أن يقسو قلمك على مؤلف له عندهم حرمة وقداسة ، وكان عليهم أن يذكروا أنك شاب ، وأن قلم الشباب قاس شديد ، بل ليتهم عملوا بما طالبوك به من الرفق والهدوء ، فلم يوجهوا اليك قارص اللوم ، ومر التأنيب .

كانت رسالتك مثارا للجدل والمناقشة ، ويعلم الله أنا لن نغضب

لذلك • لأننا نريد أن نخدم الحقيقة ، والحقيقة بنت البحث • وهل علمناك
الا أن تكون خادما للحقيقة ولو شق اليها الطريق ؟ فما دمت ترى أنك على
حق ، وما دمت تعتقد أنك سائر على الصراط السوى ، فلك أن تمسك
برأيتك ، وتدافع عن حقتك ، ولكن فى رفق ونزاهة ، فان الحق لا يخدم
بمثل الرفق والنزاهة • وكما يجب عليك أن تدافع عما تعتقد أنه حق ،
فان عليك أن تنفض يدك بسرعة البرق مما تعتقد أنه باطل ، فان الرجوع
الى الحق فضيلة ، والتماهى على الباطل نقيصة ، وليس بعد الحق الا
الضلال •

★ ★ ★

لقد علمتنا رسالتك ، بجانب ما تناولته من الأبحاث العديدة ، أننا
قطعنا شوطا بعيدا فى سبيل الآراء الحرة ، المدعمة بالقوة والنهوض • وان
كنا نأسف على أنه لا تزال هناك صدور ضيقة ، يؤذيها الهواء الطلق ،
وكان الخير فى أن تستروح به ، وتسكن اليه • ونأسف كذلك على أن
عدد هؤلاء كثير ، وعدد المفكرين قليل •

لقد زاد اغتباطى برسالتك أنها أول رسالة قيمة تناولت تاريخ الأفكار
الاسلامية بالنقد والتحليل ، وأرجو أن تكون خطوة تتبعها فى هذا المدى
خطوات • وان كان يحزننى أن يتألب عليك رجال المعهد الذى أعدك
لدخول الجامعة المصرية • ولكن الانصاف يقضى علينا بأن نعترف بأن هذه
سيئة لم ينفرد بها الأزهريون • فانا نرى بكل أسف أن الأزهريين يرمون
أصحاب الأفكار الحرة بالكفر والمروق ، وأنصار الآراء الجديدة يرمون
الأزهريين بالجهل والجمود • وهم جميعا من المسرفين •

واذا كان لى أن أنصحك - ومن الواجب أن أنصحك - فانى أدعوك
الى حرب هذه الضلالة • وحذار أن تقاطع أحدا من أساتذتك وزملائك
فى الأزهر الشريف ، فانكم جميعا طلاب علم ، وأنصار حق ، والتوفيق
بينكم ليس بالأمر المحال •

لقد فات كثيرا من عشاق الجديد أن يضموا اليهم أنصار القديم
بالرفق والمجاملة وأنت بحمد الله ربيب الأزهر والمعاهد الدينية ، فماذا
يضررك لو وصلت أساتذتك وزملاءك ، وجادلتهم بالتى هى أحسن ،
لتسيروا أصفاء فى التوفيق بين القديم والجديد •

اننى أخشى عليك كثيرا أيها الأخ ، فقد رأيت كيف قامت القيامة
حين اطلع الجمهور على جانب واحد من رسالتك ، فماذا عسى أن يصنع
هذا الجمهور حين يطلع على ما فيها من شتى الجوانب، ومختلف الأرجاء ؟
ولكن اياك أن تجزع ، وقد بدأت حياتك العلمية ، بصدمة من تلك
الصدمات الاجتماعية ، فذلك دليل على أنك خادم من خدام الإصلاح ،
وهو خير لقب تلقى به الله •

ولك خالص الدعوات ، والعطف ، والسلام •

منصور فهمى

تعقيب للمؤلف

أكرر الشكر لسيدى الأستاذ الدكتور منصور ، وأؤكد له أن بينى وبين علماء الأزهر الشريف عرا لا تقدر على فصمها الليالى • ولن أنسى ما حييت أنى مدين على الأقل لحضرات أساتذتى الأماجد الشيخ الدجوى والشيخ اللبان والشيخ الطواهرى والشيخ الزنكلونى والشيخ حسين والى والشيخ سيد المرصفى • فاذا قضت الظروف بأن تنقطع بينى وبين الأزهر جميع الصلات - لا قدر الله ولا سمح - فانى لن أنسى ولن ينسى أحد أنى مدين لأساتذتى فى الأزهر ، وأن خروجى عليهم ضرب من العقوق ، ونكران الجميل •

اللهم ان كنت تعلم أنى صادق فيما أقول ، فاجزنى بخير ما يجزى به المؤمن الصادق ، وان كنت تعلم أنى أظهر غير ما أضمر ، فاغفر لى وتب علىَّ فانك وحدك التواب الغفور •

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين •

وبعد فهذا هو الكتاب الذى نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية ، والذى سلقنى العلماء من أجله بالسنة حداد •

هذا هو كتاب (الأخلاق عند الغزالى) أقدمه للجمهور : ليكون المرجع لمن يريد أن يتبين مبلغ المغرضين من الصدق ، وحظ المرجفين من الصواب •

هذا هو الكتاب الذى رميت من أجله بالكفر والزندقة ، والذى فجر لحسادى ينبوعا من اللغو والترثرة لا ينضب ولا يفيض • وما أنا والله بنادم على رأى رأيته ، أو قول جهرت به ، فلست ممن يخافون فى الحق لومة لائم ، أو يقيمون وزنا لكيد الحاسدين ، ولغو اللالعين ، من مرضى القلوب ، وضعاف العقول ، وصغار النفوس ؛ وإنما يحزننى ما يلاقى أصدقائى من العنت فى دفع ما يفترى الكاذبون ، ويختلق المفسدون •

على أن الغزالى رحمه الله عانى من حاسديه مثل ما عانيت ، ولأقضى ضعف مالاقيت ، حتى لنجده يطمئن أحد اخوانه بقوله : « رأيتك أيها الأخ المشفق موغر الصدر ، مقسم الفكر ، لما قرع سمعك من طعن طائفة من الخسدة على بعض كتبنا المصنفة فى أسرار معاملات الدين ، وزعمهم أن فيها ما يخالف مذهب الأصحاب المتقدمين ، والمشايخ المتكلمين ، وأن

العدول عن مذهب الأشعرى ولو فى قيد شبر كفر ، ومباينته ولو فى شىء نزر ضلال وخسر ، فهون أيها الأخ المشفق على نفسك ، لا تضيق به صدرك وفل من غربك قليلا ، (واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا) ، واستحقر من لا يحسد ولا يقذف ، واستصغر من بالكفر والضلال لا يعرف ، فأى داع أكمل وأعقل من سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وقد قالوا انه مجنون من المجننين ، وأى كلام أجل وأصدق من كلام رب العالمين ، وقد قالوا انه أساطير الأولين ، وإياك أن تشتغل بخصامهم ، وتطمع فى افحامهم ، فطمع فى غير مطمع ، وتصوت فى غير مسمع ، أما سمعت ما قيل :

كل العداوة قد تُرجى ازالتها الا عداوة من عاداك عن حسد

ولو كان فيه مطمع لأحد من الناس ، لما تلى على أجلمهم رتبة آيات اليأس • أو ما سمعت قوله تعالى : « وان كان كبر عليك أغراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتهم بأية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين » (١) • وقوله تعالى : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » (٢) • وقوله تعالى : « ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا ان هذا الا سحر ميين » وقوله تعالى : « ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ونكن أكثرهم يجهلون » (٣) •

وقد صار الغزالى بعد ذلك حجة الاسلام • ونحن لا نريد أن يفتن

(١) كبر : شق • النفق : سرب فى الارض •

(٢) يعرجون : يصعدون • سكرت : حبست عن النظر •

(٣) قبلا : عيانا ومقابلة ، وأخطأ النسخة حين ظنها جمع قبيل بمعنى كليل •

الناس بنا كما فتنوا به ، فهل نرجو أن نظفر فقط بالسلامة من تقول
المفترين ، وتزيد المعتدين ؟
« على الله توكلنا • ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير
الفاحين » ﷻ

محمد زكي عبد السلام مبارك

الباب الأول

في العصر الذي عاش فيه الغزالي

تمهيد

أريد أن أذكر شيئاً عن العصر الذي عاش فيه الغزالي ؛ وليس ذلك لأن الغزالي صورة لعصره . بل ليعرف القارئ الى أى حد تأثر الغزالي بعصره وأثر فيه . فمن المجازفة أن ندرس عصراً من العصور ، لنعرف من نبغ فيه من الفلاسفة ، والكتاب ، والشعراء ؛ وإنما ندرس شخصية الكاتب ، أو الشاعر ، أو الفيلسوف . ثم نبحت عن المؤثرات التي كونت تلك الشخصية ، فقد تكون هذه المؤثرات قريبة ، وقد تكون بعيدة . وفقاً لما أحاط بالشخص من الظروف .

ولتوضيح هذا أذكر أن الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين درس العصر الذي عاش فيه أبو العلاء ، ليعرف الأصول التي كونت وجهة نظره في الحياة ، ثم فعل مثل هذا حين شرع في درس أبي نواس ؛ ولكن الدكتور طه لا ينكر أن عصر أبي العلاء أنتج رجالاً يسيرون غير سيرته ، ويرون ما لا يراه ؛ وأن عصر أبي نواس أخرج رجالاً لا يسيفون العتب ، ولا يجيزون المجون ؛ فمن الواجب أن ندرس أولاً ما بين أيدينا من آثار الفلاسفة ، والكتاب ، والشعراء ، ثم نتبين بعد ذلك ما تألفت منه هذه الآثار فقد تكون نتيجة لمطالعات لا صلة بينها وبين العصر الذي ظهرت فيه . كما يمكن أن تكون نتيجة له بالذات .

والا فحدثنى كيف يكون الشيخ محمود خطّاب السبكى صورة لهذا العصر ، وهو يكوّن من تلامذته جمهرة لا يشعر بها الناس ؟ وأمّثال الشيخ السبكى عديدون ، ولكنى خصصته لكثرة مؤلفاته ، وقد يعثر عليه باحث يوما فى زوايا التاريخ ، أفتراه يدرس يومئذ هذا العصر ، ليعرف المؤثرات التى كوّنت عقلية هذا الرجل الذى يدهش حين تحدّثه عن أهل هذا الجيل ؟ !

انه لا شك فى تأثير البيئة والعصر ؟ ولكن ينبغى أن نعرف أن من الناس من يعيش فى قومه وعصره ، بجسمه لا بروحه ، فلا يحس بما يحس به معاصروه ، وانما يشعر بما كان يشعر به من سبقوه بأجيال ؟ ففى مصر اليوم ، ناس من القرن الثالث ، وآخرون من القرن السابع ، كما فى مصر اليوم من يمكن أن تكون آراؤه وأفكاره صورة صادقة لمكانه وزمانه ، وأحب أن يعفنى القارىء من ضرب الأمثال .

من أجل هذا أجمل القول عن العصر الذى عاش فيه الغزالى وأكتفى بوضع صورة قريبة من الواقع للحالة العامة فى عصره ، ليتمثل القارىء زمان الغزالى ومكانه وليعرف ما تمس الحاجة اليه مما أثر بالفعل فى حياته العقلية : فان الغرض من هذا الكتاب انما هو أن ندرس بالتفصيل آراء الغزالى فى الأخلاق .

الفصل الأول الدولة السلجوقية

- ١ -

لا نريد أن نفصل وصول تلك العشيرة التركية الى الغلبة والاستيلاء على أكثر الأقطار الاسلامية ، فانه لا حاجة الى ذلك الآن ، وانما نذكر فقط صورة مجملية لتلك المملكة الضخمة ، التي تفتأ الغزالي ظلها الظليل •

ذكر الأستاذ محمد الحضرى (بك) فى محاضراته فى الجامعة المصرية أن عشيرة السلاجقة انقسمت الى خمسة بيوت : الأول السلاجقة العظمى ، وهى التى كانت تملك خراسان ، والرى ، والجلال ، والعراق ، والجزيرة ، وفارس ، والأهواز • والثانى سلاجقة كرمان • والثالث سلاجقة العراق • والرابع سلاجقة سورية • والخامس سلاجقة الروم •

أما السلاجقة الكبرى فهى الدولة التى أسسها ركن الدين أبو طالب طغرل بك وحياتها ٩٣ سنة : من ٤٢٩ هـ - ١٠٣٩ م الى سنة ٥٢٢ هـ - ١١٢٧ م • وقد انقضت دولتهم على أيدي شاهات خوارزم •

وأما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة قاروت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، وهو أخو ألب ارسلان ، ومدة ملكهم ١٥٠ سنة • من ٤٣٢ هـ - ١٠٤١ م الى ٥٨٣ هـ - ١١٨٨ م • وقد انقضت دولتهم على أيدي الغز التركمان •

وأما سلاجقة العراق وكردستان فقد ابتدأت دولتهم سنة ٥١١ هـ - ١١١٧ م • وانتهت سنة ٥٩٠ هـ - ١١٩٤ م على أيدي شاهات خوارزم بعد أن مكثت ٧٩ سنة •

وأما سلاجقة سورية فكانوا من بيت تنش بن ألب أرسلان بن داود ابن ميكائيل بن سلجوق . وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٨٧ هـ - ١٠٩٢ م . و انتهت سنة ٥١١ هـ - ١١١٧ م . على أيدي الدولتين : النورية والأرتقية . فكانت حياتها ٢٤ سنة .

وأما سلاجقة الروم : ملوك قونية وأقصر ، فكانوا من بيت قطامش ابن إسرائيل بن سلجوق ، وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٧٠ هـ - ١٠٧٧ م . و انتهت سنة ٧٠٠ هـ - ١٣٠٠ م . فهي أطول دول السلاجقة حياة ، اذ مكثت ٢٣٠ سنة ، وقد انقضت على أيدي الأتراك العثمانيين والمغول .

والذي كان يرتبط تاريخه من هذه البيوتات بتاريخ الدولة العباسية لدخول بغداد في حوزتهم السلاجقة العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسيين من سنة ٤٤٧ الى سنة ٥٩٠ ، أي ١٤٣ سنة .

واستخلف من آل العباس في عهد الدولة السلجوقية تسعة خلفاء ، أولهم القائم بأمر الله الذي انتهى في عهده العصر البويهي ، وآخرهم الناصر لدين الله الذي انتهى في عصره ملك السلاجقة .

- ٢ -

عاصر الغزالي أكثر ملوك الدولة السلجوقية الكبرى ، فقد شهد عهد عضد الدين أبي شجاع ألب أرسلان ، و جلال الدين أبي الفتح ملكشاه ، و ناصر الدين محمود ، و ركن الدين أبي المظفر بركياروق ، و ركن الدين ملكشاه الثاني ، و محمد بن ملكشاه .

وقد ولد الغزالي في آخر عهد طغرل بك ، الذي ملك بغداد ، و تقرب من الخليفة حتى تزوج الخليفة بنت أخيه . والذي تطلع الى أن يتزوج من البيت العباسي . وهو أمر لم تجر به العادة . فأرسل سنة ٥٤٣ يخطب بنت الخليفة ، ثم ظفر بزواجها في حديث طويل .

أما ألب أرسلان فكان واسطة عقد الدولة السلجوقية ، وفى عهده أسست المدارس النظامية ، صاحبة الفضل على الغزالي ، وسنعود إليها بعد قليل . وأما محمد بن ملكشاه فهو الذى وضع له الغزالي كتاب التبر المسبوك فى نصيحة الملوك .

هذا ما يهمنا من دولة آل سلجوق ، وما نريد أن نزيد .

الفصل الثانى

الباطنية

فى الوقت الذى كان فيه السلاجقة يسيطون سلطانهم على فارس والعراق والجزيرة الى آخر ما استولت عليه تلك البيوتات التى أجمعنا حالها فى الفصل الماضى ، كان الفاطميون يسيطرون على المغرب ، وعلى مصر ، ويهمون ببسط سلطانهم على أقطار المشرق ، بغاية الدعاة .

والذى يعينى الآن هو اجمال دعوة الباطنية ، لأن الغزالي شغل بهم ، وكتب فى الرد عليهم ، وان لم تصلنا كتبه فى هذا الباب ، ومسترى حين تتكلم عن خطته فى التأليف كيف اتهم بالميل اليهم ، اذ شرح آراءهم عند نقدها بطريقة تقربها من متناول العقول .

وأحب أن يعرف القارئ أن أكثر ما يحتل رموس المسلمين من الأفكار والعقائد ، ليس الا أثرا للدعوات المتعددة التى قام بها العباسيون فى الشرق ، والفاطميون فى الغرب ، و (كل حزب بما لديهم فرحون) .

والواقع أن الدعاة كانوا غاية فى المكر والدهاء ، فقد عرفوا كيف يملثون تلك الرموس الجوفاء بالخرافات ، والوساوس ، والأضاليل ؛

وهذه القاهرة لا تزال سماء مسكونة بالمعبودات الصغيرة ؛ كسيدنا الحسين ،
والسيدة زينب ، والسيدة فاطمة النبوية ، ومن اليهم من الأولياء ، فيما
زعم الفاطميون ومن لف لفهم من علماء الاسلام ! !

ولولا خوف الاطالة لشرحت للقارئ طرائق الباطنية فى نشر الدعوة
IioPaganisme فقد كانوا أمهر من الانجليز والفرنسيين ، والامريكان فى
المصر الحديث ، وكانت جنايتهم شديدة الخطر فى مسخ عقول الامم
الاسلامية المسكينة ، التى قيدها الجهل ، ثم رماها بين أيدي طلاب الملك
من العباسيين والفاطميين * فلم يرحمها أولئك ولا هؤلاء *

كان دعاة الباطنية لمكرهم ينتقلون بالطالب من حال الى حال ،
فيفهمونه أولا أن الآفة التى نزلت بالامة فشئت شملها ، وفرقت جمعها ،
ليس لها من سبب الا ذهاب الناس عن أئمتهم الذين يعرفون بواطن
الشرعية ، لأن دين محمد - فيما يزعمون - ليس هو ما تعرفه العامة ، بل
هو علم خفى غامض ، ستره الله فى حجبهِ ، وعظمه عن ابتذال أسرارهِ ،
فلا يطبق حملة ، ولا يقوم بأعبائه ، الا ملك مقرب ، أو نبي مرسل ، أو
عبد مؤمن امتحن قلبه بالتقوى ؛ ثم يتوغلون مع الطالب فى مجاهل من
ظلمات الآراء ، والأهواء ، بعضها خاص بتقديس أئمتهم ، ورفعهم الى
الاختصاص بفهم أسرار التشريع ، وبعضها خاص بتنظيم الدعوة ونشرها
بين الناس *

وأشهر دعاة الباطنية فى الشرق هو الحسن بن الصباح * الذى رحل
الى مصر ، فلقى فيها الخليفة المستنصر ، وتلقى بها الدعوة الباطنية ، ثم عاد
الى مرو لنصرة هذا المذهب بقلمه وسيفه ، فكان أول ما فعله أن استولى
على قلعة (الموت) وتحصن بها ، ثم ثبت قدمه فى الأقطار الفارسية ، بحيث
كان يحسب له ولأتباعه ألف حساب ، ونشبت بينه وبين السلاجقة عدة
حروب *

ومن شاء الزيادة على هذا القدر من أمر الباطنية فليرجع الى كتب التاريخ ، ثم ليرجع الى تفصيل آرائهم ان شاء في كتاب الملل والنحل للشهرستاني ، فان في آرائهم غرائب وأعاجيب ، وقد ورد ذكرهم في عدة مواطن من كتب الغزالي ، وعلى الأخص كتابه « فيصل التفرقة » بين الاسلام والزندقة ، فليعد اليه من أراد أن يرى مناقشته لبعض ما يقولون •

الفصل الثالث الحروب الصليبية

- ١ -

قد عرفت أن سلطان السلاجقة امتد على بلاد الروم ، في قونية واقصرا ، وما اليهما من البلاد، وعرفت كيف كان التنافس بين السلجوقيين والفاطميّين ، فليس من الصعب أن تعرف كيف دعا ملك الروم حملة الصليب من الافرنج الى قتال المسلمين ، فقد أمن جانب الفواطم لعداوتهم للسلاجقة ، وانها لفرصة سانحة ، لا يصح أن يضعها طلاب الملك ، وعشاق الحياة !

لجأ قصر الروم الى البابا رئيس النصرانية ، يستصرخه لصد أعدائه السلاجقة ، فراها البابا فرصة لبسط نفوذه على ملوك أوروبا وأمرائها ، فدعاهم الى الدفاع عن النصرانية ، واخراج بيت المقدس من أيدي المسلمين •

وأود أن يعرف القارئ أن الساسة يعتمدون دائما على استغلال العواطف ، واخماد عقول الجماهير ، ومن هنا لم يجد دعاة الحروب الصليبية بدا من الكذب على الحقيقة والتاريخ ، فزعموا أن المسلمين

يضطهدون نصارى الشرق ، ويسومونهم سوء العذاب ، وقد نجحوا فى استنفار أوروبا ، عامتها وخاصتها ، وساقوهم باسم الدين الى ميدان القتال •

والدين أداة من أدوات الفتح ، والاستيلاء ، فى أيدي الشعوب القوية ، وغلّ فى أعناق الأمم الضعيفة ، والويل كل الويل للمغلوب ! فقد ملك المسلمون الأرض باسم الدين ، كما ذلوا بعد ذلك باسم الدين ، لأن القوى الرشيد يملك بدينه آخرته ودنياء ، أما الضعيف المأفون فلا يزال يرتطم فى ضعفه الذى يسميه دينا حتى يحقق به الهلاك !

وكذلك زحف شياطين الغرب على الشرق باسم الدين ففعلوا به الأفاعيل ، فى حين أن المسلمين كانوا يكون فى مساجدهم يوم الجمعة ليوقظوا لهم الخوامد ، والنفوس الرواكذ ، فما استمع لهم أحد ، ولا استجاب لهم مجيب ! ولم ذلك ؟ ذلك بأن الدين لا يقوم بنفسه ، وإنما يقوم به كما قلت : طلاب الملك ، وعشاق الحياة ! والا فحدثنى لماذا تغاضى الفاطميون أبناء الرسول ، ولم يفضبوا لزحف النصارى على أملاك المسلمين ؟

الملك • العظمة • الحياة • تلك آمال الأمم ، وأمانى الشعوب • فإن أدى الدين الى الملك والعظمة والحياة ، فهو نعمة من الله ، لأن الله بالمؤمنين رءوف رحيم ، أما ان نزل بهم الى الحضيض فهو بدعة ابتدعها الأخبار والرهبان ، وأمثال الأخبار والرهبان • ومن كان فى ريب مما نقول فليسأل التاريخ •

ثم أخذ الصليبيون فى فتح بلدان المسلمين ، فاستولوا على كثير من مدن آسيا الصغرى والشام ، وكونوا لهم فيها امارات سميت بالامارات اللاتينية ، نسبة الى الأجناس التى كان يتألف منها حملة الصليب •

وأول ما أسس من هذه الامارات امارة الرها بوادى الفرات سنة ٤٩٠ هـ - ١٠٩٧ م • ثم انطاكية سنة ٤٩١ هـ - ١٠٩٨ م ، ثم فتحوا

بيت المقدس • وقتلوا من أهله نحو ٧٠٠٠٠ مسلم ، بعد أن سجل التاريخ
من سوء رأى الفواطم ما يمنعا من ذكره الحياء •

- ٢ -

أتدري لماذا ذكرت لك هذه الكلمة عن الحروب الصليبية ؟ لتعرف
أنه بينما كان بطرس الناسك يقضى ليله ونهاره ، فى اعداد الخطب وتحجير
الرسائل ، لحت أهل أوروبا على امتلاك أقطار المسلمين ، كان الغزالي
(حجة الاسلام) غارقا فى خلوته ، منكبا على أوراده • لا يعرف ما يجب
عليه من الدعوة والجهاد ! ! ويكفى أن نذكر أن الافرنج قبضوا على أبى
القاسم الرملى الحافظ يوم فتح بيت المقدس ، ونادوا عليه ليفتدى ، فلم
يفتده أحد ، ثم قتلوه ، وقتلوا معه من العلماء عددا لا يحصيه الا الله ،
كما ذكر السبكى فى طبقاته •

وما ذكرنا هذه المأساة الا لنعد القارئ لفهم حياة الغزالي ، ولتقنعه
بأنه ليس من الحتم أن يكون الرجل الممتاز بعلمه صورة لعصره ، فان
كتب الغزالي لا تنبئنا بشيء عن تلك الأزمة التى عاناها المسلمون حين ابتدأت
الحروب الصليبية •

ومن الخطأ أن نقصر الأخلاق على سلوك المرء كفرد مستقل عن
الحياة الاجتماعية ، فلكل ظرف واجباته ، ويتعسر وجود حالة لا تقضى
فيها الأخلاق •

الفصل الرابع

المدارس النظامية

نسبة الى « نظام الملك » : وزير السلطان ألب أرسلان، وابنه ملكشاه . مكث في الوزارة ثلاثين سنة : عشر منها في سلطنة ألب أرسلان . وعشرون في سلطنة ملكشاه . وقد مات « نظام الملك » قتيلا ، ولكن اختلف المؤرخون في سبب قتله : فمنهم من يروى أنه لما أسرف في النفقة على المدارس النظامية ، حتى بلغ ما ينفقه على طلبة العلم ٦٠٠٠٠٠ دينار في السنة ، وشي به بعضهم الى السلطان ملكشاه ، وقالوا (ان الأموال التي ينفقها نظام الملك في ذلك تقيم جيشا يركز رايته في سور القسطنطينية) فعاتبه ملك شاه في ذلك فأجابه « يا بني : أنا شيخ أعجمي ، لو نودى علىّ في من يزيد لم أحفظ خمسة دنائير ، وأنت غلام تركي ، لو نودى عليك عساک تحفظ ثلاثين دينارا ! وأنت مشغل بلذاتك ، منهمك في شهواتك ، وأكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعاتك ، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب ، اذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان ، وقوس لا ينتهى مدى مرماها الى ثلثمائة ذراع ، وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي ، والخمور ، والملاهي ، والمزمار ، والطنبور ، وأنا أقمت لك جيشا يسمى جيش الليل ، اذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامهم ، صفوفها بين يدي ربهم ، فأرسلوا دموعهم ، وأطلقوا ألسنتهم ، ومدوا الى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك ، فأنت وجيوشك في خفارتهم تغيثون ، وبدعائهم تبيتون ، وبركاتهم تمطرون وترزقون » فقبل ملكشاه وسكت !

نقل هذا جوجي زيدان في كتاب « التمدن الاسلامي » عن كتاب سراج الملوك ، ولم يعقب عليه ، بل اكتفى بأن ذكر أن « نظام الملك » توفي مقتولا سنة ٤٨٥ هـ .

ويذكر غير واحد من المؤرخين أن « نظام الملك » ولى حفيده عثمان

ابن جمال الملك أعمال مروء وأرسل السلطان اليها شحنة^(١) اسمه قودن، وهو من خواصه ، فانزع عثمان فى شيء . فحملت عثمان حادثة سنه ، واعتزازه بجده ، على أن قبض على قودن وسجنه ، ثم أطلقه ؛ فقصده السلطان ملكشاه مستغيثا شاكيا فافتاظ السلطان ملكشاه لاستبداد « نظام الملك » وبنيه ، وخروجهم على حدود سلطتهم . وأرسل الى نظام الملك رسالة يقول فيها : (ان كنت شريكى فى الملك ، فلذلك حكم ، وان كنت نائبى ، فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة ، فهؤلاء أولادك قد جاوزوا أمر السياسة وطمعوا ، حتى فعلوا ... الخ) .

فقال نظام الملك لحاملى تلك الرسالة :

« قولوا للسلطان : اذا كنت لم تعلم بعد أنى شريكك فى الملك ، فاعلم ! فانك ما نلت هذا الأمر الا بتدبيرى ورأبى ، أما تذكر حين قتل أبوك ، فمقت بتدبير أمرك ، وقمعت الخوارج عليك : من أهلك وغير أهلك ، وأنت فى ذلك الوقت تتمسك بى ؟ فلما قدت الأمور اليك ، وأطاعت القاصى والدانى أقبلت تتحلل لى الذنوب ، وتسمع فى الوشايات . قولوا للسلطان : ان دواتى مقترنة بتاجك ، فمتى رفعتها رفع ، ومتى سلبتها سلب ! » .

ويذكرون أن الرسل اتفقوا على كتمان هذه الرسالة ، ولكن كان للسلطان عين من بين أولئك ، بلغه ما قال نظام الملك بالحرف الواحد ، فغضب السلطان ودس لنظام الملك من قتله بعد ذلك .

والاقرب الى الصواب ما ذكره الاستاذ محمد (بك) الحضرى فى محاضراته بالجامعة المصرية من أن نظام الملك قتل بيد أحد الباطنية حين بعث عسكره الى قلعة الموت ، وحصر فيها الحسن بن الصباح ، وأخذ عليه الطرق .

(١) الشحنة فى التعابير القديمة يساوى ناظر المالية فى التعابير الحديثة .

وهذا لا ينافى ما نقل من النفرة التى وقعت بين نظام الملك وبين ملكشاه ، فان حسد الخلفاء والسلاطين لوزرائهم معروف ، وعلى الأخص فى تلك الأيام المظلمة ، التى طبعت بطابع الاستبداد وكان الأمر فيها للهوى ، والحكم للجبروت ! !

وقد أكثر الشعراء من رثاء نظام الملك ، فمن ذلك قول مقاتل بن عطية البكرى :

كان الوزير نظام الملك لأولوة يتيمة صاغها الرحمن من شرف
بدت فلم تعرف الأيام قيمتها فردها غيرة منه الى الصدف

وكما بنى الفاطميون الجامع الأزهر فى أواسط القرن الرابع لتأييد مذهب الشيعة ، بنى نظام الملك مدارس فى أواسط القرن الخامس لتأييد مذهب أهل السنة . وهكذا كان المسلمون ينشئون المدارس لتثبيت الملك ، كما يفعل الأوروبيون والأمريكيون فى هذا الجيل ، ولا عيب فى ذلك : فالعلم من أمضى الأسلحة فى استلال السخائم من الصدور ، والسياسة أدهى وأمكر من أن تغفل مثل هذا السلاح ! !

وكذلك عنى نظام الملك بإنشاء المدارس والرباطات ، ليغمر العلماء والزهاد بفضلهم ، فيكون له منهم جرائد شفوية تنشر دعوته فى الشام ، والعراق ، وخراسان ، وهكذا فهم روح العصر فاستغل أهلهم ، حتى ليذكرون أنه كان اذا دخل عليه الأئمة الاكابر لا يقوم لهم ، ويجلس فى مسنده ، وكان له شيخ فقير ، اذا دخل اليه يقوم له ، ويجلسه فى مكانه ويجلس بين يديه ، وأنه سئل عن ذلك فقال : ان أولئك اذا دخلوا يتنوبون على بما ليس فى ، فيزيدنى كلامهم عجباً وتيتها وهذا يذكرنى بعيوب نفسى فأرجع عن كثير مما أنا فيه ! !

واذا صحت هذه الرواية ، فانها تدل على أن علماء ذلك العصر

كانوا أضعف من أن يجهرُوا بالنهى عن المنكر ، وأن الخاصة كانوا لا يأبون سماع النصيح من الفقراء والمجاذيب ، لأن السياسة كانت تقضى اذ ذاك بمجاملة هذا الصنف من الناس •

ومهما تكن نيات نظام الملك - والله عليم بذات الصدور - فانه مشكور الصنيع ، فقد أكثر من المدارس ، ووقف عليها الأوقاف ، ورتب للطلبة الجرايات ، وبنى لهم الأسواق ، والمساكن ، والحمامات ، وظلت مدارسهُ بأوقافها زمناً ليس بالقليل ، وتخرج منها كثير من العلماء والأدباء •

ولهذه المدارس النظامية فضل على الغزالي ، فقد تلقى العلم في مدرسة نيسابور • وتولى التدريس في مدرسة بغداد ، وسنعود الى تفصيل ذلك في غير هذا الباب •

الفصل الخامس روح ذلك العصر

- ١ -

من الصعب تحديد الروح السائد في عصر من العصور ، وانما غاية المؤرخ أن يذكر الشواهد والأمثال ، ويستخلص منها ما يرجح أن تكون عليه صورة العصر الذي يدرسه •

وأنا أرجح أن تكون السذاجة هي الصفة الغالبة في ذلك العصر مع شيء من المكر في الأمراء والعلماء • ومن الشواهد الدالة على هذه السذاجة ما ذكره الغزالي في كتابه « المنقذ من الضلال » من أن الناس

كانوا يقولون حين ترك المدرسة النظامية ببغداد : انها عين أصابت الاسلام! وما نقل السبكي من أن أحد معاصريه سمعه يقول : « قطعت علينا الطريق وأخذ العيارون جميع ما معى ومضوا ، فبتبعهم ، فالتفت الى مقدمهم وقال : ارجع ويحك والا هلك ! فقلت له أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقى فقط ، فما هى بشىء تتفعون به ، فقال لى : وما هى نعلقتك ؟ فقلت : كتب فى تلك المخلاة ، هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها ، فضحك وقال : كيف تدعى أنك عرفت علمها ، وقد أخذناها منك ، فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ؟ ثم أمر بعض أصحابه فسلم الى المخلاة • قال الغزالي : هذا مستنطق انطقه الله ليرشدنى به فى أمرى ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته ، وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمى » •

والساذجة ظاهرة فى هذا الحديث ، فمن الواضح أن حفظ الكتب عن ظهر قلب حتى لا تبقى الى حفظها حاجة ، افة عظيمة فى تكوين العقول ، فليست قيمة العالم فيما يحفظ ، ولكن قيمته فى حسن الفهم ، وأصالة الراى ، وصواب الحكم •

ومن شواهد الساذجة ما أورده نظام الملك فى وصيته ^(١) التى تركها لخلفه من الساسة حيث يقول :

« كان الامام الموفق النيسابورى من جلة علماء خراسان ، مبجلاً مهيباً ، وقد نيف على الخمس والثمانين • وكان السائد فى عقيدة أهل زمانه أن كل من قرأ عليه العلوم العربية نبخ فيها ، وبلغ الغاية ، وانساق اليه العز والجاه ، والنعمة والثراء ، ولذلك وجهنى أبى من بلدة طوس الى نيسابور مع عبد الصمد الفقيه ، لأقرأ على ذلك الأستاذ النابغة الجليل • وهنالك حظيت به ، فوشجت بيننا أواصر المودة ، وتأكدت عرا الصداقة

(١) مقدمة السباعى لرباعيات عمر الخيام •

ولحظني بعين عانيته ، وأنزلته من نفسي أخص منزلة ، وألطفها ، ولبست على ذلك سنين عدة • وكنت أول ما نزلت به ، وجلست في حلقة ، لقيت تلميذين في مثل سني ، حديثي عهد مثلي بالقراءة على الامام الموفق • وهما عمر الخيام والحسن بن الصباح ، وكانا آيتين في الفطنة والذكاء فانس كل منا بصاحبيه ، ونمت بيننا نحن الثلاثة أحسن صحبة وأمتها • فكان اذا قام الامام عن الدرس ، وانفضت الحلقة ، اجتمعنا فتذاكرنا ما تلقيناه عليه من المعارف • وكان الخيام من أهالي نيسابور ، أما الحسن ابن الصباح فكان أبوه ناسكا ورعا متقشفاً ، ولكنه كان زنديقاً ، فأقبل الحسن يوماً على عمر الخيام فقال له : لقد صحح في أذهان الناس قاطبة أنه ليس من تلميذ يتخرج على الامام الموفق الا مصيباً عزاً واقبالاً وثروة وجاهاً ، فهب أن ذلك لم يتفق لنا نحن الثلاثة جميعاً فانه لا بد أن يقع لواحد منا ، فماذا يكون حق الاثنين الخائين على ذلك الفائز الظاهر ؟ فلنا له : اقترح ما تشاء ، فقال : فلتعاهد الآن على أنه من أصاب منا الثراء فعليه أن يقسمه فيما بيننا نحن الثلاثة على السواء ، لا يؤثر نفسه بشيء دون أخويه • فاجبنا : ليكون ذلك كما قلت • ثم تحالفنا على ذلك وتعاهدنا ، ومرت الأعوام على ذلك ، وغادرت خراسان متجولاً في فضاء الله ، الى غزنة ، ثم الى كابل ، ولما عدت تقلدت منصب الوزارة في سلطنة السلطان ألب أرسلان ، وبعد مدة من الزمن عرف ذلك صاحبائي • فأتاني يطلبان انجاز وعدي القديم واشراكهما فيما انحاز لي من النعمة والثراء •

والذي يعنيني من هذه الحكاية هو أن يكون « السائد في عقيدة أهل ذلك الزمان أن من قرأ العلوم العربية على الامام الموفق نبغ فيها وبلغ الغاية وانساق اليه العز والجاه » وتلك خرافة لا يسيغها غير ضعاف العقول ، وصغار الاحلام ، وقد رأيت كيف كان الناس يتداولون « هذه العقيدة » وكيف كان الطلبة يتغنون بها في حلقات الدروس •

وقد رأينا في الفصل السالف كيف من « نظام الملك » على ملكشاه

بأن أقام له جيش الليل من العلماء والفقراء ، مع أنه لا يصح الدفاع عن العلم باظهار الحاجة الى دعوات أهله ودموعهم ، فبئس السلاح سلاح الدعم والدعاء • وانما تحرس الأمم بالعلم فى اقامة ما اعوج من الأخلاق وايقاظ ما خمد من النفوس ، واحياء ما اندرس من آثار العقول •

ومن الشواهد على سذاجة ذلك العصر التحدث بالنامات والأحلام وهى شارة الارتياب فى الواقع ، والايمان بالخيال •

- ٢ -

أما ما كان فى ذلك العصر من مكر الأمراء والعلماء ، فدلائله كثيرة مبصرة فى الكتب هنا وهناك ، ومؤلفات الغزالي شهيدة على ذلك ، فكثيرا ما نراه يشن الغارة على العلماء الذين يكثرون الجدل ، يتظاهرون بالغيرة على العلم والدين ، وهم فى الواقع طلاب جاه ، وطلاب مال !!

ويمكن الجزم بأن الغزالي يمثل عصره أصدق تمثيل وهو يتحدث عن الاتقياء المزيفين من المتصوفة الذين يخدعون الناس باسم التقى ، وهم فى أنفسهم أنصار غيٍّ وضلال وانما قلنا انه يمثل عصره ، لأنه يتكلم فى هذه الشؤون بحماسة عظيمة ، ليست صدى لمطالعته فى المؤلفات القديمة ، وانما هى أثر لفضبته من قوم عاش بينهم ، ولقى من مكرهم وريائهم أنواع الشقاء • وقد سبقه المعرى بنقد المتصوفة ، ولكن المعرى كان غير مسموع الكلمة فى نقدهم ، أما الغزالي فكانت كلمته فى ذمهم شديدة الأثر ، لأنه صوفى ، ولأن تلامذته كانوا عوناً له على نشر ما يريد •

واليك أنموذجا من كلامه عن أصناف المغرورين :

« وفرقة منهم عدلوا عن المنهاج الواجب فى الوعظ ، وهم وعاظ الزمان كافة ، الا من عصمه الله على الدور فى بعض أطراف البلاد ان كان ولسنا نعرفه ، فاشتغلوا بالطامات والشططح وتلفيق كلمات خارجة عن

قانون الشرع والعقل طلبا للاغراب ، وطائفة شغلوا بعبارات النكت وتسجيع
الألفاظ وتلفيقها ، فأكثر همهم الاسجاع والاستشهاد بأشعار الوصال
والفراق ، وغرضهم أن تكثر في مجالسهم الزعقات ، والتواجد ، ولو على
اغراض فاسدة ، فهؤلاء شياطين الانس ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل »
ص ٤٠٥ ج ٣ احياء *

على أن الغزالي كان بنفسه أداة من أدوات الصوفية ، وسترى كيف
كان ذلك في غير هذا الباب *

أما مكر الامراء والملوك فقد كاد ينحصر في حقل العامة وجرحهم الى
الحروب باسم الدين ، فمن المتعسر أن تجد أمة اسلامية حاربت آختها
باسم الملك ، في دعوة صريحة بل كانت كل أمة تختص نفسها بالهداية ،
وترمى غيرها بالمروق ، وكانت الجماهير وفودا لثار تلك الفن في مصر ،
والشام ، والعراق ، وخراسان ، وغيرها من ممالك المسلمين . ولعن الله
الساسة أصحاب الأغراض *

الفصل السادس

البلدان التي عرفها الغزالي

نريد أن نذكر في هذا الفصل بعض البلدان التي عرفها الغزالي ،
لصلة ذلك بحياته ، ونستثنى بغداد ، لأنها أشهر من أن تحتاج الى تعريف ،
وقد خصها الأستاذ الكبير الدكتور طه حسين بكلمة ممتعة في كتابه ذكرى
أبي العلاء ، فليرجع اليه من أراد *

ونعتمد في وصف تلك البلدان على معجم ياقوت ^(١) لقرب مؤلفه

(١) توفى ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان في سنة ٦٢٦ هـ . وكتابته من اجود ماعرف
العرب في القواميس الجغرافية .

من ذلك العصر ، ولأنه يتصور تلك المواطن على نحو ما كان يعرفها الناس
اذ ذاك ♦

طوس

مدينة بخراسان، تشتمل على بلدين يقال لاحدهما الطابران (وهى
التي دفن بها الغزالي) وللأخرى توفان ، ولهما اتر من ألف قرية ،
فتحت في أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وبها قبر على بن موسى الرضا
وبها ايضا قبر هرون الرشيد ♦ وقال مسعر بن المهلهل : وطوس أربع
مدن ، منها اثنتان كبيرتان واثنتان صغيرتان ، وبها اثار ابنية اسلامية جلييلة ،
وبها دار حميد بن قحطبة ، ومساحتها ميل في مثله ، وفي بعض بساينها
قبر على بن موسى الرضا وقبر الرشيد ، وبينها وبين نيسابور قصر هائل
محمم البنيان ، لم ار مثله علو جدران ، واحكام بنيان ، وفي داخله مقاصير
تجار في حسننها الاوهام ، وازاج ، ' ' واروقة ، وخزائن وحجر للخلوة ،
وسالت عن أمره فوجدت أهل البلد مجمعين على أنه من بناء بعض التبابعة ،
وأنه كان قصد بلاد الصين من اليمن ، فلما صار الى هذا المكان رأى أن
يخلف حرمه وكنوزه وذخائره في مكان يسكن اليه ، ويسير متخففاً ،
فبنى هذا القصر واجرى له نهرا عظيما آثاره بينة ، وأودعه كنوزه ،
وذخائره ، وحرمه ، ومضى الى الصين فبلغ ما اراد ، وانصرف فحمل
بعض ما كان جعله في القصر ، وبقيت له فيه بعد أموال وذخائر تخفى
أمكنتها ♦ وصفات مواضعها مكتوبة معه ♦ فلم يزل على هذه الحال تجتاز
به القوافل ، وتنزله السابلة ، ولا يعلمون منه شيئا ، حتى استبان ذلك
واستخرجه أسعد بن أبي يعفر صاحب كحلان (٢) لأن الصفة وقعت له ♦
وقد خرج من طوس عدد كبير من أئمة العلم أشهرهم أبو حامد

(١) مفردا أزوج يفتحني ضرب من الابنية .

(٢) من مخاليف اليمن .

الغزالي ، وخرج منها الوزير « نظام الملك » • قال ياقوت : وأهل خراسان
يسمون أهل طوس البقر ، ولا أدري لم ذلك ؟

وقال رجل يهجو نظام الملك :

لقد خرَّب الطوسي بلدة غزنة
فصبَّ عليه الله مقلوب بلدته^{١٠}
هو الثور قرن الثور في حير أمه
ومقلوب اسم الثور في جوف لحيته^(١١)

وقال دعبل الخزاعي من قصيدة يمدح بها علي بن أبي طالب رضي
الله عنه ويذكر قبري علي بن موسى والرشيد بطوس :

اربع بطوس على قبر الزكي به
ان كنت تربيع من دين علي وطريق
قبران في طوس : خير الناس كلهم
وقبر شرم : هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا
على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرئ رهن بما كسبت
يداه حقاً • فخذ ما شئت أو فذر

وطوس هذه هي موطن الغزالي • ومولده ، وبها قبره ، الا ان
صح ما رواه بعضهم من أنه ولد بقرية تسمى غزالة بالقرب من طوس •
وأنا لا أستبعد ذلك ، ما دام ياقوت يحدثنا أنه كان لطوس أكثر من ألف
قرية • وإذاً يكون الغزالي بفتح الزاي لا بتشديدها ، على أن في طبقات

(١٠) مقلوب طوس : سوط ، ومقلوب ثور : روث

السبكي ص ٩ ج ٤ رجلا آخر يلقب بالغزالي ، ولا ضرورة لأن يكون هذا اسماً لعائلة قديمة كما ظن الدكتور زويسر ، بل يمكن أن يكون كلاهما نسب لتلك القرية الصغيرة : غزالة •

نيسابور

قال ياقوت : هي مدينة عظيمة • ذات فضائل جسيمة • معدن الفضلاء ومنبع العلماء • لم أر فيما طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها ، ثم قال : ومن الرى الى نيسابور مائة وستون فرسخاً ، ومنها الى سرخس أربعون فرسخاً ، ومن سرخس الى مرو الشاهجان^(١) ثلاثون فرسخاً • ثم قال : وأكثر شرب أهل نيسابور من قُنِيٍّ تجرى تحت الارض ينزل اليها في سراديب مهياة لذلك ، فيوجد الماء تحت الأرض ، وليس بصادق الحلاوة ، ثم قال : وعهدى بها كثيرة الفواكه والخيرات وبها ريباس ليس في الدنيا مثله ، تكون الواحدة منه منّا وأكثر ، وقد وزنوا واحدة فكانت خمسة ارطال بالعراقي ، وهي بيضاء صادقة الياض كأنها الطلع ، ثم قال :

(١) مرو الشاهجان ، هي نصبة خراسان وكان بها لعهد ياقوت عشر خزائن موقوفة تحوى نفائس الكتب • منها خزانتان في الجامع احدهما يقال لها العريزية ، وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني ، وكان فيها ١٢٠٠٠ مجلد ، وأخرى يقال لها الكمالية ، لا أدري الى من تنسب ، وبها خزانة شرف الملك المستوفى أبي محمد بن منصور في مدرسته ومات المستوفى هذا في سنة ٤٤٩ هـ وكان حنفي المذهب ، وخزانة نظام الملك في مدرسته ، وخزانتان للسمعانيين وخزانة أخرى في المدرسة العميدية ، وخزانة لمجد الملك أحد الوزراء المتأخرين بها وخزائن الخاتونية في مدرستها • والضميرية في خانقاه هناك يقول ياقوت (وكانت سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد ، أكثرها بغير رهن) ويذكر أن أكثر فوائد مجمله من تلك الخزائن • وفي مرو الشاهجان يقول بعض الأعراب :

أقبرية الوادي التي خان الفها	من الدهر أحداث أثت وخطوب
تعالى أطارحك البكاء فاننا	كلانا بمرور الشاهجان غريب
ويقول أبو الحسين مسعود بن الحسن الدمشقي :	
أخلى ان أصبحتم في دياركم	فاننى بمرور الشاهجان غريب
أموت اشتياقا ثم أحيا تذكرنا	وبين التراقي والضلوع لهيب
فما عجب موت الغريب صباة	ولكن بقاء في الحياة عجيب

وكان المسلمون فتحوها في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه والأمير عبد الله بن كريز في سنة ٣١ صلحا + وبني بها جامعاً ، وقيل انها فتحت في أيام عمر رضي الله عنه على يد الأخنف بن قيس ، وانما انتقضت في أيام عثمان فأرسل اليها عبد الله بن عامر ففتحها ثانية +

وقد خرج من نيسابور عدد كبير من أئمة العلم أشهرهم الحافظ الامام أبو علي الحسين بن علي النيسابوري ، الذي رحل في طلب العلم والحديث + وعقد له مجلس الاملاء بنيسابور سنة ٣٣٧ وهو ابن ستين سنة وقد توفي سنة ٣٤٩ +

وقد أكثر الشعراء من ذم نيسابور + فمن ذلك قول أبي الحسن الاسترأباذي :

لا قدس الله نيسابور من بلد
سوق النفاق بمغناها على ساق
يموت فيها القتي جوعاً وبرئهم
والفضل ماشئت من خير وأرزاق
والخير افي معدن الغرثى وان برقت
أنواره في المعاني غير براق
وقال المرادي يذم أهلها :

لا تنزلن بنيسابور مقترباً
الا وجبلك موصول بسلطان
أولا فلا أدب يجدي ، ولا حسب
يفنى ، ولا حرمة ترعى لانسان
وقال معن بن زائدة الشيباني : يشكو ليله بنيسابور :

تمطى بنيسابور ليلي وربما
يرى بجنوب الري وهو قصير

ليالى اذ كل الأجرة حاضر
وما كحضور من تحب سرور
فأصبحت امّا من أحب فنازع
وأما الألى أفلهم فحضور
أراعى نجوم الليل حتى كأننى
بأيدي عداة سائرين أسير
لعل الذى لا يجمع الشمل غيره
يدير رحي جمع الهوى فتدور
فتسكن أشجان ونلقى أجرة
ويورق غصن للشباب نصير

وفى نيسابور تلقى الغزالي عن امام الحرمين الفقه والمنطق والأصول
حتى برع أنداده ، وزملاءه . وتولى فى أخريات أيامه التدريس بالمدرسة
النظامية فى نيسابور مدة يسيرة ، رجع بعدها الى طوس ، حيث اتخذ الى
جانب داره مدرسة للفقهاء ، وخانقاه للصوفية .

جرجان

مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان ، فبعض يعدها من هذه
وبعض يعدها من تلك ، قيل ان أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب
ابن أبى صفرة . وقد خرج منها عدد من الأدباء والعلماء والمحدثين . ولها
تاريخ ألفه حمزة بن يزيد السهمي . قال الاصطخرى : أما جرجان فانها
أكبر مدينة بنواحيها ، وهى أقل ندى ومطراً من طبرستان ، وأهلها أحسن
وقاراً وأكثر مروءة ويساراً من كبرائهم ، وهى قطعتان احداهما المدينة
والأخرى بكراباذ . وبينهما نهر كبير . ولجرجان مياه كثيرة . وضياح
عريضة ، وليس بالشرق بعد أن تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر
حسناً من جرجان . قال ياقوت : وبها الزيتون والنخل والجوز والرمان

وقصب السكر والأترج وبها ابريسم جيد لا يستحيل صبغه ، وبها أحجار
كبيرة لها خواص عجيبة ، وبها نعابين تهول الناظر ، ولكن لا ضرر لها •
وقد فتحت في سنة ١٨ هـ على يد سويد بن مقرن ، وخرج منها عدد
عظيم من العلماء ، كانت تشد اليهم الرحال •

وكان بها صنف جيد من الخمر ، وفيها يقول ابن خُرَيم :

وصهباء جرجانية لم يطف بها
خفيف ولم يُلمِّمُ بها ساعة غيرُ
ولم يشهد القس المهيمن نارها
طروقا ولم يحضر على طبخها حبرُ
أتانى بها يحيى وقد نمت نومةً
وقد لاحت الشعرى وقد طلع النسر
فقلت اصطبِجْها أو لغيرى فأهداها
فما أنا بعد الشيب ويحك والخمر
تعففت عنها فى العصور التى مضت
فكيف التصابى بعد ما كمل العمر
إذا المرء وفى الأربعين ولم يكن
له دون ما يأتى حياء ولا سِترُ
فدعه ولا تنفس عليه الذى أتى
وان جر أسباب الحياة له الدهر

ويذكر ياقوت أن أهل الكوفة كانوا يقولون : من لم يرو هذه
الآيات فهو ناقص المروءة *** وذكر أن مسلم بن الوليد صريح النوانى
مرض مرض الموت بجرجان ، وأنه رأى نخلة لم يكن فى جرجان غيرها
فقال :

ألا يا نخلة بالسَّحْبِ من أكفاف جرجان
ألا اني واياك بجرجان غريبان

والى جرجان رحل الغزالي ليتلقى العلم عن ابي نصر الاسماعيلي
وعلق عنه التعليقة التى حدثتك عما فعل بها العيارون وهو راجع الى
طوس *

دمشق

لو أنك رجعت الى ياقوت ، وقرأت فى معجمه أخبار هذه المدينة
نرايت كيف يضل العرب فى بقاء الخيال ، ولعرفت ان لهم حظا من
اساطير الاولين * وهذا الضلال فى ذكر من بنى مدينة دمشق يصور لنا
منزلتها المقدسة ، التى احتلت قبلا رهوس المسلمين : فهم تارة يذكرون
أن بانيها هو دماشق بن فاني بن مالك بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه
السلام ، وتارة أخرى يقولون انها بنيت على رأس ثلاثة الاف ومائة
 وخمس وأربعين سنة من جملة الدهر الذى يقولون انه سبعة آلاف سنة
وحينا يزعمون أن ابراهيم عليه السلام ولد بعد بنائها بخمس سنين
وحينا آخر يتوهمون ان العازر غلام ابراهيم عليه السلام هو الذى بنى
دمشق *

وأغرب من ذلك كله قول ياقوت : وقال أهل الثقة من أهل السير
ان آدم عليه السلام كان ينزل فى موضع يعرف الآن ببیت أنات ، وحواء
فى بیت لها ، وهابيل فى مقرى وكان صاحب غنم ، وقابيل فى قنينة وكان
صاحب زرع ، وهذه المواضع حول دمشق *

ووجه الغرابة فيه اخلاذه الى من يسميهم « أهل الثقة » وأين
وصل أهل الثقة الى أخبار آدم ونوح ، يا أيها المؤرخ الخطير !؟

وأجب ابن أبيه القارىء الى قيمة الاغراق والغلو فى وصف البلاد
فانه نعم الباعث على الرحلة والسياحة وان دل على سذاجة الواصفين

وأربعة أخماس الناس يشتاقون الى رؤيّة دمشق حين يقرءون أنها كانت مأوى الأنبياء ومصلاتهم ، وأنه كان بها مسجد ابراهيم وقبر موسى عليهما السلام ، وأنه لم توصف الجنة بشيء الا وفيها مثله !!

وكانوا يقولون : (عجائب الدنيا أربع : قنطرة سنجة ، ومنارة الاسكندرية ، وكنيسة الرها ، ومسجد دمشق) ولهذا المسجد حديث عجيب ، فقد ذكروا ان الوليد بن عبد الملك بن مروان لما أراد بناءه جمع نصارى دمشق وقل لهم : انا نريد أن نزيد في مسجدنا كنيسةكم يعني كنيسة يوحنا ، ونعطيك كنيسة حيث شئت وان شئت ضاعفنا لكم الثمن ، فابوا ، وجاءوا بكتاب خالد بن الوليد والعهد ، وقالوا انا نجد في كتبنا أنه لا يهدمها أحد الا خنق ، فقال لهم الوليد : فانا اول من يهدمها فقام وعليه قباء أصفر ، فهدم وهدم الناس ثم زاد في المسجد ما أراد .

فالوا ومثل في بنائه تسع سنين يعمل فيها عشرة الاف رجل !! . وقال موسى بن حماد البربري : رايت في مسجد دمشق ثنابه بالذهب في ارجاج محمورا فيها سورة (الهالم النذائر ، حتى زرت المقابر) الى آخرها ، ورايت جوهرة حمراء ملصقة في القف ، التي في فوه نعال : (حتى زرت المقابر) فسالت عن ذلك فقيل لي : انه ثلث بلويد بنت وثلث هذه الجوهرة لها ، فماتت فأمرت أمها ان تدفن هذه الجوهرة معها في قبرها ، فأمر الوليد بها فصيرت في قاف المقابر من (الهالم النذائر حتى زرت المقابر) . ثم حلف لأمها أنه قد أودعها المقابر فسكت . ونقل الجحظ في كتاب البلدان عن بعض السلف أنه قال : ما يجوز أن يكون أحد أشد شوقا الى الجنة من أهل دمشق لما يروونه من حسن مسجدهم . ويقول يافوت : ومن عجائبه أنه لو عاش الانسان مائة سنة وكان يتأمل كل يوم لرأى فيه كل يوم مالم يره في سائر الأيام من حسن صناعاته واختلافها .

ثم قال بعد كلام طويل : ولم يزل جامع دمشق على تلك الصورة يبهز بالحسن والتميق الى أن وقع فيه حريق في سنة ١٦٦ فأذهب بعض حسنه .

وقد أكثر الشعراء من وصف دمشق ، فمن ذلك قول أبي المطاع
ابن حمدان :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها
فلى بجنوب الغوطتين شجون
وما ذقت طعم الماء الا استخفنى
الى برّدى والنيرين حين
وقد كان شكّى فى الفراق يروعنى
فكيف أكون اليوم وهو يقين
فوالله ما فارقتكم قالياً لكم
ولكنّ ما يقضى فسوف يكون
وقال الصنوبرى :

صفت دنيا دمشق لقاطنيها
فلمست ترى بغير دمشق دنيا
تفيض جداول البلور فيها
خلال حدائق ينبئن وشيا
مكللة فواكههن أبهى الـ
مناظر فى مناظرنا وأهيا
فمن تفاحة لم تعد خدأ
ومن أترجة لم تعد ثديا
وقال البحتري :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها
وقد وفى لك مطريها بما وعدا

إذا أردت ملأت العين من بلد
 مستحسن وزمان يشبه البلدا
 يمسي السحاب على أجالها فِرَقاً
 ويصبح النبت في صحرائها بددا
 فلبست تبصر الا واكفاً خضلا
 أو يانعا خضراً أو طائراً غريدا
 كأنما القيظ ولى بعد جيئه
 أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

وقد أغرب الأقدمون في وصف دمشق ، ومسجد دمشق ، والذي
 ذكرته من ذلك كاف لما أنا بصده من صلة الغزالي بهذه المدينة ، فقد
 دخلها في سنة ٤٨٩ هـ وأقام بها أياماً قليلة ، ثم عاد إليها بعد ذلك . وأعتكف
 بالمنارة الغربية من الجامع ، قل السبكي : واتفق أن جلس يوماً في صحن
 الجامع الأموي وجماعة من المفتين يتمشون في الصحن وإذا بقروى أتاهم
 مستفتياً ، ولم يردوا عليه جواباً . والغزالي يتأمل . فلما رأى الغزالي أنه
 ليس عند أحد جوابه ، ويعز عليه عدم إرشاده . دعاه وأجابه . فأخذ
 القروى يهزأ به ويقول : المفتون ما أجابوني . وهذا فقير عامي كيف
 يجيئني ؟ والمفتون ينظرونه فلما فرغ من كلامه معه ، دعوا القروى
 وسألوه : ما الذي حدثك به هذا العامي ؟ وكان الغزالي إذ ذاك في زى
 فقير مجهول - فشرح لهم الحال فجاءوا إليه وتعرفوا به ، وسألوه أن يعقد
 لهم مجلساً ، فوعدهم ، ثم سافر من ليلته .

وهناك أحاديث كثيرة عن صلته بدمشق يضيق عن ذكرها المقام .
 وحسب القارئ هذا المقدار

بيت المقدس

من المواطن التي قدسها العرب والمسلمون ، وتركوا أمرها للخيال يصورها كيف شاء ، فهم يزعمون أن الله تعالى قال لسليمان بن داود عليهما السلام حين فرغ من بناء البيت المقدس : سئلي أعطك : قال يارب ، أسألك أن تغفر لي ذنبي . قال لك ذلك . قال يارب ، وأسألك أن تغفر لمن جاء هذا البيت يريد الصلاة فيه ، وأن تخرجه من ذنوبه كيوم ولد . قال لك ذلك . قال وأسألك من جاء فقيراً أن تغنيه . قال لك ذلك . قال وأسألك من جاء سقيماً أن تشفيه . قال ولك ذلك !! ويروون عن أبي ذر أنه قال : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أي مسجد وضع على وجه الأرض أولاً ؟ قال المسجد الحرام ، قلت ثم أي ؟ قال البيت المقدس ، وبينهما أربعون سنة ، وينقلون عن كعب أنه قال : معقل المؤمنين أيام الدجال البيت المقدس يحاصرون فيه حتى يأكلوا أوتار قسيهم من الجوع ، فينبأهم كذلك إذ يسمعون صوتاً من الصخرة ، فيقولون هذا صوت رجل شبعان ، فينظرون ، فإذا عيسى بن مريم عليه السلام . فإذا رآه الدجال هرب منه ، فيتلقاه بباب لدّ فيقتله . ويكاد الرواة يتفقون على أنها «عرصة القيامة ، ومنها النشر ، واليهما الحشر» . يزعمون أن سليمان كان اتخذ في بيت المقدس أشياء عجيبة : منها القبة التي فيها السلسلة المعلقة ينالها صاحب الحق ، ولا ينالها المبطل ، حتى اضمحلت بحيلة غير معروفة !! وكان من عجائب بنائه أنه بنى بيتاً وأحكمه وصقله ، فإذا دخله الفاجر والورع ، تبين الفاجر من الورع ، لأن الورع كان يظهر خياله في الحائط أبيض ، والفاجر يظهر خياله أسود ؟ . وكان أيضاً مما اتخذ من الأعاجيب أن ينصب في زاوية من زواياه عصا آبنوس فكان من مسها من أولاد الأنبياء لم تضربه ، ومن مسها من غيرهم أحرقت يده !! قال ياقوت (وقد وصفها القدماء بصفات ان استقصيتها أمللت القارئ) فياليت شعري ماذا عسى أن تكون تلك الصفات ؟

انه لا تثبت في ان دل ما وصف به بيت المقدس ليس الا صورة لمبلغ
 المتقدمين من فهم حقائق الاشياء ، فليست زيارته بمخرجه احدا من ذنوبه ،
 ولا براحة فقيراً من فقره ، ولا بمنقذة سقيماً من سقمه ، كما يزعمون
 ان الله قد ذلك وليس هناك سند يثق به التاريخ عن بناء المسجد احرام
 وبناء بيت المقدس بعده باربعين سنة ، لما يتوهمون ان النبي قال ذلك !
 ولن يادل المؤمنون اوتار فسيهم من اجوع حين يحاصرهم الدجال في بيت
 المقدس ، ولن يعود عيسى الى هذا العالم كما يتوهم كثير من الناس ،
 وهب ذلك يكون ، فمن يدري ان المؤمنين لن يملكو يومئذ غير الفسي
 والنبال ؟ ولا تنس السلسلة التي علقها في القبة سيدنا سليمان ، والتي
 كان ينالها صاحب الحق ، ولا ينالها المبطل ، فتلك بلا ريب وليدة الخيال !!
 وما عسى ان يكون ذلك البيت الذي كان اذا دخله الفاجر ظهر خياله
 اسود ، واذا دخله الورع ظهر خياله ابيض ؟

اذكر هذه الصورة العجيبة لبيت المقدس ، ثم اذكر قول ابن
 عباس : البيت المقدس بته الانبياء وسكنته الانبياء ، ما فيه موضع شبر الا
 وفد صلى فيه نبي ، او قام فيه ملك ، ثم اذكر ما يزعمون من ان اول شيء
 حسر عنه الطوفان بيت المقدس وان فيه ينفخ في الصور يوم القيامة ،
 وعلى صخرته ينادى المنادى يوم القيامة !

اذكر هذا كله ، ثم دعنا نخبرك بأن الغزالي يتمدح في كتابه « المنقذ
 من الضلال » بأنه كان يرحل الى بيت المقدس فيدخل الصخرة كل يوم
 ويفلق بابها على نفسه ويتعبد فيها طول النهار !! وأنه انكشفت له في أثناء
 هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها كما قال *

هذه المواطن التي قدسها الخيال ، ووضعت في فضلها الأحاديث ،
 أثرت تأثيراً بيناً في حياة الغزالي العقلية ، وطبعت نظره الى العالم بطابع
 خاص • ولولا خوف الاطالة لوصفنا ما رآه في سياحاته من المشاهد
 والباق ، ولكن الرغبة في الايجاز أرضتنا عن الاكتفاء بأشهر ما عرف من
 البلاد •

الفصل السابع

أعيان ذلك العصر

الذي يهمننا من أعيان العصر الذي عاش فيه الغزالي إنما هو ذكر أساتذته لتأثيرهم في تكوين عقله ، غير أنه من الحسن أن نذكر طائفة من علماء ذلك العصر لأن في ذلك تصويراً لحركة العقول إذ ذاك . ونكرر ما قلناه من أن الغرض إنما هو أن نقرب للقارئ زمان الغزالي ومكانه ، نوعاً من التقريب . فاما تحديد اتجاهات الفكر في تلك الآونة ، فلا يسهل هذا المؤلف ، الذي يراد به درس آراء الغزالي في الأخلاق .

الشهر ستاني

هو أبو الفتح محمد بن عبد الكريم المولود سنة ٤٧٩ والمتوفى سنة ٥٤٨ . تلقى العلم في نيسابور على أبي الحسن علي بن أحمد المدايني ، وقد ذكر السبكي بقية أساتذته في ص ٧٨ ج ٤ من طبقاته . ومن أشهر تأليفه كتاب (الملل والنحل) وهو كتاب جيد . قال في مقدمته : « وبعد فلما وفقني الله تعالى لمطالعة مقالات أهل العلم من أرباب الديانات والملل ، وأهل الأهواء والنحل ، والوقوف على مصادرها ومواردها ، واقتناص أواسئها وشواردها ، أردت أن أجمع ذلك في مختصر يحوى جميع ما تدين به المتدينون ، وانتحل المتحلون ، عبرة لمن استبصر ، واستبصارا لمن اعتبر » قيمة هذا الكتاب ترجع الى جمعه أكثر الآراء التي عرفها المسلمون لذلك العهد ، ومن عيوبه الإيجاز والغموض في أكثر المواطن

التي تحتاج الى البسط والبيان : وقد رماه معاصروه بزيغ العقيدة « لمبالغته
فى نصرة مذهب الفلاسفة » وسترى فيما بعد أن الشك فى عقائد أنصار
الفلاسفة كان من علامات ذلك الجيل •

الأبيوردى

هو أبو المظفر محمد بن أحمد الأبيوردى ، تفقه على امام الحرمين،
وشهد له أهل زمانه بحسن العقيدة - وكذلك كان العلماء دائماً فى حاجة
الى شهادة العامة لهم بحسن العقيدة ، كأنما الدين خرافة يسيغها العوام
وينكرها الخواص - وكان الأبيوردى يرى نفسه أولى بالخلافة وأحق
بها من سواه ، وقد جرت له هذه النزعة بلالاً كثيرة ، اضطر بسببها الى
مفارقة بغداد ، فرجع الى همدان واشتغل مدة بالتدريس والتأليف ، ثم
توفى مسموماً بأصبهان فى ربيع الأول سنة ٥٠٧ •

وكان الأبيوردى بارع الشعر ، وله فى الصبر على أحداث الدهر
آيات بينات ، ويندر أن نجد أدبياً لا يحفظ قوله :

تنكّر لى دهرى ولم يدر آتى
أعز وأحداث الزمان تهون
فبات يرينى الخطب كيف اعتداؤه
وبت أريه الصبر كيف يكون
ومن بديع الشعر أبياته التى يتشوق فيها الى أحبابه ، وقد خلاهم
بغداد •

ألا ليت شعرى هل أرائى بغيضة
أبيت على أرجائها وأقيل
هواء كأيام الهوى لا يفبه
نسيم كلحظ الغائيات عليل

وعصر رقيق الطرتين تدرجت
 على صفحته نفرة وقبول
 وأرض حصاها لؤلؤ وترايبها
 تضوّع مسكا والمياه شمول
 بها العيش غض والحياة شهية
 وليلى قصير والهجير أصيل
 فقل لأخلائى ببغداد هل بكم
 سلو فعندى رنة وعويل
 نرنحنى ذكراكم فكأنما
 تميل بى الصهباء حيث أميل
 لئن قصرت أيام أنسى بقر بكم
 فليلى على نأى المزار طويل

الأرجاني

هو أبو بكر أحمد بن الحسين الأرجاني ، ولد حوالى سنة ٤٦٠ هـ
 وتوفى سنة ٥٤٤ هـ أصله من شيراز وتولى القضاء بمدينة تستر . وهو من
 فحول الشعراء وله هذه الأبيات :

سَفَرْتُ كى تزود الحب منها
 نظرة حين آذنت بالتثنائي
 وأرت أنها من الوجد مثلى
 ولها للفراق مثل بكائي

فتباكت ودمعها كسقيط الـ
طلَّ في الجلَّانة الحمراء
فترى الدمعنين في حمرة اللو
ن سواء وما هما بسواء
خدها يصبغ الدموع ودمعي
يصبغ الخد قانيا بالدماء
خضب الدمع خدها باحمرار
كاختضاب الزجاج بالصهباء
وفي مقدور القارئ أن يرجع الى كتب الأدب والتاريخ ليعرف من
نبغوا في القرن الخامس ، فان الوقوف على آراء أولئك النوابغ من أقرب
السبل الى فهم روح ذلك العصر ، أما نحن فلا نريد أن نطيل •

الباب الثاني

في حياة الغزالي

تمهيد

نريد أن نتكلم بإيجاز عن حياة الغزالي ، لأنه لا يعنينا منها غير جانب واحد : وهو حاله حين وضع مؤلفاته في الأخلاق •

ونحب أن ننبه القارئ الى أن المصدر الموثوق به انما هو كتابه « المنقذ من الضلال » فأما الكتب التي ترجمته فهي في أكثرها موصومة بالمغالاة ، لأن الغزالي كما سترى نزل من أهل عصره ومن بعدهم منزلة حملت أكثر مترجميه على تصويره كرجل لا ينبغي لأحد أن يناله بنقد أو تجريح ، وانهم لواهمون •

ولم نستشير التراجم ، والمترجم نفسه يتكلم بسذاجة وإخلاص عن تطور حالته العقلية ؟ وهي التي تهمننا في هذا الباب •

الفصل الأول

أسرته

ولد الغزالي من أسرة فارسية ، لم يهتم بها التاريخ ، وانه ليكنم
أن نعرف شيئاً عن أبيه وأخيه ، لنعرف الروح السائد في أسرته •

أما أبوه فقد نقل السبكي في طبقات الشافعية « أنه كان فقيراً صالحاً
لا يأكل الا من كسب يده في عمل غزل الصوف ويطوف على المتفقهة
ويجالسهم ، ويتوفر على خدمتهم ، ويجد في الاحسان اليهم ، والنفقة بما
يمكنه عليهم وأنه كان اذا سمع كلامهم بكى وتضرع ، وسأل الله أن
يرزقه ابناً ويجعله فقيهاً ، وأنه كان يحضر مجالس الوعظ ، فاذا طاب
وقته بكى • وسأل الله أن يرزقه ابناً واعظاً » ص ١٠٢ ج ٤ •

وقد صار ابنا هذا الفقير فقيهاً ، واعظين ، فان شئت قلت انها دعوة
أجيب ، وان شئت قلت ان حب هذا الرجل للفقرة والوعظ نقل الى ولديه
بطريق الوراثة •

وأما أخوه فقد ذكر غير واحد أنه طاف البلاد وخدم الصوفية في
غنغوان شبابه ، وصحب المشايخ ، واختار الخلوة والعزلة ، حتى انفتح له
الكلام على طريقة القوم ، وانه خرج الى العراق ، ومالت اليه القلوب ،
ودخل بغداد وعقد مجلس الوعظ ، فظهر له القبول ، وازدحم الناس على
حضور مجلسه ، وأن صاعد بن فارس دون مجالسه ببغداد فبلغت ثلاثاً
وثمانين • وذكر ابن خلكان انه كان صاحب كرامات واشارات ، وانه كان
من الفقهاء غير أنه مال الى الوعظ فغلب عليه • وينقلون أن قارئاً قرأ يوماً

وأن الذي كفله مع أخيه هو رجل متصوف من أهل الخير بوصية والده ،
 لعرفنا كيف تعاونت الظروف على أن تصبغ روحه بصبغة صوفية ، وكيف
 أثرت هذه الصبغة على آرائه في الأخلاق .

الفصل الثاني

مولده ونشأته

ولد الغزالي في طوس سنة ٤٥٠ هـ وفيها تلقى ما تفقه به في صباه
 على احمد بن محمد الراذكاني ؛ ثم سافر الى جرجان حيث تلقى طرفا من
 اعدام على الامام ابي نصر الاسماعيلي وعلق عنه التعليقه - كما كانوا
 يقولون - ثم رجع الى طوس وأقام بها ثلاث سنين يراجع ما تلقاه في
 جرجان ، ثم قدم نيسابور حيث يدرس امام الحرمين في المدرسة النظامية
 علوم الفقه والمنطق والاصول فلأزمه الى أن توفي في سنة ٤٧٨ هـ . ثم
 خرج الى العسكر وهي محلة بالقرب من نيسابور يقيم فيها نظام الملك
 - وكان اذ ذاك في الثامنة والعشرين من عمره - وكان نظام الملك قد سمع
 النناء على عقله وعلمه وأدبه . فأحضره مجلسه ، وكان منتدى العلماء ،
 فوجدت الفرصة لينشر الغزالي أئمن ما في خزانته من نفائس العلم وكان
 من نتيجة ذلك أن برع من كانوا يغشون مجلس نظام الملك وظهر عليهم ،
 فوله ذلك ابووزير ربه التدريس في مدرسة بغداد سنة ٤٨٤ هـ .

ولننظر ماذا يقول عن طلبه للعلم من أوائل حياته العلمية الى أن
 نيف على الخمسين « ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل
 بلوغ العشرين الى الآن ، وقد آناف السن على الخمسين . اقتحم لجة هذا
 البحر العميق ، وأخوض غمراته خوض الجسور ، لا خوض الجبان
 الحدود ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأقتحم كل

بين يديه (يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله)
فقال شرفهم بياء الاضافة الى نفسه بقوله يا عبادى ثم أنشد :

وهان على اللوم فى جنب حبها
وقول الأعادى انه لخليع
أصم اذا نوديت باسمى وانى
اذا قيل لى يا عبدها لسميع

ويروون أنه حكى يوماً فى مجلس وعظه ان بعض العشاق كان
مشغولاً بحسن صورة معشوقه ، وكان هذا موافقاً له ، فجاءه يوماً بكرة
وقال له : انظر الى وجهى فانا اليوم أحسن من كل يوم * فقال وليف
ذلك ؟ قال : نظرت فى المرأة فاستحسنيت وجهى ، فاردت أن تنظر الى ،
فقال بعد أن نظرت الى وجهك قبل لا تصلح لى * وهذه الحكاية تمثل
اتجاه خاطره نحو الفناء *

ومن كلامه : « من كان فى الله تلفه ، كان على الله خلفه » وكان
ينصح اخاه أبا حامد الغزالي بقوله :

اذا صحبت الملوك فالبس .
من التوقى أعز ملابس
وادخل اذا ما دخلت أعمى
واخرج اذا ما خرجت أخرس

وكان أسانذتنا فى الازهر يقصون علينا أحسن القصص فى تأثير هذا
الرجل على أخيه ، ويضربون لنا بورعه الامثال ، وقد حاولت أن أجد سنداً
لما يتحدثون به فلم أجد ، فعرفت أن أكثر ما عرف عنه انما هو من صنع
الخيال *

ولو أننا أضفنا الى ما سلف أن الغزالي كان صغيراً حين مات أبوه ،

ورطة ، وأنفحص عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ،
 لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنى ومبتدع ، لا أغادر باطنيا الا وأحب
 أن أطلع على بطائنه ، ولا ظاهريا الا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ،
 ولا فلسفيا الا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلميا الا وأجتهد
 في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفيا الا وأحرص على العثور
 على سر صوفيته ، ولا متعبدا الا وأترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ،
 ولا زنديقا معطلا الا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله
 وزندقته . وقد كان التعطش الى ادراك حقائق الأمور دأبي وديني ،
 من أول أمري . وريعان عمري ، غريزة وفطرة من الله تعالى وضعها في
 جبتي ، لا باختيارى وحيلتى، حتى انحلت عنى رابطة التقليد، وانحسرت
 عنى العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا .

وهذه الفقرة تدلنا على أمرين : الأول أن المذاهب الفلسفية كانت
 كثيرة الانتشار لذلك العهد ، وأن أصحابها كانوا يجتهدون في الدفاع عنها،
 ويجدون في اذاعتها بين الناس والثاني أن الغزالي لم يكن من أولئك
 الطلبة الأغنياء الذين لا يعرفون غير رأى واحد : يعيشون عليه ، ويموتون
 عليه ! بل كان طالب علم بمعنى الكلمة ، يعرف أن واجبه يقضى عليه بان
 بعلم حقيقة كل نحلة ، وكنه كل مذهب ، ومقصد كل فرقة ، ومرمى كل
 عقيدة .

وكان أول ما أثار فيه هذه الرغبة ما رآه من أن صبيان النصارى
 ينشأون على التنصر ، وصبيان اليهود على التهود ، وأطفال المسلمين على
 الاسلام . وكانت هذه الملاحظة الوجيئة باعثاً له على أن يشك في دينه
 حتى يتبين حقيقته - وإن لم يحدثنا عن ذلك - لأنه ما الدليل على أن
 النصرانية خير من اليهودية ، أو أن الاسلام خير من النصرانية ، أو أن
 اليهودية خير من الاسلام ، كما يتحدث النصارى والمسلمون واليهود :
 كل على ما هو بسيله من تفضيل دينه على غيره من الديانات .

وهنا يصرح الغزالي بأنه انتهى الى أنه لا قيمة للتقليد ، لأنه موجود في كل أمة وفي كل ملة ، وإنما القيمة كلها لليقين الذي لو تحدى لظهر بطلانه من يقلب الحجر ذهباً والعصا نعباناً لم يورث ذلك فيه شكاً كما أنك لو علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، وقال قائل لا ، بل الثلاثة أكبر ، بدليل أنى أقلب هذه العصا نعباناً ، ثم قلبها وشاهدت ذلك منه ، لم تشك بسببه في معرفة أن العشرة أكثر من الثلاثة •

الفصل الثالث

حياته الروحية

ولكن الغزالي لم يستمر على تلك النزعة الجريئة التي أقنعه بأن لا قيمة لغير اليقين ، بل اندفع يحدثنا عن شكوك نرجح أنه لم يكن فيها غير صادق ، وأخذ يبين أنه اقتنع أولاً بأن اليقين ينحصر في الحسيات والضروريات ، ثم رأى أن الحس ليس أهلاً للثقة به ، لأنك تنظر الى الظل فتراه واقفاً غير متحرك وتحكم بنفى الحركة ، ثم تعرف بعد ساعة بالتجربة والمشاهدة أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة ، بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم تكن حالة وقوف ، ثم يذكر الغزالي أنه بعد أن بطلت ثقته بالمحسوسات ولى وجهه شطر العقليات التي هي من جنس الأوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة ، والنفى والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً • ثم يزعم أن المحسوسات قالت له : بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كنت واقفاً بى فجاء حاكم العقل

فكذبني ، ولولا أن جاء حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي ، فلعل وراء ادراك حاكم العقل حاكما آخر اذا تجلى كذب العقل في حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه ، وعدم تجلى ذلك الادراك لا يدل على استحالته ؟

وهنا يدخل الغزالي في مضايق من شباب الحس والتخمين فيتوهم أنه لا يبعد أن تكون هناك حالة فوق اليقظة التي هي بلا شك أثبت من حالة النوم ، وتكون نسبة اليقظة اليها كنسبة النوم الى اليقظة ، ثم يتردد في تعيين هذه الحالة فلا يدرى أهى الموت الذى تنكشف به حقائق الاشياء لقوله تعالى : (لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) أم هى حالة الصوفية : اذ يزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم التى هى لهم أنهم اذا غاصوا فى أنفسهم ، وغابوا عن أحوالهم وحواسهم ، رأوا أحوالا لا توافق المعقولات ؟؟

ثم يذكر الغزالي أنه عاد الى قبول الضروريات العقلية ، ولكن عودته لم تكن بنظم دليل وترتيب كلام ، بل كانت بنور قدفه الله فى صدره كما قال •

وتحسب لا تنازع الغزالي فى أن الله نوراً يقذفه فى صدور عباده ولكن نسأله : لم لا تكون الأحكام العقلية قبساً من ذلك النور ؟ ونسأله كذلك : ماهى حالة المرء الذى ينتظر هذا النور الذى تراه فوق البرهان والدليل ؟

على أن الذى يعيننا قبل كل شئ : هو أن نسجل أن الغزالي وضع مؤلفاته فى الأخلاق وهو على هذه الحال • ونرجح أن حياته الروحية ابتدأت بعد توليه التدريس فى مدرسة بغداد ، ثم لازمته الى النهاية ، كما ستراه •

الفصل الرابع

فهمه للحياة

ولأجل أن نبين وجهة نظره في أحكامه الأخلاقية ، ينبغي أن نعرف كيف كانت صحته وكيف كان مزاجه ، وكيف كان فهمه للحياة ، حين عني بالتأليف في الأخلاق . فان معرفة مزاج المؤلف ، وصحته ، وفهمه للحياة الاجتماعية ، من أهم ما ينبغي تقديمه قبل الشروع في درس ماترك المؤلفون .

والسند الصحيح لحياة الغزالي هو كتابه (المنقذ من الضلال) فلندعه يصف لنا حياته في عزله التي دامت نحو عشر سنين ، والتي وضع في أنائها كتاب الاحياء وهو أهم ما كتب في الأخلاق .

قال بعد كلام طويل : « ثم اني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية ، وعلمت ان طريقهم انما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتزهد عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله ، وكان العلم أيسر عليّ من العمل فابتدأت بتحصيل علمهم ، من مطالعة كتبهم ، مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي ، وكتب الحارث المحاسبى والمتفرقات الماثورة عن الجنييد والشبلي وأبي يزيد البسطامي وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، وظهر لي أن أخص خواصهم لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال ، وتبدل الصفات . فكم من الفرق بين أن يعلم المرء حد الصحة ،

وحد الشبع ، وأسبابهما ، وشروطهما ، وبين أن يكون صحيحا وشبعان .
 وبين أن يعرف حد السكر ، وأنه عبارة عن حال تحصل من استيلاء أبخرة
 تنصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكران ، بل السكران
 لا يعرف حد السكر وهو سكران ما معه من علمه شيء ، والصاحي يعرف
 حد السكر وأركانه وما معه من السكر ، والطبيب في حالة المرض يعرف
 حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد للصحة ، فكذلك فرق بين أن
 تعرف حقيقة الزهد وشروطه وأسبابه وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف
 النفس عن الدنيا ♦

« فعلمت يقينا أنهم أرباب أحوال ، لا أصحاب أقوال ، وأن ما يمر
 نحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق الا ما لا سبيل اليه بالسماع
 والتعلم ، بل بالذوق والسلوك ، وكان قد حصل معي من العلوم التي
 مارستها ، والمسالك التي سلكتها ، في التفقيش عن صنف العلوم الشرعية
 والعقلية ايمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر : فهذه الأصول
 الثلاثة من الايمان كانت قد رسخت في نفسي ، لا بدليل معين محرر ، بل
 بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفصيلها ♦ وكان قد ظهر
 عندي أنه لامطمع في سعادة الآخرة الا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ،
 وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور ،
 والانابة الى دار الخلود ، والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا
 يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعوائق ، ثم
 لاحظت أحوالي فاذا أنا منغمس في العلائق وقد أحدثت بي من جميع
 الجوانب ، ولاحظت أعمالي ، وأحسنها التدريس والتعليم : فاذا أنا فيها
 مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة ، ثم تفكرت في نيتي
 في التدريس فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعها ومحررها طلب
 الجاه وانتشار الصيت ، فتبينت أنني على شفا جرف هار ، وأني قد أشرفت
 على النار ، ان لم أشتغل بتلافي الأحوال ، فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد

على مقام الاختيار : أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك
الاحوال يوما واحل العزم يوما ، وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى ،
لاتصدق لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة الا ويحمل عليها جند الشهوة حمله
يفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلاسلها الى المقام
ومنادى الايمان ينادى : الرحيل ! الرحيل ! فلم يبق من العمر
الا القليل • وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم
والعمل رياء وتخيل ، فان لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ، وان لم
تقطع الآن هذى العلائق فمتى تقطع ؟؟ !! •

« فبعد ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار ، ثم
يعود الشيطان ويقول : هذه حالة عارضة ، واياك أن تطاوعها فانها سريعة
الزوال ، فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم
الخالى عن التكدير والتنقيص ، والأمر المسلم الصافى عن منازعة الخصوم ،
ربما لاتيسر لك المعاودة • فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى
الآخرة قريبا من ستة أشهر • أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ،
وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار الى الاضطرار ، اذ قفل الله على
لسانى حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا
تطيبا لقلوب المختلفين الى ، فكان لا ينطلق لسانى بكلمة ولا أستطيعها
البته ، ثم أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنا فى القلب بطلت معه قسوة
الهضم وقرم الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لى شربة ، ولا تنهضم لى
لقمة ، وتعدى ذلك الى ضعف القوى ، حتى قطع الأطباء طمعهم من
العلاج ، وقالوا : هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل
الى العلاج » •

وانما نقلت هذه القطعة الطويلة من كتابه « المنقذ من الضلال » لأن
الغزالي عندى صادق فيما يحدث عن نفسه ، وكلامه خير للباحث من
استشارة التراجم المختلفة ، ولم نستشير التراجم ، والمترجم نفسه يحدثنا
عن تطور حالته العقلية ؟

وهل أدل على لون نفسه فى ذلك الحين من قوله بعد ما سلف
(ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت الى الله تعالى
التجاء المضطر الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر اذا دعاه ،
وسهل على قلبى الاعراض عن الجاه ، والمال ، والأهل والولد
والأصحاب) (؟ !)

ويجب أن تنبه لهذه الكلمة ، فهى كافية فى تصوير نفسه ، وينبغى
أن نعرف أنه نص فيما بعد على أنه دام على هذه الحال عشر سنين ، وقد
كتب كتبه الأخلاقية وهو فى هذه الحال ، ولا تسأل كيف ترك بغداد ،
ولا كيف عاد الى أهله ، فقد رأيت كيف اعتلت صحته ، وتغير مزاجه ،
وكيف سهل على قلبه ترك أولاده ، وهو الذى تمدح بأنه كان يصعد منارة
مسجد دمشق طوال النهار ويغلق بابها على نفسه ، وكان يرحل الى بيت
المقدس فيدخل الصخرة كل يوم ويغلق بابها على نفسه ! !

على أنه بعد أن عاد الى أهله (أثر العزلة أيضا حرصا على الخلوة ،
وتصفية القلب للذكر) كما قال •

وأنا لا أهتم بما ذكر من أنه انكشفت له (فى أثناء هذه الخلوات
أمر لا يمكن احصاؤها ، واستقصاؤها) وإنما يهمنى أن أثبت أنه كتب
ما كتب فى الأخلاق وهو على هذه الحال •

ويتلخص ما سلف فى ثلاثة أمور :

الأول - ما ورثه عن أبيه من نزعة الصوفية •

الثانى - ما استفاده من وصيّه تأييدا لتلك النزعة •

الثالث - عشر سنين قضاها فى العزلة ، لها ما لها من الأثر فى تكوين
نفسه ، وتكييف مزاجه ، والتأثير فى كتبه •

اذن ليعلم القارىء منذ الآن ان النزعة الغالبة على فهمه للاخلاق انما
هى نزعة الصوفية ، وسيرى ذلك مفصلا فى عدة مواطن من هذا الكتاب •

الفصل الخامس

وفاته وراثؤه

ترك الغزالي بغداد ، وقصد البيت الحرام ، وأدى فريضة الحج في سنة ٤٨٩ هـ ومكث فيها أياما ، ثم توجه الى بيت المقدس فجاور به سنة ٤٨٨ هـ بعد أن أناب أخاه عنه في المدرسة النظامية ، ثم دخل دمشق مدة ، ثم عاد الى دمشق واعتكف في المنارة الغربية من الجامع ؛ ثم ذهب الى الاسكندرية وأقام بها مدة ، ويقال انه كان ينوى الرحلة الى السلطان يوسف بن تاشفين ، لما بلغه من عدله ، ولكنه لما سمع بموته عاد الى التجول في الآفاق لزيارة المشاهد والترب والمساجد ، كما يقول مترجموه ، ثم رجع الى بغداد وعقد بها مجلس الوعظ ، وتكلم بلسان أهل الحقيقة وحدث بكتاب الاحياء . ثم عاد الى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية في نيسابور ، ثم رجع الى طوس واتخذ الى جانب داره مدرسة للفقهاء وخانقاه للصوفية ، ووزع أوقاته على وظائف من ختم القرآن ومجالسة أرباب القلوب ، والتدريس لطلبة العلم ، وإدامة الصلاة والصيام ، الى أن توفي رحمه الله بطوس يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ قال السبكي : ومشهده يزار بمقبرة الطابران .

قال الزبيدي : ووجدت في كتاب بهجة الناظرين وأسس العارفين للعارف بالله محمد بن عبد العظيم الزموري ما نصه : ومما حدثنا به من أدركنا من المشيخة أن الامام أبا حامد الغزالي لما حضرته الوفاة أوصى رجلا من أهل الفضل والدين - كان يخدمه - أن يحفر قبره في موضع بيته ، ويستوصي أهل القرى التي كانت قريبة الى موضعه ذلك بحضور

جنازته وأن لا يباشره أحد حتى يصلى ثلاثة نفر من الفلاة لا يعرفون ببلاد العراق ، يغسله اثنان منهما ويتقدم الثالث للصلاة عليه بغير أمر ولا مشورة . . فلما توفى فعل الخادم كل ما أمره به ، وحضر الناس ، فلما اجتمعوا لحضور جنازته رأوا ثلاثة رجال خرجوا من الفلاة ، فعمد اثنان منهم الى غسله ، واختفى الثالث ولم يظهر ، فلما غسل وأدرج فى أكفانه ، وحملت جنازته ، ووضعت على شفير قبره ، ظهر الثالث ملتفا فى كسائه ، وفى جانبه علم أسود ، معمما بعمامة صوف ، وصلى عليه وصلى الناس بصلاته ، ثم سلم وانصرف ، وتوارى عن الناس ، وكان بعض الفضلاء من أهل العراق ممن حضر الجنازة ميزه بصفاته ولم يعرفه ، الى أن سمع بعضهم بالليل هاتفا يقول لهم : ان ذلك الرجل الذى صلى بالناس هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن اسحق الشريفي جاء من المغرب الأقصى من عين القطر ، وأن اللذين غسله هما صاحبا . . . الخ »

وهذه بالطبع خرافة لفقهاء المتصوفة بعد موت الغزالي ، وهى فى ذاتها تدل على أن الغزالي لم يمت الا بعد أن اتفق العامة على صلاحه ، فقد رُمى بالزندقة فى جزء من حياته ، ثم عاد فى نظر العامة من المكاشفين ، حتى ليذكرون أنه أنشأ عند موته هذه القصيدة :

قل لاخوان رأونى ميتا فبكونى ورتونى حزنا
أعلى القائب منا حزنكم أم على الحاضر معكم ههنا
أثخالونى بأنى ميتكم ليس ذاك الميت والله أنا
أنا فى الصدر وهذا بدنى كان جسمى وقميصى زمنا

وهى طويلة تجدها ضمن مجموعة مخطوطة نمرة ١٢١ تصوف بدار الكتب المصرية . وهى كذلك مما لفقّه أصحابه بعد موته ، وما أكثر ما زوّر باسمه من الآثار !

ونقل ابن الجوزى فى « كتاب الثبات عند الممات » عن أحمد أخى

الغزالي أنه قال : « لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضع على أبي حامد وصلى ، وقال عليّ بالكفن ، فأخذه وقبله ووضع على عينيه ، وقال : سمعنا طاعة للدخول على الملك ، ثم مد رجله واستقبل القبلة ، ومات قبل الاسفار » .

وسبحان من تفرد بالبقاء •

وقد رثاه الأبيوردي بقوله :

بكى على حجة الاسلام حين نوى من كل حي عظيم القدر أشرفه
فما لمن يمتري في الله عبرته على أبي حامد لاح يعنفه
تلك الرذيلة تستوهي قوى جلدي فالطرف تسهره والدمع تنزفه
فما له خلة في الزهد منكورة وما له شبهة في العلم تعرفه
مضى ، وأعظم مفقود فجعت به من لا نظير له في الناس يخلفه
وقال في رثائه القاضي عبد الملك المعافى :

بكيت بعينَيّ ناكل القلب واله فتى لم يوال الحق من لم يواله
وسيت دمعا طالما قد حبسته وقلت لجفنى واله ثم واليه

ونحن - في جملة من انتفع بمؤلفات الغزالي - نسأل الله أن يرحمه رحمة واسعة ، وأن يجزيه أحسن الجزاء على ما قدم في سبيل العلم والذين من صادق الجهود ، وأن يتجاوز عن سيئاته بمنه وكرمه انه نعم المولى ونعم النصير ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم •

الباب الثالث في المنايع التي استقى منها الغزالي

تمهيد

يذكر مؤرخو الفلسفة أن سقراط هو أول من بدأ بالتفكير في الإنسان وما يتعلق به ، وأنه أول من قال : اعرف نفسك بنفسك • ولعلمهم يريدون أنه أول من بحث في الإنسان بحثاً منظماً من حيث واجبه نحو نفسه ، ونحو شركائه في الاجتماع ، على أن يكون ذلك علماً ذا قواعد وأصول •

أما البحث في أن بعض الأعمال شر ، وبعضها خير ، وشيء منها نافع ، وشيء منها ضار ، فهو قديم سبق سقراط بأجيال • فالأمة العربية التي ورث الغزالي وورث أسانذته آدابها القديمة ، كانت تقول الشعر والنثر في تهذيب الأخلاق ، فمن الواضح أن قول بعض الأعراب في وصية ابنه « المنية ولا الدنية » فيه ضرب من التهذيب الفردي ، وقول أحدهم في حض الجيش على صدق اللقاء « الطعن في النحور أكرم من الطعن في الظهر » فيه نوع من تقويم المحاربين ، لأن الأخلاق لا تعرف موطناً بعينه ، وإنما تتبع الرجل في كل حال •

وكذلك قول أكنم بن صيفي : « العقل راقد ، والهوى يقظان • والشبهوات مطلقة ، والحزم معقول • والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل • أصبح عند رأس الأمر أحب إلى من أن أصبح عند ذنبه • لم يهلك من مالك ما وعظك • نفاذ الرأي في الحرب ، أجدى من الطعن والضرب •

التقدم قبل التندم • ويل لعالم أمر من جاهله • يتشابه الأمر اذا أقبل ،
فاذا أدبر عرفه الكيس والأحمق • فى هذه الكلمات كثير من الآداب
الاجتماعية ، وهى جزء من علم الأخلاق •

ونجد شعراء الجاهلية والاسلام ضربوا بسهم فى معرفة الطبائع
البشرية ، فترى فى شعرهم شيئا عن أثر الورائة ، وأثر الرفقة ، وأثر
الجوار ، الى غير ذلك من المعانى التى بسطها الفلاسفة حين تكلموا فى
الاخلاق • فقول ذى الاصبع العدوانى :

كل امرئ صائر يوما لشيئته وان تخلق أخلاقا الى حين
يمائل بعض المذاهب الأخلاقية •
وقول مسكين الدارمى :

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم على سر بعض غير أنى جماعها
لدل امرئ شعب من القلب فارغ وموضع نجوى لا يرام اطلاعها
يطلون شتى فى البلاد وسرهم الى صخرة أعيا الرجال انصداعها
يمائل ما يضعه الفلاسفة فى الآداب الفردية •

ويمكننا أن نعد المدح والهجاء من علم الأخلاق ، لأن المدح فى
الغالب تصوير للفضائل ، والذم تمثيل للرزائل ، ووصف الفضائل والرزائل
مما يعنى به علم الأخلاق •

فقول قعنب بن ضمرة :

ان يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا غنى وما سمعوا من صالح ذفنوا
صم اذا سمعوا خيرا ذكرت به وان ذكرت بشر عندهم أذنوا
جهلا علينا وجنبنا عن عدوهم لبست الخلتان الجهل والجبن

هذا هجاء ، ولكن فيه تصوير لبعض الصفات الذميمة التي يعنى
بحربها علم الأخلاق •

وقول حسان بن ثابت :

أصون عرضي بمالى لا أدنسه لا بارك الله بعد العرض فى المال
أحتال للمال ان أودى فأجمعه ولست للعرض ان أودى بمحتال
هذا فخر ، ولكن فيه تصوير لفضيلة من كرائم الفضائل الانسانية •
ولا تنس الحكمم التي فاضت بها النفوس العربية ، فأى كلام أكرم
وأتمتع من قول وابصة الأسدى :

أحب الفتى ينفى الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرا
سليم دواعى الصدر لا باسطا أذى ولا مانعا خيرا ولا قائلا هجرا
إذا شئت أن تدعى كريما مكرما أدبيا ظريفا عاقلا ماجدا حرا
إذا ما أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالا لزلة عذرا
غنى النفس ما يكفيك من سد خلة فان زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا
والقرآن ؟

فى القرآن تحليل دقيق لنزعات النفوس ، وخليجات القلوب ، وفيه
حل لأكثر المشاكل الاخلاقية التي شقى فى حلها الحكماء ، ففيه أدب
الرجل مع ربه ، ومع نفسه ، ومع زوجه ، ومع آبائه ، ومع أبنائه ، ومع
أخوانه ، ومع أصدقائه ، ومع أعدائه ، ويندر أن تجد مشكلة خلقية لم
يعن بحلها القرآن • وفى الحديث توضيح وتتميم لما فى الكتاب العزيز ،
ويكفى أن تنظر فيما يخص الأدب من كتب السنة لتعرف صدق ما نقول •

وبعد ما جاء فى خطب العرب وشعرها ، وما جاء فى القرآن
والحديث ، وضعت كتب خاصة للسير والسلوك ، من أقدمها كليله ودمنة
الذى ترجمه ابن المقفع عن الفارسية ، وقفاه بكتابه الأدب الكبير والأدب

الصغير ، ووضعت أبواب مطولة في كتب الفقه عن آداب الزواج ، ومعاملة الرقيق ، ومعاملة المحاربين ، وما الى ذلك مما يهتم به الناس في الحرب والسلم ، ويبني عليه الاجتماع .

ثم كانت المقامات والخطب المنبرية ، التي أودعها الأدباء والمصلحون آراءهم في تهذيب النفوس ، وتلطيف الطباع .

كل ما قدمته كان ينبوعا حافيا ينهل منه الغزالي ويعمل وهو يضع مؤلفاته في الأخلاق ، وقد تبينت أحكامه ، فرأيته لا يضع حكما الا وقد اقتبسه من حكمة ، أو مثل ، أو بيت من الشعر ، أو آية ، أو حديث ، أو أثر ، الى غير ذلك مما قرأه بنفسه أو سمعه من أساتذته ، ولقد حاولت أن أرجع كل حكم لأصله ، ولكنني رأيت في ذلك منافاة للإيجاز ، وهو شرط هذا الكتاب .

على أن الغزالي مع ترسمه لما سبقه من الآثار الادبية لم يخل من حرية الفكر ، والميل الى التجديد ، فقد خرج على الأشعرى في بعض آرائه ، وخالف الشافعية في بعض ما يقولون به ، ولكنه على كل حال يساير المتقدمين ، ولا يخالفهم - حين يخالفهم - الا برفق واحتياط ، كما يفعل الحذر الهبوب .

الفصل الأول

المصادر الفلسفية

درس الغزالي الفلسفة ، ولكنه درسها بنية سيئة ، درسها ليسبر غورها ، ثم ينشر مساوئها في العالمين !
وقد درسها بنفسه ، ولم يتلمذ لأستاذ ، فكان ذلك داعية لهذا

البغض العميق ، الذى جعله ينسى الفلاسفة ، ولم يذكرهم الا بسوء فى كتبه الأخلاقية ، ولو أنه تلقاها على أستاذ كما تلقى الفقه ، والتصوف ، والتوحيد ، لرجونا أن تخف حدته كلما وجد الفرصة سانحة ليسلق الفلاسفة بلسان حديد^(١) .

ذلك بأن الأساتذة ينتصرون لعلومهم ، ويؤثرون فى تلامذتهم انرا غير قليل ، وأثر المتصوفة من اساتذة الغزالى واضح كل الوضوح فيما صبغت به آراؤه الدينية والأخلاقية .

ولكن هل نجا الغزالى من محاكاة الفلاسفة حين كتب فى الأخلاق؟ كلا ! وان نظرة فى تقسيم الفضائل ، وطرائق كسبها ، وتنويع الرذائل ، ووسائل الخلاص منها ، لترينا مبلغ محاكاته للفلاسفة الذين كتبوا فى الاخلاق ، والآداب الاجتماعية .

وانك لتضحك بملء فمك حين تراء يقول فى كتابه « المنقذ من الضلال » :

« وأما السياسات فجميع كلامهم فيها يرجع الى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية السلطانية ، وانما أخذوها من كتب الله المنزل على الأنبياء ، ومن الحكم الماثورة عن سلف الأولياء . وأما الخلقية فجميع كلامهم فيها يرجع الى حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر أجناسها وأنواعها ، وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، وانما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتألهون المتأبرون على ذكر الله ، وعلى مخالفة الأهواء ، وسلوك الطريق الى الله بالاعراض عن ملاذ الدنيا ، وقد انكشف لهم فى مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها وآفات أعمالها ما صرحوا به ، فأخذوا الفلاسفة ومزجوه بكلامهم ، توسلا بالتجمل به الى ترويح باطلهم » ص ١٦ .

وقد لاحظ الغزالى أن هذه الدعوى العريضة قد تقبل اذا وجهت الى فلاسفة الاسلام ، فقد قرءوا القرآن ، وعرفوا منه أشياء من حكم الانبياء

(١). انظر ص ٩ و ١٠ من المتن .

والمرسلين ، وقرأوا للصوفية كثيرا من الحكم والأمثال ، ولكن هذه الدعوى قد تظهر باطلة اذا وجهت الى فلاسفة اليونان ، فانظر ماذا يقول في ذلك :

« ولقد كان في عصرهم ، بل في كل عصر ، جماعة من المتألهين لا يخلق الله تعالى العالم منهم ، فانهم اوند الارض ، ببر ذاتهم تنزل الرحمه الى أهل الأرض » ص ١٧ •

فعلى هذا لا فضل لسقراط ، ولا أفلاطون ، ولا ارسططاليس فيما وفقوا اليه ، حين كتبوا في الأخلاق ، وانما الفضل لاولئك « الاوتاد » الذين شرفت بهم بلاد اليونان منذ الاف السنين ولا ادرى ماذا يفعل الغزالي اذا أقسم الاغارقة بالله جهداً ايهم أنه لم يكن لهم الله واحد وانما كان لهم ألف اله واله ، بل كان من الهتهم من يحض على اللذة ، ويمهد للفسق السيل ! !

انه لا شك في ان الغزالي استقى من المنايع الفلسفية ، في كل ماكتب عن الاخلاق ، وغاية الأمر أن وجهه الدين ، ووجهه التصوف ، غلبتا عليه ، وصورتا آراءه بصورة دينية ، روحية ، تبدو للنظرة الاولى وكأنها لا تمت للفلسفة بسبب ، ولا تاخذ منها بنصيب ، وهى فى الواقع متائرة بما للفلسفة من أصول •

وانه لا حرج علينا فى أن نقرر ان الغزالي أصلى الفلسفة نارالعقوق فقد كانت سبب حصافته ، وذيوخ صيته ، ثم أطمع فيها العامة ، ومكن الجهال من تصغير الحكماء ، وليس تكفيره لابن سينا والفارابى بالامر الهين ، وأن فعلته تلك لتحسب بذرة هذه التقاليد الممقوتة التى يعانىها المفكرون الاحراز ، فى جميع الأقطار الاسلامية ، منذ حين !

٣ - اخوان الصفا

جمعية شبه سرية • اجتمعت فى البصرة فى منتصف القرن الرابع •

الأخلاق عند الغزالي - ٦٥

وانما كانت سرية لكره عامة الناس للفلسفة اذ ذاك * وكان بغرض هذه الجمعية نشر المعارف التي يرونها صحيحة فى جميع الأقطار الاسلامية ، فقد كانوا يرون : « ان الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ، لانها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية » وقد الفوا احدى وخمسين رسالة ضمنوها خلاصة العلوم المعروفة لمهدهم - وقالوا فى أول هذه الرسائل : « ان الحكماء والفلاسفة الذين كانوا قبل الاسلام تكلموا فى عدم النفس ، ولكنهم لما طولوا الخطب فيها ، ونقلها من لغة الى لغة من لم يكن قد فهم معانيها ، حرفها وغيرها ، حتى انغلق على الناظر فيها فهم معانيها * ونحن قد اخذنا لب معانيها ، وافصى اغراضهم فيها ، واوردناها باوجز ما يمكن من الالفاظ فى احدى وخمسين رسالة » *

وقد نقل الأستاذ أحمد أمين عن مكدونالد أن بعض الباحثين ظن أن هذه الجمعية جمعية باطنية ، لما بين ما يجىء فيها أحيانا وبين تعاليم الباطنية من التطابق ، وقد عثر المغول عند فتحهم فلعه الموت على كثير من نسخ رسائل اخوان الصفا ^(١) *

وذكر الأستاذ الكونت دى جلاززا فى محاضراته بالجامعة المصرية أن أحد اخوان الصفا وهو أبو حيان التوحيدى المتوفى نحو سنة ٣٨٩ هـ كان يقول « ان الشريعة لم تكن كاملة ، بل فيها غلطات وجب اصلاحها بواسطة الفلسفة » *

ورسائل اخوان الصفا تحتاج الى درس طويل لمعرفة ما فيها من الأغراض الفلسفية ، والدينية ، والسياسية * ويكفى أن يعرف القارئ أن الغزالي اطلع على هذه الرسائل ، واستفاد منها ، وان صب على أصحابها جام سخطه وغضبه ، لأن استفادة المرء من كتاب لا تتوقف على حبه

(١) مبادئ الفلسفة ص ١٢٥ *

لصاحبه ، بل صرح الغزالي بأنه أقبل في أول حياته العلمية على درس ما عرف لعهد من المذاهب والآراء •

الفارابي

هو أبو نصر محمد بن طرخان • وهو فارسي من بلدة تسمى فاراب من بلاد خراسان - جاء الى بغداد • وأخذ علم المنطق عن أبي بشر متى ابن يونان النصراني الذي توفي سنة ٣٢٨ هـ ثم انتقل الى مدينة حران وتعلم بها الفلسفة ، وعاد بعد ذلك الى بغداد ، ثم رحل الى دمشق وأقام بها أيام سيف الدولة بن حمدان •

قال سلطان (بك) محمد في محاضراته بالجامعة المصرية : « وهو في مقدمة الفلاسفة الاسلاميين الذين طالعوا كتب افلاطون وأرسطو ووفوا على أغراضها ، واحسنوا فهمها ، يدل لذلك ما حلاه الشيخ الرئيس من أنه عرف غوامض الفلسفة ، ووقف على مقاصدها ، واستظهر القسم الالهي منها ولم يقف على حقيقة أغراضه ومباحثه ، فسئمت نفسه • وكان ذات يوم لدى الوراقين ومر عليه دلال كتب ، ويده مجلد ، وقال له : اشتر هذا • فلما علم أنه في الفلسفة الالهية ، قال لا حاجة لي به • فقال له الدلال : ان صاحبه محتاج الى بيعه ، ويطلب به ثمنًا قليلًا • وأبيعه بثلاثة دراهم • قال فاخذته ووجدته تأليف أبي نصر الفارابي ، فلما قرأته وقفت منه على أغراض ذلك العلم وفهمته بعد أن مللت الاشتغال به ويئست من فهم أغراضه » •

وكان معشوق الفارابي من فلاسفة اليونان أرسطو ، حتى قيل انه وجد كتاب النفس لأرسطو وعليه يحط الفارابي : « اني قرأت هذا الكتاب مائة مرة » ولكنرة شرحه لأراء الفلاسفة لقب بالمعلم الثاني كما لقب أرسطو بالمعلم الأول • وسئل : أنت أعلم أم أرسطو ؟ فقال : لو أدركته

لكنك أكبر تلاميذه ، وتوفي الفارابي رحمه الله سنة ٣٣٩ هـ وهو يناهز
الثمانين *

وللفارابي آثار كثيرة عدا عليها الفناء ؛ ومن مؤلفاته الباقية « اراء
أهل المدينة الفاضلة » وهو يحاكي فيه جمهوريه افلاطون *
وقد انتفع الغزالي بمؤلفاته ، وان حكم بكفره مجازفة وبلا دليل *

ابن سينا

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا أشهر فلاسفة
المسلمين ، توفي سنة ٤٢٨ هـ وسنه ٥٨ سنة * وكان من أهمر الأطباء
وكتابه « القانون » كان العمدة في الطب في القرون الوسطى عند الشرقيين
والغربيين * وقد عني العرب ببسط آرائه الفلسفية ، وبشرح ما دون في
الاخلاق ، وطبائع النفوس *

ولا ريب في أن الغزالي انتفع بمصنفاته ، وان جازاه جزاء ستمار
حيث حكم بكفره ، مجازاة للعامة ، وطاعة للهوى * « وسيعلم الذين ظلموا
أى منقلب ينقلبون » *

ابن مسكويه

ومن الفلاسفة الذين انتفع الغزالي بآرائهم في الاخلاق ابن مسكويه:
أبو علي أحمد بن محمد المتوفى سنة ٤٢١ هـ * وهو من فلاسفة المسلمين
وله عدة كتب في الاخلاق ، أشهرها كتابه المسمى : « تهذيب الاخلاق
وتطهير الاعراق » ، وهو يقع في ١٨٥ صفحة ، ويقول في مقدمته :
(غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقا تصدر به عنا الافعال كلها
جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقة ، ويكون ذلك
بصناعة وترتيب تعليمي ، والطريق في ذلك أن نعرف أولا نفوسنا ما هي

وإى شىء هى ، ولأى شىء اوجدت فىنا ، وما فواها وملكتها التى اذا
استعملناها على ما ينبغى بلغنا بها هذه الرتبة العلية ... الخ) •

وابن مسكويه هذا ينقل عن الفيلسوف اليوناني بطريفه صريجه ،
لا لف فيها ولا مداورة ، فهو من مجددى فلسفه اليونان مع الحرص بقدر
ما يمكن على موافقة الشريعة الاسلاميه ، وكتابه الذى نوهنا عنه : اثر
كبير فى تكوين الغزالي من الوجهه العقليه وقد هممت بوضع مقارنه بين
كتابه ذاك ، وبين كتاب الاحياء ، ثم رايت ان هذا باب اذا اطلته طال ،
واستنفدت وقتا انا محتاج اليه فى غيره من الابواب فلا تنف ببعض فقرات
نقلها الغزالي عن ابن مسكويه نقلا يشبه ان يدون حرفيا ، من غير ان ينوه
بالكتاب الذى نقل عنه ، وما ادرى الان ذلك مقصودا او غير مقصود ،
ولكنه على كل حال دليل على تاثر الغزالي بمؤلفات ابن مسكويه ، والى
القارىء البيان :

(١) يقول ابن مسكويه : (ومن اتخذ عن هذه الموهبه السرمديه
النسريه بتلك الخسائس التى لا ثبات لها فهو حقيق بالقت من خالقه عز
وجل ، خلى بتعجيل العقوبه ، وراحة العباد والبلاد منه) •

ويقول الغزالي : (ومن انفق عن هذه الجملة لها ، واتصف
بضدادها ، استحق ان يخرج من بين البلاد والعباد) •

(٢) يقول ابن مسكويه : (ان اول ما ينبغى ان يتفرس فى الطفل
ويستدل به على عقله : الحياء ، فانه يدل على انه قد احس بالقبح ، ومع
احساسه به يحذره ويتجنبه ، فاذا نظرت الى الصبي فوجدته مستحيا مطرفا
بطرفه الى الأرض ، غير وقاح الوجه ، ولا محقق اليك ، فهو اول دليل
نجايبته ، والشاهد لك على أن نفسه قد أحست بالجميل والقبح ، وهذه
النفس مستعدة للتأديب ، صالحة للعناية ، لا يجب ان تهمل ولا تترك) •

ويقول الغزالي : (ومهما رأى فيه مخايل التميز • فينبغى أن يحسن

مراقبته ، وأول ذلك ظهوراً أوائل الحياء ، فانه اذا كان يحتشم ويستحيى ويترك بعض الأفعال فليس ذلك الا لاشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الاشياء قبيحا ومخالفا للبعض ، فصار يستحي من شيء دون شيء والصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه)

(٣) يقول ابن مسكويه : (ان نفس الصبي ساذجة ، لم تنتقش بعد بصورة ، وليس لها رأى ولا عزيمة تميلها من شيء الى شيء) •

ويقول الغزالي : (والطفل أمانة عند والديه ، وقلبه الطهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة) •

(٤) يقول ابن مسكويه : (ويعلم أن أولى الناس بالملايس الملوثة والمنقوشة النساء اللواتي يتزين للرجال ، ثم العبيد والخول • وأن الاحسن بأهل النبل والشرف من اللباس البياض وما أشبهه حتى يتربى على ذلك • ويسمعه من كل من يقرب منه ، ويكرر ذلك عليه) •

ويقول الغزالي : (ويحجب اليه من الثياب البيض دون الملون ويقرر عنده ان ذلك شأن النساء والمخنثين ، وأن الرجال يستنكفون منه ، ويكرر ذلك عليه) •

(٥) يقول ابن مسكويه : (ولا يترك لمخالطة من يسمع منه ضد ما ذكرته ، لا سيما من أترابه • ومن كان فى مثل سنه ممن يعاشره أو يلاعبه • وذلك أن الصبي فى ابتداء نشوئه يكون على الأكثر قبيح الأفعال • اما كلها واما أكثرها • فانه يكون كذوبا • ويخبر ويحكى ما لم يسمعه ولم يره • ويكون حسودا سروقا نماما لجوجا ذا فضول) •

ويقول الغزالي : (ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا الرفاهية ، فان الصبي مهما أهمل خرج فى الأغلب رديء الأخلاق كذاها حسودا سروقا نموما لجوجا ذا فضول) •

وبين العبارتين فرق صغير ، وميابة الغزالي أدق ، لأنها تعلق فساد
الطفل على اهمال تربيته وتأديبه .

(٦) يقول ابن مسكويه : (ثم يطالب بحفظ محاسن الاخبار والاشعار
التي تجرى مجرى ما تعود بالادب . ويحذر النظر في الأشعار السخيفة
وما فيها ذكر العشق وأهله ، وما يؤهم أصحابها انه ضرب من الطرف
ورفه الطبع . فان هذا الباب مفسدة للاخلاق) .

ويقول الغزالي : (ثم يشتغل في المكتب : فيتعلم القرآن وأحاديث
الأخبار ، وحكايات الابرار ، ويحفظ من الاشعار التي فيها ذكر العشق
وأهله ، ويحفظ من مخالطة الادباء الذين يزعمون أن ذلك من الطرف
ورفه الطبع ، فان ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذور الفساد) .

ولئن قال قائل ان هذه آراء فطرية ، لا تصلح مثالا للنقل والمحاكاة ،
فاني أجيبه بأن موافقة الغزالي لابن مسكويه في بعض الأبواب موافقة تكاد
تكون تامة ، تدل على الأقل على أنه صدى لمن قبله ، وأن نصيبه من الابداع
قليل .

الفصل الثاني

منبع التصوف

وما زال الغزالي يكرع من مناهل الصوفية حتى روى : ثم اندفع
يحدث الناس بما يفهمون وما لا يفهمون من أصول السلوك وقد صرح
في كتاب الميزان ، والأربعين ، والاحياء ، بحديثه على الصوفية ، ورفع
بهم ، واشفاقه عليهم . بل اظهر تبييعته لهم ، ونسبته اليهم ، ثم اخذ يحن
اليهم حنين الغريب الى دياره !!

وانظر قوله في منهاج العابدين :

« وأن اللمة التي تظهر منا الآن ليست الا ممن بقى على منهاج أسلافنا وشيوخنا المتقدمين كالحرث المحاسبي ، ومحمد بن ادريس الشافعي ، والمزني ، وحرملة ، وغيرهم من أئمة الدين - رحمهم الله أجمعين • فهم كما قال القائل :

وما صحبوا الأيام الا تعفوا وما وجدوا من حب سيدهم بدا
أفاضل صدّيقون أهل ولاية الى سيد السادات قد جعلوا القصد
تحلل عقد الصبر من كل صابر وما حلت الأيام من عقدهم عقدا
وكنا في الصدر الأول ملوكا فصرنا سبوقه ، وكنا فرسانا فصرنا
رجالا ، ولينا لا تنقطع عن الطريق • والله المستعان على المصائب ، وهو
المستول أن لا يسلبنا هذا الرمق ، انه جواد كريم ، منان رحيم ، ولا حول
ولا قوة الا بالله العلي العظيم » ص ٩٦ و ٩٧

هل رأيت تحرقا أمر من هذا وألذع ؟

أصل التصوف

وهذا التصوف الذي يترسم الغزالي آثار أصحابه ليس في جملته
مما تدعو اليه الشريعة الاسلامية ، وانما هو مزيج من عدة مذاهب هندية ،
وفارسية ، ويونانية ، نقلت الى المسلمين ، وصادفت هوى في نفوس
الزاهدين منهم ، فوسموها باسم الدين ، ووضعوا لها على حسابه القواعد
والأصول •

ويمكن الحكم بأن ما في التصوف من الدعوة الى طهارة الباطن ،
وحب الخير ، وبغض الشر ، وما الى ذلك مما يتعلق بخلوص النفس
البشرية من خيث الصفات ، يرجع في جوهره الى روح الاسلام ، أما

ما يختص بقطع العلائق مع الناس ، والتزهيد فى الحياة ، فهو بعيد عن روح الدين ، لأن الاسلام دين فتح وسيطرة ، وهو يُعد معتقبيه لأن يكونوا سادة ، بخلاف التصوف فإنه يلبس أصحابه أرواح العيد •

أنفاس الصوفية

وانك لترى الغزالي يحاكى الصوفية فى أنفاسهم وخطرات قلوبهم ويسايرهم خطوة خطوة فى ذم الناس ، وشكوى الزمان ، واطهر ما يكون هذا فى ذم الأتقياء المزيفين ،، وسترى أنه فى كتبه الأخلاقية قد أشرب حب من يسميهم علماء الآخرة ، حتى ليصف حاله بهذه الأبيات :

ظفر الطالبون واتصل الوصل	ل وفاز الأجاب بالأجباب
وبقينا مذبذبين حيارى	بين حد الوصال والاجتناب
نرتجى القرب بالبعد وهذا	نفس حال المحال للألباب
فاسقنا منك شربة تذهب الغم	وتهدى الى طريق الصواب
يا طيب السقام يا مرهم الجبر	ح ويا منقذى من الأوصاب
لست أدري بما أداوى سقامى	وبماذا أفوز يوم الحساب

ومن هنا نراه ينقل كلمات تحتاج الى قيد من الشريعة ، ويسكت عنها لا يقيدها بشيء • وأكثر ما أنكره عليه معاصروه لم ياته الا من جبهه استسلامه للخطرات الوجدانية ، التى علقت بنفسه من قراءة كتب التصوف ، حين اعتزل الناس فى دمشق وبغداد •

على أن النقاد لم يتركوا له هذا الأديم صحيحا ، بل رموه بجهل التصوف ، وسلوكه منه فى بداء يضل فيها النسيم ، حتى اضطر الزبيدى وغيره الى أن يشتوا أنه لم يزد على أن حاكى ما فى قوت القلوب والرسالة القسيرية من مختلف الآراء فى طرائق السلوك •

قوت القلوب

وأهم الكتب التي تآثر بها الغزالي من بين كتب الصوفية كتاب «قوت القلوب» ، فى معاملة المحبوب « تأليف أبى طالب المكى المتوفى سنة ست وثمانين وثلثمائة ببغداد ولا يوجد الآن فى الاسواق ، ومنه نسخة مطبوعة بدار الكتب المصرية نمرة ٢٦٧٧٢ وهو فى مجلدين ، يقع الاول منهما فى ٢٧٠ صفحة والثانى فى ٢٩٧ .

ويعد هذا الكتاب - بحق - مصدرا لكتاب الاحياء ويذى ان تقرأ باب التوكل مثلا فى الكتابين لنعرف انهما يسيران فى طريق واحد ، الى غاية واحدة ، حتى لتجدهما يتفقان غالباً فى الشواهد من الايات ، والأحاديث ، والاخبار . ويمكن الجزم بان الغزالي اودع كتاب الاحياء دل ما صح لديه ، وحسن عنده ، من كتاب قوت القلوب ، وان لم يشر الى ذلك ، وربما ستر هذا بتغيير العناوين . فاذا قال ابو طالب المكى : (ذكر حكم المتوكل اذا كان ذا بيت) قال هو : (بيان آداب المتوكلين اذا سرق متاعهم) . وربما وضع عنوانا لمسالة لم تعنون فى قوت القلوب ، وقد يضع صاحب القوت مسألة تحت عنوان ، فيأتى الغزالي ويدمجها فى كلامه ، فيخيل الى القارىء أنها له ، ولولا خشية الأطلاله لضربنا لذلك الأمثال .

وقد كان قوت القلوب واحياء علوم الدين موضع رعاية الصوفية على السواء فيما سلف من الأيام . وينقلون عن أبى الحسن الشاذلى أنه قال : كتاب الاحياء يورثك العلم ، وكتاب القوت يورثك النور . ولهذا القول وجه من الصواب ، فانك تجد الاسهاب والتفصيل فى الاحياء ، وتجد الدقة وروعة الاخلاص فى القوت ، ويمتاز كتاب القوت فيما نرى بحرص مؤلفه واحتياطه فيما يتعلق بمذاهب الصوفية ، وبجمال لغته ، بخلاف الاحياء ، فانه يغرب فى التصوف ، وحظ أسلوبه من الدقة قليل .

الرسالة القشيرية

هى رسالة فى التصوف لأبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى المتوفى فى ١٦ ربيع الآخر سنة ٤٦٥ هـ . وهى تقع فى ١٨٦ صفحة . ولها شرح مخطوط بدار الكتب المصرية تأليف شيخ الاسلام زكريا الأنصارى ويسمى هذا الشرح : « احكام الدلالة فى شرح الرسالة » .

وقد كتب القشيرى رسالته هذه : (الى جماعة الصوفية ببلدان الاسلام فى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة) كما قال فى المقدمة فهى اذن منشور عام لاصلاح المتصوفة فى ذلك الحين ، وقد ابتدأها بصرخة تشبه التى نقلناها للغزالي من منهاج العابدين ، فهو يقول : « اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم . ، ولم يبق فى زماننا هذا من هذه الطائفة الا أثرهم ، كما قيل :

أما الخيام فانها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نساها

حصلت الفترة فى هذه الطريقة ، بل اندرست بالحقيقة . . .

• (الخ)

وقد شرح القشيرى فى بداية هذه الرسالة اعتقاد طائفة الصوفية فى مسائل الاصول فى التوحيد ، ثم ذكر تراجم اثنين وثمانين من مشايخ الصوفية بايجاز ، ثم فسر الألفاظ التى تدور بين هذه الطائفة ، وبين ما يشكل فيها على المريدين ، كالوقت ، والمقام ، والحد ، والقبض ، والبسط ، والتواجد ، والوجد ، والوجود ، الى آخر ما قال .

ثم وضع عدة أبواب فى المجاهدة ، والخلوة ، والعزلة ، والمراقبة ، والصبر ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ، وما الى ذلك مما يهم السالكين .

وتمتاز هذه الرسالة بكثرة النقل عن المتقدمين من شيوخ الطريق .

وقد صدق الزبيدي فيما رآه من أن الغزالي اعتمد عليها عند تأليف
الاحياء * وان كانت النسبة بين الكتابين بعيدة من جهة المادة ، ومن
السهل أن يثبت الانسان اثر هذه الرسالة في أكثر أبواب الاحياء ،
وما أدري لِمَ لم يشد الغزالي بذكر مؤلفها ومؤلف فوت العلوب ،
مع أن فضلها عليه كبير !

الفصل الثالث

من عرف الغزالي من الصوفية

ويجمل بنا أن نذكر طائفة من الصوفية الذين عرفهم الغزالي ونريد
بذلك من قرأ لهم ، واستشهد بكلامهم في مؤلفاته ، لأن تأثيرهم غير
قليل في تكييف أحكامه الأخلاقية ، وطبعها بذلك الطابع الصوفي
المعروف *

الامام الشافعي

ولد رضى الله عنه بغزة ، ومات بمصر سنة ٢٠٤ هـ بعد أن أقام بها
أربع سنين * وكان سنه حين مات ٥٤ سنة * وليس غرضنا أن نتكلم عنه
من الوجهة التشريعية ، فان لذلك مجالا غير هذا المجال ، غير أنه لا يفوتنا
بهذه المناسبة أن نقرر أن كتاب « الأم » الذي ينسب اليه ليس له ، وانما
هو من تأليف البويطى كما نص الغزالي في الاحياء *

والذى يهمنا الآن : هو أن نصور الشافعي كما تصوره الغزالي ، أى
من الوجهة الصوفية ، فقد كان رضى الله عنه معروفا بالتقوى ، ونسيان

الذات ، حتى ليقول : (وددت لو أن الخلق تعلموا هذا العلم على أن لا ينسب إلى منه حرف) •

نماذج من كلامه

والى القارىء نماذج من كلماته التى جرت مجرى الامثال • فال
رضى الله عنه : « اظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يدرمه ورعب فى
مودة من لا ينفعه ، وقبل مدح من لا يعرفه - المراء فى العلم ، يقسى
القلب ، ويورث الضغائن - من لم تعزه التقوى فلا عزاً له - سياسة
الناس اشد من سياسة الدواب - لو علمت ان الماء البارد ينقص مروءتى
ما شربته - ليس باخيت من احتجت الى مداراته - من علامه الصادق فى
أخوة أخيه أن يقبل عله ، ويسد خلله ، ويفغر زلله - لا تشاور من
ليس فى بيته دقيق - لا بقصر فى حق اخيت اعتمادا على مروءته ، ولا
تبذل وجهك الى من يهون عليه ردك - من نم لك نم عليك - من نظف
توبه قل همه ، ومن طاب ريحه زاد عقله » •

المزنى

هو الامام أبو ابراهيم اسماعيل بن يحيى المزنى • ولد سنة ١٧٥
هـ وتوفى سنة ٢٦٤ هـ تلقى العلم عن الشافعى وصار من ناشرى مذهبه •
وكان الشافعى يقول فيه : (لو ناظر الشيطان لقلبه) ! ! ونقل السبكى
عن عمرو بن عثمان المكى : (ما رايت احدا من المتعبدين فى شرة من
لقيت منهم أشد اجتهادا من المزنى ، ولا أدوم على العبادة منه ، وما رأيت
أحدا أشد تعظيما للعلم واهله منه ، وكان من اشد الناس تضيقا على
نفسه فى الورع ، وأوسعهم فى ذلك على الناس) •

حرملة

هو حرملة بن يحيى بن عبد الله بن حرملة ولد سنة ١٦٦ هـ ،

وتوفى سنة ٢٤٣ هـ ، وهو من تلامذة الشافعي ورواة حكمه • قال السبكي : (وفد ينفرد حرمة في بعض المسائل ويخرج عن المذهب تأصيلا وتفريعا ، كما قد يفعل ذلك المزني وغيره في بعض الأحيان) •

المحاسبي

هو أبو عبد الله الحرث بن أسد المحاسبي المتوفى ببغداد سنة ٢٤٣ هـ ، وهو شيخ الجنيد ، ويقول أنه سمي المحاسبي لكثرة محاسبته لنفسه وقد ألف في الفقه والتصوف والحديث والكلام نحو مائتي كتاب • وكان الجنيد يقول : « كنت كثيرا ما أقول للحرث : (عزلتني أنسى) فيقول : كم تقول أنسى وعزلتني ؟ لو أن نصف الخلق تقربوا مني ما وجدت بهم أنسا ، ولو أن نصف الخلق الآخر نأوا عني ، ما استوحشت لبعدهم • وأنشد منشدا بين يدي الحرث هذه الأبيات :

أنا في الغربة أبكى ما بكت عين غريب
لم آكن يوم خروجي من بلادي بمصيب
عجبا لي ولتركي وطنا فيه جيبي

فقام وتواجد وبكى حتى رحمه كل من حضره •

ومن كلامه : « خيار هذه الأمة هم الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ، ولا دنياهم عن آخرتهم - حسن الخلق احتمال الأذى وفلة الغضب ، وبسط الرحمة ، وطيب الكلام - الظالم نادم وإن مدحه الناس والمظلوم سالم وإن ذمه الناس - القانع غني وإن جاع ، والحريص فقير وإن ملك » •

الجنيد

هو في نظر الصوفية سيد علماء الآخرة على الإطلاق ، توفى سنة ٢٩٨ هـ ، وكانت له أحوال لا يقرها شرع ولا عقل •

ومن كلامه : « ان الله يُخلص الى القلوب من برّه ، على حسب ما تخلص اليه القلوب من ذكره . فانظر ماذا خالط قلبك - الغفلة عن الله تعالى أشد من دخول النار - اذا رأيت الفقير فلا تبدأ بالعلم ، وابدأ بالرفق ، فان العلم يوحشه ، والرفق يؤنسه » .

وفي كتب الغزالي عدد عظيم من الصوفية ، يؤيد بكلامهم رأيه ، وكان لأوئلك الصوفية مصنفات معروفة ، وكلمات مأثورة يتداولها الناس لعهد ، وانه لا شك في انتفاعه بتلك الآثار . والرغبة في الايجاز هي التي أرضت عن الاكتفاء بترجمة هذا العدد القليل .

الفصل الرابع

منبع الشريعة

وأهم المنابع التي استقى منها الغزالي هو منبع الشريعة ، ممثلة في الآيات والأحاديث والأخبار . ويرى غير واحد من علماء هذا العصر أن الأخلاق عند الغزالي هي عين الأخلاق الإسلامية ، وهذا رأى غير صواب ، ولكنهم حملوا عليه بما يرون من اكثاره في مؤلفاته من الآيات والأحاديث ، وسترى كيف أخطئوا حين تقرأ ما فصلنا من آرائه في الأخلاق .

ويشمل هذا المنبع فقهاء المسلمين الذين تأثر الغزالي بآرائهم في المعاملات . مع أنه احتاط في النقل عنهم ، ولكن هذه الحيطة لا تزيد عن مطالبتهم بمسايرة أصول الشرع الحنيف .

الانجيل

اطلع الغزالي على الانجيل ، واستفاد منه ، واعتمد عليه ما شاء في مؤلفاته • وهذا طبيعي من رجل مسلم أوصاه دينه أن لا يفرق بين أحد من الأنبياء •

ولا عبرة بما كتبه الدكتور زويمر في هذا الموضوع • لأن الدكتور زويمر يريد أن ينسب هداية الغزالي الى مطالعته للانجيل ، مع ان الغزالي لم يضل الا حين تعلق باهداب الاداب السلية التي دعا اليها الانجيل !!

ولتوضيح هذا نذكر أن الآداب التي وضعها الانجيل غير طبيعية ، على معنى انه لا يمكن أن يسكن اليها بطبيعته أحد من الناس • فالحكمة الانجيلية التي نقول : من ضربك على خدك الايمن فأدر له خدك الايسر • حكمة غير معقولة ، لا يقرها عرف ، ولا يدعو اليها قانون - والحكمة المسيحية التي تقول : من سخرك ميلا فامش معه ميلين • حكمة غير ممكنة القبول • ومن المستحيل أن تجد مسيحيا يدير لك خده الأيمن حين تضربه على خده الايسر ، اما المسيحي الذي يتبع ميلين حين تسخره ميلا فهو نادر الوجود !!

ومن المستطرف ملاحظه الدكتور زويمر على ما رواه الغزالي عن المسيح من أنه مكث يناجي ربه ستين صباحا لم يأكل • فقد قال : الحقيقة أنها أربعون • ولِمَ تتعب نفسك يا سيدي الدكتور في هذا التصحيح ؟ المسألة برمتها خيال في خيال ، لأن الذي يمكث ستين يوما أو أربعين يوما بلا طعام لا يصلح لشيء في هذا الوجود الزاخر بالجهد والجلاد • وهل يستطيع القسيسون والرهبان أن يحيا هذه الحياة ! وهبهم استطاعوا فما عسى أن تكون منزلتهم بين الأحياء ؟

وأى خطأ أقدم من قول الغزالي في الدرة الفاخرة : « اعتبروا بعيسى عليه السلام ، فقد قيل انه لم يملك الا ثوبا واحدا لبسه عشرين

سنة ؟ ولم يأخذ معه فى كل سياحاته الا كوزا وسبحة ومشطا • ورأى ذات يوم رجلا يشرب من نهر بحفنتيه فطرح الكوز ولم يستعمله ثانيا ، ثم رأى رجلا يمشط لحيته بأصابعه ، فطرح المشط ولم يستعمله ثانيا ، وكان يقول دائما : حصاننى قدامى ، وبيوتى مغائر الأرض ، وطعامى خضرتها ، وشرابى من ماء أنهارها ، ومقرى بين بنى آدم » •

وهذه من الغزالي دعوة مردودة ، لأن الاسلام لا يعرف هذا النوع من الحياة ، وكيف يدعو المسلمين الى أن يعتبروا بما روى من أن عيسى لم يملك الا ثوبا واحدا لبسه عشرين سنة ، مع أنه من المستحيل أن يبقى الثوب الواحد على جسم المرء عشرين سنة ، الا أن تكون هذه أيضا معجزة ، وعفا الله عمن لا يفهم هذه المعجزات ! !

ان عيسى الذى يصورونه بهذه الصورة شخص خرافى لم يعرفه التاريخ • والا فأى أرض يسمح جوها بأن يظل الثوب على صاحبه عشرين عاما لا يبلى ، ولا يُعرّض لابسهُ لفسرة تلامذته وأصدقائه ؟ وكيف يقابل هذا بما روى الغزالي عن المسيح من أنه قال : « اذا كان صوم أحدكم فيلذهن رأسه ولحيته ، وليمسح شفتيه ، لئلا يرى الناس أنه صائم » فان فى هذا الحديث دعوة الى كتمان الصوم ، والظهور بمظهر الترف ، تجنبا للتمدح بمظهر الصيام •

أليس من العجيب أن يصدق الغزالي أن عيسى يقول : من أخذ رداءك فأعطه اذارك ، ومن ذا الذى يرضى من المسلمين أو النصارى أن يتأدب بهذا الأدب الغريب ؟!

ويستشهد الغزالي بقول عيسى عليه السلام : لا يستقيم حب الدنيا والآخرة فى قلب مؤمن ، كما لا يستقيم الماء والنار فى اناء واحد • مع أن هذا مناقض للآية الكريمة : « ربنا آتانا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقتنا عذاب النار » • ويستشهد بقول عيسى : انظروا الى الطير

لا تزرع ولا تحصد ولا تدخر ، والله تعالى يرزقها يوما بيوم ، فان قلت
نحن أكبر بطونا فانظروا الى الأنعام كيف قيض الله تعالى لها هذا الخلق
للرزق • وهذا يناقض الآية الكريمة « ولا تنس نصيبك من الدنيا » •
ومن الواضح أن الذي لا ينسى نصيبه من دنياه ، يسعى له ، ويجد في
طلبه •

ونحن بهذه الكلمات لا ننكر نبوة عيسى عليه السلام ، وانما نرجح
أن أتباعه جنوا على تربيته ، بما زوروا باسمه من الأحاديث ، وهذه
جناية كثيرة الأمثال في الشرائع ، فإن الإسلام مع تواتر سبئه الأول
وهو القرآن ، لم يعدم من أصحاب الغفلة وأصحاب الغرض من زوروا
الأحاديث باسم النبي حتى كادوا يقضون على ما للدين من قوة الحق ،
وروعة الجمال •

ونحن كذلك لا ننكر أن المسيحية تدعو الى الزهد ، فان الدعوة
الى الزهد أصل من أصولها الأولى • ولكننا نرجح أنها كانت تدعو الى
الزهد بقدر ما تقل من حدة الناس وتقلل من جشعهم وطمعهم • فاما
الدعوة الى الفرار من طيبات ما أحل الله فهي دعوة بعيدة الوقوع من
الأنبياء والمرسلين •

وكنا نحب أن لا يصدق الغزالي كل ما نقل عن المسيح ، ولكن
الغزالي كان طيب القلب أكثر مما يجب ، وما أحوج العلماء الى الاعتصام
بجبل الشك ، فان الشك وحده سبيل اليقين •

الفصل الخامس

أساتذة الغزالي وأصحابه

وبعد الذى قدمناه من ورود الغزالي للمناهل الفلسفية ، والشرعية ، والصوفية : لا نجد بدأ من التنبيه الى أنه اغترف كذلك من المنهل الذى ورده أساتذته وأصحابه . وقد لاحظنا أن الذين تتلمذ الغزالي لهم كانوا فى الأغلب صوفية ، كما أن أكثر من صحبهم كانوا صوفية .

فمن أساتذته الامام أحمد بن محمد الراذكانى ، وكان من الفقهاء الصالحين ، وقد تلقى عنه دروسه الأولى فى طوس .

ومن أساتذته الامام أبو نصر الاسماعيلي ، وكان من الأمثلة النادرة فى الورع والتقوى ، وقد تلقى عنه الغزالي فى جرجان ، وعلق عنه التعليقة ، كما كانوا يقولون .

ومن أساتذته امام الحرمين ، وكان من أتقى أهل زمانه ، وقد تلقى عنه الغزالي فى نيسابور ، ويقال انه كان يحسد الغزالي ، بالرغم من شهادته له بالتفوق والنبوغ .

ومن أساتذته الامام الزاهد أبو على الفارمذى من أعيان تلامذة أبى القاسم القشيرى وكان أستاذة فى التصوف ، وقد عده السبكي من أصحابه .

هؤلاء وغيرهم من أساتذة الغزالي وأصحابه أثروا فى حياته العقلية تأثيراً غير قليل ، وطبعوا نظره الى الحياة بطابع خاص ، وفى مقدور القارىء أن يرجع الى تفصيل حياة هؤلاء الذين اختصرنا أخبارهم فى طبقات الشافعية . أما تلامذة الغزالي فسنعود اليهم فى غير هذا الباب .

الباب الرابع

في مؤلفات الغزالي

تمهيد

تكلم ابن السبكي في طبقاته عن مؤلفات الغزالي ، وتبعه الزبيدي في شرح الاحياء ، ثم كتب جرجي زيدان في صدر الجزء السادس من السنة الخامسة عشرة للهلال كلمة مفصلة عن مصنفات الغزالي ، وتمتاز هذه الكلمة بشيئين : الأول ترتيب تلك الكتب بحسب موضوعاتها ، والثاني الاشارة الى أماكن وجود النسخ النادرة ، مخطوطة كانت او مطبوعة . الا أنه لحسن حظ العلم نجد أكثر مانوه جرجي زيدان بندرته أصبح اليوم في المكاتب والأسواق .

وأهم كتب الغزالي فيما نحن بصدد من درس الأخلاق ، « كتاب الاحياء » ، وسنكتب عنه كلمة مفصلة ، وكتاب « ميزان العمل » وهو يقع في ٢١٥ صفحة ، ونحسبه يفضل في دقته كتاب الاحياء ، بل يشبه أن يكون خلاصة له ، وميزان العمل هذا مقابل لكتابه « معيار العلم » . وقد قال في مقدمته : (لما كانت السعادة التي هي مطلوب الأولين والآخرين لا تنال الا بالعلم والعمل ، وافترق كل واحد منهما الى الاحاطة بحقيقته ومقداره ، ووجب معرفة العلم والتمييز بينه وبين غيره بمعيار ، وفرغتنا منه ، ووجب معرفة العمل المسعد ، والتمييز بينه وبين العمل المشقى ، فافتقر ذلك أيضا الى ميزان ، فأردنا أن نخوض فيه . . الخ) وقد نص على أنه وضع أكثر هذا الكتاب على طريقة التصوف .

ويل هذين الكتابين في الأهمية كتاب « الاربعين » * وهو جزء من كتاب « جواهر القرآن » ، كما ذكر صاحب كشف الظنون ، وقد وضع بعد الاحياء ، وهو قريب منه في الموضوعات وفي التبويب .

ومن مؤلفاته الهامة في الاخلاق كتاب «منهاج العابدين» وهو آخر مصنفاته ، ولعل هذا هو السر فيما احتواه هذا الكتاب من مظاهر الضعف والاضطراب ، وقد رأيت كيف اعتلت صحته بسبب العزلة * ونقل الزبيدي عن المسامرة لابن عربي أنه ليس له ، وانما هو لابي الحسن على ابن خليل السبتي ، وسترى بعد قليل ما زور باسم الغزالي من التأليف .

وهناك « التبر المسبوك في نصيحة الملوك » ، كتبه للسلطان محمد ابن ملكشاه ، وعن هذا الكتاب أخذنا رأى الغزالي في آداب الكتاب رواجبت الملوك ، وحقوق الوزراء * وسترى بعد ، لعله في نسبة هذا الكتاب الى الغزالي ، وهو يقع في ١٢٤ صفحة وتجدده مشحونا بالاقاصيص ، وهي فكرة حسنة في الترغيب والترهيب ، ولم يختص بها تابه هذا ، ولكنها فيه أظهر من سواه .

ولا تنس كتابه « المنقذ من الضلال » ، ففيه صورة صادقة لحياته العقلية ، وهو يمثل وجهه نظره فيما شهدته من الحركة العلمية في عصره ذاك ، وقد كتبه بسداجة ظاهرة تكشف لنا عن قلب أبيض ، ونفس تبحر بالاخلاص .

وكتابه « المستصفى في الأصول » كان المرجع فيما كتبنا عن الحسن والقيس ، وهو كتاب قيم يدل على مبلغه من دقة الفهم ، وحسن الأداء .

ورسالته « مشكاة الأنوار » تمثل لنا رأيه في منازل الناس بحسب قربهم أو بعدهم من فهم ما بنى عليه العالم من دقائق الجمال ، وقد توسع في شرح قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » الى آخر الآية .

ويعد الغزالي من أكبر المؤلفين حتى زعموا أن مؤلفاته قسمت على أيام حياته فخص كل يوم أربعة كراريس (!) وأهمها جميعا كما قدمنا هو كتاب الاحياء وهو سبب ما رزق من الخلود *

الفصل الأول طريقته في التأليف

وللغزالي في التأليف منهج جميل ، فهو يشرح أولا المذهب الذي يريد نقده ، وقد بلغ من حرصه على هذا المنهج أن ألف كتابا في مقاصد الفلاسفة ، حين هم بتأليف كتاب في تهافتهم ، ويقول في كتابه ذلك (ولنفهم الآن ما نورده على سبيل الحكاية مهملا مرسلا ، من غير بحث عن الصحيح والفاقد ، حتى اذا فرغنا منه استأنفنا له جدأ وتسميرا في كتاب مفرد نسميه تهافت الفلاسفة) *

وصنع مثل هذا الصنيع حين رد على الباطنية ، وقد ذكر في «المنقذ من الضلال» ص ٢٠ ، ٢١ أن بعض أهل الحق أنكروا عليه مبالغته في تقرير حجبتهم ، وقالوا : هذا سعى لهم ، فانهم كانوا يعجزون عن نصره مذهبهم بمثل هذه الشبهات ، لولا تحقيقه لها ، وترتيبه اياها ، وأجاب بأنه استحسن أن يقرر شبهتهم الى حد الامكان ثم يظهر فسادها ، وهذا منهج لا نسرف ان كررنا أنه جميل *

ومما تمتاز به خطة الغزالي في التأليف ، الاعتماد على الخطايبات في اصلاح القلوب ، فهو حين يتكلم عن فضيلة من الفضائل ، يبدأ بذكر ما ورد في حمدها من الآيات ، ويعقب بسرد ما جاء عنها من الأحاديث ، ثم الأخبار ، ثم الآثار . وينطلق بعد ذلك في ذكر القصص والحكايات التي تستولى على قلب القارئ ، وترسم في نفسه أثر تلك الفضيلة ، ومالها من مقام محمود . والأمر كذلك اذا تكلم عن رذيلة من الرذائل ،

وهو فى هذا الباب لا يعتبر مبتكرا ، فقد سبقه القصّاص ، ولكنه آخر عفى على الاولين ؟ وقد رأيت من الأدباء من يستنكر هذه الخطة ، وهو استنكار على غير أساس ؛ ويكفى أن تقرأ كتب سميلز الانجليزى المتوفى فى ١٦ أبريل سنة ١٩٠٤ لتعرف حسن هذا المنهج فى رأى المعاصرين ، فاننى لم أر أحدا يستنكر منهج سميلز فى الآثار من الافاصيص للترغيب فى مكارم الأخلاق .

وتمتاز كتب الغزالي الاخلاقية بأنها صالحة لكل فارىء ، فلم يقصد المؤلف وضعها لطائفة معينة ، او فريق خاص ، وانما وضعها لجمهور المسلمين .

وهناك ميزة خطيرة لمؤلفات الغزالي : وهى اقباله على الخيال فهو يحسن ويقبح بطريقة فنية بديعة ، تخلب العقول ، وتمتع القلوب . وانظر كيف يشبه من يحسب المحسن انما يحسن باختياره انه يشبهه بالنملة ترى سواد الخط على البياض يحصل من حركة القلم فتضيف ذلك الى القلم : اذ حدقتها الصغيرة الضعيفة ، لا تمتد الى الاصبع ، ومنها الى اليد ، ومنها الى القدرة المحركة لليد ، ومنها الى الارادة التى القدرة مسخرة لها ، ومنها الى المعرفة التى يتوقف انبعاث الارادة عليها ، ومنها الى صاحب القدرة والعلم والارادة^(١) .

ويشبه الضعيف القلب ، بالحمار فى معلقه ، والدجاج فى قفصه يرمق ما تعود من صاحبه ، لا يكاد ينفك عن ذلك ، وتقاعدت نفسه عن معالى الامور ، وانقطعت همته ، فلا يكاد يقصد أمرا شريفا^(٢) .

والذى يعبر بنظره كتاب الاحياء وكتاب الأربعين وكتاب المنهاج ، يرى البدائع الفنية ، وألوان البيان ، فى طرق الترغيب والترهيب ، وهو يجيد فى التخيل حتى يغلب القارىء على أمره ، ويشككه فى نفسه ،

(١) ٢٧٩ الأربعين .

(٢) ٧٦ منهاج .

ويحمله قهرا على أن يدرس نفسه من جديد ، وهذا وجه الخطر في مؤلفات الغزالي ، اذ كانت في الأغلب وساوس صوفية غُشِيَتْ بِالْوَانِ السحر والقنون ، فلا يسلم منها الا العالمون والأقوياء •

الفصل الثاني

الصوت المردد في مؤلفات الغزالي

ومع محاناة الغزالي لمن تقدمه من المؤلفين ، فانا نراه يدرر كثيرا الأفكار ، والعبارات ، والأمثلة ، حتى لنظن بضاعته واحدة ، في جميع مؤلفاته ، ويمدح الحكم بان الاحياء ، والاربعين ، والميزان ، والمنهاج ، والتبر المسبوك ، والأدب في الدين ، وبداية الهداية ، وجزءا كبيرا من مؤلفاته في الفقه والتوحيد ، أقول يمكن الحكم بان جميع هذه المؤلفات ينذر أن تكون بينها فروق جوهرية • ولو أننا وازنا بين كتبه في باب كباب الاخلاص لوجدنا الأمثلة واحدة ، والعبارات واحدة ، وانما تختلف بالاطناب والايجاز •

واذ كان الرجل مفتونا بأراء الصوفية • فانا نجد تأثره بهم يختلف اختلافا قليلا بحسب الظروف ، فهو في المنهاج ، أقرب اليهم منه في الاحياء ، فما يحترز منه هنا قد لا يحترز منه هناك •

ونلاحظ أنه ليست هناك غاية موحدة يسعى لنصرتها الغزالي بمصنفاته العديدة : فهو تارة يلوذ بأكناف الشريعة ، فيمنع ما تمنع ويبيح ما تبيح • وتارة يساير الصوفية ، فينصرهم فيما يسمون اليه من الانفراد بفهم أسرار الوجود ، وهو مع ذلك يصرح بأن علم المكاشفة لا يودع الكتب ، ولا يصح أن يلقي لغير الخواص !

وينتج مما سلف أن الغزالي ليس من المبتكرين المبدعين ، وانما

يمتاز بصبره على قرع ذلك الناقوس الذى أراد أن يوقظ به الناس من سباتهم ، وان لم يكن ذلك الناقوس من صنع يديه ، وفد آفاق الناس ولم يروا غير الغزالي ، ثم هرعوا اليه ، فوجدوا كتاب الاحياء فى يمينه ، وما زالوا به يحلمون •

الفصل الثالث

كتاب الاحياء

هو أهم ما كتب الغزالي فى الأخلاق ، ألفه فى أخريات حياته حين جنى الى اعتزال الناس ، ثم قرأه فى دمشق وبغداد ، ووضع له مختصرات عديدة ، منها الوجيز ، ومنها المبسوط •

وقد أسسه على أربعة أرباع : ربع العبادات ، ويشتمل على كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقائد ، وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ، وكتاب أسرار الزكاة ، وكتاب أسرار الصيام ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الأذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الأوراد فى الأوقات •

وربع العادات ، ويشتمل على كتاب الأكل ، وكتاب آداب النكاح ، وكتاب أحكام الكسب ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصلابة والمعاشره مع أصناف الخلق ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب السماع والوجد ، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة •

وربع المهلكات : ويشتمل على كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشهوتين : شهوة البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد ، وكتاب ذم الدنيا ،

وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبير والعجب ، وكتاب ذم الغرور •

وربع المنجيات: ويشتمل على كتاب التوبة، وكتاب الصبر والشكر، وكتاب الخسوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ، وكتاب النية والصدق والإخلاص، وكتاب المراقبة والمحاسبة، وكتاب التفكير ، وكتاب ذكر الموت •

ونظرة الى هذا البرنامج تريك مبلغ عناية الغزالي بكتاب الاحياء ، وليس كثيرا أن ذكرنا هذا البرنامج ، فان الاحياء عمدتنا فيما قصدنا اليه من تحرير ما وضع الغزالي في الأخلاق ، ومن الخير أن نذكر رأى الغزالي نفسه في ذلك الكتاب الممتع الجامع فقد قال بعد أن بين ما اختطه في شرح العبادات ، والعادات ، والمهلكات ، والمنجيات : « ولقد صنف الناس في بعض هذه المعاني كتباً ، ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور :

الأول - حل ما عقدوه ، وكشف ما أجملوه •

الثاني - ترتيب ما بددوه ، ونظم ما فرقوه •

الثالث - ايجاز ما طولوه ، وضبط ما قرروه •

الرابع - حذف ما كرروه ، وإثبات ما حرروه •

الخامس - تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأفهام لم يتعرض لها في الكتب أصلاً ، اذ الكل وان تواردوا على منهج واحد فلا مستكر أن ينفرد كل واحد من السالكين بالتنبيه لأمر يخصه ويفعل عنه رفقاؤه •

الفصل الرابع

أغلاط الأحياء

نذكر هنا شيئاً من المآخذ التي أخذها المتقدمون على الغزالي فيما يخص كتاب الأحياء . لان في ذلك بيانا لقيمة هذا الكتاب في نظر المتقدمين ، ولان فيه تمهيدا لما نحن بسبيله من نقد آراء الغزالي في الاخلاق .

١ - نقل السبكي في طبقات الشافعية أن أبا عبد الله المازري قال وقد سئل عن الأحياء : « ان الغزالي يستحسن اشياء مبناها على ما لا حقيقة له ، مثل قوله في قص الأظفار : تبدأ بالسبابة لأن لها الفضل على بقية الأصابع لكونها المسبحة » !

٢ - وأنكروا عليه كما نقل الزبيدي ، قوله في الأحياء : ليس في الامكان أبدع مما كان ، واستندوا في انكارهم الى أن هذا يومهم عجيز الجناب الالهى ، وهو كفر صريح ، وانما انحصر انكارهم في هذه الوجهة لاغراقها في المباحث الدينية ، ولو كان لهم نصيب من العلم والفن لعدوا هذا عقبة في سبيل الاختراع .

٣ - ونقل الزبيدي عن الأجوبة المرضية للشعراني أن مما أنكر على الغزالي قوله : يباح للمصوفية تمزيق ثيابهم عند غلبة الحال ، ان قطعت فطعا مربعة تصلح لترقيع الثياب والسجادات ، كما يجوز تمزيق الثوب ليرقع به ثوب آخر ! وفد اجاب الزبيدي على هذا بجواب مضحك جاء فيه : (وبالجمل فلو كان جميع أموال الدنيا وامتعتها بيد الفقير ورأى حضور قلبه مع الله تعالى لحظة باتلافها كلها ، بحرقها أو رميها في بحر لكان له ذلك بطريق الاجتهاد ، ولا لوم الا على من يمزق ثيابه ويتلف ماله اسرافا وسفهاً) وقد فات الزبيدي أن غرض المنكر ليس منصباً على

التبديد والاسراف ، وانما هو موجه الى الخروج من الوقار ، فانه لا مزية
فى أن غرض الشرع من التجميل انما يرجع الى الرغبة فى أن يسبغ
على المؤمن رداء الجلال •

٤ - ومما أنكروا عليه قوله فى الاحياء : المقصود بالرياضة تفريغ
القلب ، وليس ذلك الا بالخلوة ، والجلوس فى مكان مظلم ، فان لم
يبدن مظلما لف راسه فى جيبه ، أو تدثر بكساء أو رداء فانه فى مثل
هذه الحالة يسمع نداء الحق تعالى ويشاهد جلال الربوبية (!) •

وقد تنبه ناقدوه الى أن التقليل من الطعام قد يورث الجنون ! فمن
يديرنا إن ما يسمعه المترىض هو نداء الحق ، أو أن الذى يشاهدوه هو
جلال الربوبية ، ومن يضمن ان لا يكون ما يجده هو من الوسواس
والخيالات الفاسدة !

٥ - وأنكروا عليه كذلك تقريره قول الجنيد : اذا كان الاولاد
عقوبة شهوة الحلال ، فما ظنكم بعقوبة شهوة الحرام (!)

٦ - وأنكروا عليه كذلك تقريره ما حكاه عن بعضهم أنه بات عند
السباع فى برية ليمتحن توكله على الله هل صح ام لا (!) فالوا
وكيف جاز له أن يسكت على ما فعله هذا الرجل مع تعرضه لاسباب
الهلاك ؟

٧ - ومما أنكروا عليه قوله : كان بعض الشيوخ فى بدايته يكسب
عن قيام الليل ، فالزم نفسه القيام على رأسه طول الليل لتصير نفس
بحيث تجبىه الى قيام الليل اختيارا ، وكذلك عالج بعضهم حب المال
فباع جميع أمتعته ورمى ثمنها فى البحر خوفا من أن يقع فى حب تركي
الناس له ، ووصفه بالجود ، او الرياء فى فعلها ، ولذلك كان بعضهم
يستاجر من يشتمه على دعوس الاشهاد ليعود نفسه الحلم ، وكان آخر
يركب البحر فى الشتاء عند اضطراب الموج ليعود نفسه الشجاعة ، وكار

بعضهم اذا خاف النوم يقف على رأس حائط عال حتى لا يأكذه النوم (١). قال ابن القيم : واني سمعت من ابي حامد هذا كيف يامر بهذه الامور التي تخالف ظاهر الشريعة ، وكيف يحل لاحد ان يقوم على راسه طول الليل ، وكيف يحل رمي اهل في البحر ، وكيف يحل سب المسلم بلا سب ، وهل يجوز لمسلم ان يستاجر من يشتبه ، وهل يجوز لاحد ان يقوم على راس جدار عال ويعرض نفسه للوقوع بالنوم فتتسمر رقبته ويموت ؟؟؟

٨ - ومما اندروا عليه خبايته عن ابن الكريتي شيخ الجنيد انه قال : نزلت في محله معرفت فيها بالصلاح ، فشت قلبى ، ونصر منى ، فدخلت الحمام ، وسرفت ثيابا فاخرة وبسنتها ، ثم لبست مرفعى فوفها ، وخرجت فجعلت أمشي قليلا قليلا ، فلحفونى واخذوا منى الثياب ، وسمعونى وسمونى لص الحمام ، فسكنت نفسى (٢) : قال الغزالي : فهكذا كانوا يروضون انفسهم حتى يخلصهم الله تعالى من فتنه النظر الى الخلق ومراعاتهم لهم ، واهل النظر الى النفس وارباب الاحوال ربما عاجوا انفسهم بما لا يفتى به الفقيه ، اذا رأوا صلاح قلوبهم فى ذلك ، ثم يتداركون ما فرط منهم من صورة التقصير كما فعل هذا فى الحمام (!) قال ابن القيم : سبحان من أخرج أبا حامد من دائرة الفقه بتصنيفه كتاب الاحياء ! فليته لم يحك فيه مثل هذه الامور التى لا يحل لاحد السكوت عليها ؛ ثم نقل نص الامام أحمد والشافعى فى ان من سرق من الحمام ثيابا عليها حافظ وجب قطع يده . ثم قال : وتعجبنى من هذا الفقيه الذى استلب التصوف علمه وعقله ، أكثر من تعجبنى من هذا المستلب الثياب من الحمام ! فياليت أبا حامد بقى مع قواعد الفقه واستغنى عن هذه الهذيانات .

٩ - وأنكروا عليه تقرير ما حكاه عن أبى الحسن الدينورى أنه حج اثنتى عشرة حجة ، وهو حاف مكشوف الرأس ! قال ابن القيم :

وهذا من أعظم الجهل لما فى ذلك من الاذى للرأس والرجلين ، ولا تسلم الارض من الشوك والوعر ، وكان هؤلاء الصوفية ابتكروا من عند أنفسهم شريعة سموها بالتصوف ، وتركوا شريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فنعوذ بالله من تلييس ابليس • فان مثل هذه الحكايات تفسد عقائد العوام ، اذ يظنون أن فعل مثل هذا من الصواب •

١٠ - وأنكروا عليه تقريره عن أبى الخير الأقطع التيتانى قوله : انى عقدت مع الله عهدا ان لا أكل شيئا من الشهوات ، فمددت يدي الى ثمرة فى شجرة فقطعتها ، فبينما أنا امضنها اذ ذكرت العهد فرميت بها من فمى ، فدار بى فرسان وقالوا قم ! وأخرجونى الى ساحل بحر اسكندرية ، واذا امير وحوله خيل وجند ، فقالوا انت من اللصوص ، واذا معهم جماعة من لصوص السودان ، فسألوهم عنى ، فقالوا لا نعرفه ، فكذبهم الامير وشرع يقدم يدا ويقطعها الى ان وصل الى ، وقال لى : تقدم ومد يدك ، فمددتها فقطعت الى آخرها !! قالوا : فانظروا ما يفعل الجهل العظيم بصاحبه ، فلو أن عند التيتانى رائحة علم ، لعلم أن ما فعله حرام عليه ، وليس لابليس عون على الزهاد والعباد أكثر من الجهل ، وما أظن غالب ما يقع لهؤلاء الا من الجنون •

١١ - وأنكروا عليه قوله : ان الاشتغال بعلم الظاهر بطالة (!) قال ابن القيم : هذا جهل مفرط منه • وأصل ذم الصوفية للعلم أنهم رأوا طريق الاشتغال به لا يوصلهم الى الرياسة الا بعد طول زمان ، بخلاف طريقته المبتدعة من لبسهم الزى ، وصلاتهم بالليل ، وصيامهم بالنهار ، وتقصير الثياب والأكمام •

١٢ - وأنكروا عليه حكايته عن أبى تراب النخشبى أنه قال لمريد له : لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة ، كان أنفع لك من رؤية الله عز وجل سبعين مرة (؟!) قال ابن القيم : وهذا الكلام فوق الجنون بدرجات •

١٣ - وأنكروا عليه تقريره لرمى الشبلى ما كان معه من الدنانير فى دجلة ، وقوله : ما أعزَّكَ عبد الا أذله الله تعالى • قال ابن القيم : وأنا أتعجب من أبى حامد أكثر من تعجبي من هؤلاء الجهلة بالشرعية ، كيف يحكى ذلك عنهم على وجه المدح لهم ، لا على وجه الانكار ، وأى رائحة بقيت من الفقه عند أبى حامد حتى يكتب عنه شئ من العلم ؟ فان الفقهاء كلهم يقولون ان رمى المال فى البحر لا يجوز •

١٤ - وأنكروا عليه تقريره قول أبى سليمان الداراني : اذا طلب الرجل الحديث ، أو سافر فى طلب المعاش ، أو تزوج ، فقد ركن الى الدنيا (!) قالوا : هذه الأشياء الثلاثة مخالفة لقواعد الشريعة • وكيف لا يطلب الحديث وقد ورد : « ان الملائكة لتضع أجنحتها على طالب العلم » ؟ وكيف لا يطلب المعاش • وقد قال عمر رضى الله عنه : « لأن أموت من سعى رجلى أطلب كفاف وجهى أحب الى من أن أموت غازیاً فى سبيل الله ؟ » وكيف لا يطلب التزويج ، وصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم يقول : « تناكحوا تناسلوا فانى مباه بكم الأمم يوم القيامة ؟ »

١٥ - وأنكروا عليه تقريره قول أبى حمزة البغدادي : انى لأستحي من الله أن أدخل البادية وأنا شعبان ، وقد اعتقدت التوكل ، لئلا يكون شعبى زادا تزودت به (!) قالوا : ومن العجب اعتذاره عن أبى حمزة بقوله : كلام أبى حمزة صحيح ، ولكن يحتاج الى شرطین : أحدهما أن تكون للانسان قدرة من نفسه بحيث يمكنه الصبر عن الطعام أسبوعاً ونحوه • الثانى أن يمكنه التقوى بالحشيش ، ولا تخلو البادية من أن يلقاه الذى معه طعام بعد أسبوع ، أو ينتهى الى محلة أو حشيش يجد به ما يقوته • قال ابن القيم : أقبح ما فى هذا القول صدوره من فقيه فانه قد لا يلقى أحدا • وقد يضل ، وقد يمرض فلا يصلح له الحشيش ، وقد يلقاه من لا يطعمه ، وقد يموت فلا يدفنه أحد •

١٦ - وأنكروا عليه ما أجاب به من سأله عن رجل يدخل البادية

بلا زاد حيث قال : هذا من فعل رجال الله - قيل له فان مات؟ قال : الدية على العاقلة (!) قالوا : هذه فتوى جاهل بقواعد الشريعة ، اذ لا خلاف بين فقهاء الاسلام أنه لا يجوز لاحد دخول البادية بغير زاد ، وان فعل ذلك ومات بالجوع فهو عاص مستحق للعقوبة في الآخرة •

١٧ - وأنكروا عليه أيضا ما حكاه عن تنقيح البلخي أنه رأى مع شخص رغيفا ليفطر عليه من صومه فهجره ، وقال : تمسك رغيفا الى الليل !

١٨ - وكذلك أنكروا عليه قوله : اعلم أن ميل قلوب أهل التصوف انما هو الى تحصيل العلوم الدنية ، دون العلوم النقية ، ولذلك لم يحضوا على دراسته العلم ، ولا تحصيل ما صنفه المصنفون ، وانما حضوا على الاشتغال بالله تعالى وحده ، والاشتغال بذكر الله فقط (!؟)

١٩ - وأنكروا عليه تفسير قوله تعالى حكاية عن ابراهيم عليه السلام : « واجنبي وبنى ان نعبد الاصنام » • فقد قال : الاصنام الذهب والفضة • وعبادتهما حبهما والاعتزاز بهما • وواضح أن هذا التفسير بعيد عن المعنى المراد •

٢٠ - وأنكروا عليه أيضا تقريره قول سهل التستري : ان للربوبية سرا لو ظهر لبطلت النبوة ، وان للنبوة سرا لو ظهر لبطل العلم ، وان للعلماء بالله سرا لو ظهر لبطلت الاحكام والشرائع (!؟)

وأنا أكتفى بهذا القدر من أغلاط الاحياء ، ففيه صورة واضحة لآراء العلماء في ذلك الكتاب ، وسترى في باب غير هذا أن هذه الحركة العنيفة لم تخمد بموت الغزالي ، بل ظلت نائرة عدة أجيال • وما عجيبت لشيء عجيب للزبيدي ، فقد تولى تنفيذ هذه المأخذ ، واحدا واحدا ، وهو نصف ممقوت ، يكفي أن تعلم أنه لا يركز على قاعدة مسلمة ، من عرف ، أو تشريع ، وانما يستند على قواعد من التصوف بنيت على الماء •

ومن أراد التحقق من صحة هذا الحكم فليرجع الى الجزء الأول من شرح الاحياء ، من ص ٢٧ الى ص ٤٠ .

ومن الأجوبة السخيفة ما أجاب به السبكي عن الغزالي في قص الأظفار فقد قال : وأما ما ذكروه في قص الاظفر فالأمر المشار اليه يروى عن علي كرم الله وجهه غير أنه لم يثبت وليس في ذلك كبير أمر ولا مخالفة شرع ، وقد سمعت جماعة من الفقهاء يذكرون أنهم جربوه فوجدوه لا يخطيء . ومن داوم عليه أمن من وجع العين . ويروون من شعر علي كرم الله وجهه هذا :

ابداً بيناك وبالخنصر	في قص أظفارك واستبصر
واختم بسببائها هكذا	فاعمله في الرجل ولا تتمر
وابداً ليسراك بأبهامها	والأصبع الوسطى وبالخنصر
ويتبع الخنصر سبابة	بنصرها خاتمة الأيسر
هذا أمان لك قد حزته	من رمد العين كما قد قرى

والسخف ظاهر كل الظهور في هذا الجواب ، والا فما هي الصلة بين قص الأظفار بهذه الكيفية ، وبين الأمن من وجع العين ؟ وكيف قال علي بن أبي طالب هذا الشعر السخيف وقد كان من أفصح الناس ؟
الواقع أن الغزالي كان فتنة من فتن العصور القديمة ، وقد نسي العلماء في الدفاع عنه أن هناك عقلاً يجب أن يحكم ، وأنه لن يخلو العالم من أصحاب العقول ، ولو كره الجامدون !

الفصل الخامس

غفلة الغزالي وعناده

- ١ -

أما غفلته فدلليها بما في كتبه من الأحاديث الضعيفة والموضوعة وهي تقرب من ستمائة حديث .

وأنا لا أشك في نزاهة الغزالي وبعده من الكذب على رسول الله ،
فمحال على مثله في ورعه وتقواه أن يزور على النبي حديثاً ، أو يضع
في كتبه أحاديث يعلم أنها من الموضوعات • وحقيقة الأمر أن الرجل
كان « يمتاز » بقسط كبير من الغفلة والبساطة ، والا فكيف صدق أن
النبي يقول : « ان الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ » •
وأقل الناس علماً بالبلاغة يدرك أن رسول الله لا ينطق بمثل هذا الحديث
وكيف يصدق ما روى من أن جبريل نزل فقال : « ان الله يقرئك
السلام • ويقول : أتحب أن أجعل هذه الجبال من ذهب فتكون معك
أيما كنت ؟ » •

ومالى أطيل في نقد ما جاء في الأحياء من أسناد له من الأحاديث
وهي مسطورة في طبقات الشافعية ، في ثمان وثلاثين صفحة من الجزء
الرابع • والضعف فيها ظاهر لا يحتاج الى دليل •

- ٢ -

وأما عناده فدليله إصراره على إبقاء ما جاء في كتبه من الأغلاط
ورميه ناقديه بالغباوة ، والحسد ، والكذب ، مع أنه كان يعجل به أن
يتأمل تقدمهم برفق ، ويميز بين الغث منه وبين السمين ، ولكنه اندفع
كالصخر حطه السيل من شاهق ، وأخذ يرميهم بالزيغ والفسوق •

وبيان ذلك أنه ما زال يغرب معاصروه في الإنكار عليه حتى ضاق
تلامذته ذرعاً بذلك ، فكتب إليه أحدهم يرجوه دحض تلك المزاعم
فصنف كتاباً سماه : « الاملاء في اشكالات الأحياء » • وما نريد الآن
تلخيص هذا الكتاب ، فهو في أيدي الناس ، وانما نذكر مقدمته لنرى
كيف ابتأس بما فعل أولئك المنكرون ، فان في هذا صورة لجانب من
جوانبه الأخلاقية ، وهو يدلنا على الأقل على مبلغ ثقته بنفسه ، وإيمانه
بصحته ما جاء في الأحياء ، وعدم اكترائه بآراء الناس •

قال : (سألت يسرك الله لمراتب العلم تصعد مراقبها ، وقرب لك مقامات الولاية تحل مغنيها ، عن بعض ما وقع في الاملاء الملقب بالاحياء مما اشكل على من حجب فهمه • وقصر علمه • ولم يفز بشيء من الحظوظ الملكية قدحه وسهمه ، وأظهرت التحزن لما شوش به شركاء الطعام ، وأمثال الأنعام ، وأجماع العوام ، وسفهاء الأحمال ، وعار أهل الاسلام ، حتى طعنوا عليه • ونهوا عن قراءته ، وأفتوا بمجرد الهوى على غير بصيرة باطراحه ومنابدته ، ونسبوا مملية الى ضلال واضلال ونبذوا قراءه ومنتحليه بزيع في الشريعة واختلال ، فالى الله انصرفهم ومآبهم • وعليه في العرض الأكبر ايقافهم وحسابهم ، فستكتب شهادتهم ويسألون ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » • بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم ، ولو ردوه الى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم • ولكن الظالمون في شقاق بعيد • ولا عجب فقد نوى^(١) أدلاء الطريق وذهب آرباب التحقيق ، فلم يبق في الغالب الا أهل الزور والفسوق متشبثين بدعاوى كاذبة ، متصفين بحكايات موضوعة ، متزينين بصفات منمقة ، متظاهرين بظواهر من العلم فاسدة ، ومتقاطعين بحجج غير صادقة ، كل ذلك لطلب دنيا أو محبة ثناء ، أو مغالبة نظراء • قد ذهبت المواصله بينهم بالبر • وتآلفوا جميعا على الفعل المنكر • وهدمت النصائح منهم في الأمر ، وتصافوا بأسرهم على الخديعة والمكر ، إن نصحهم العلماء أغروا بهم ، وإن صمت عنهم العقلاء أزرروا عليهم ، أولئك الجهال في علمهم ، الفقراء في طولهم ، البخلاء عن الله عز وجل بأنفسهم لا يفلحون ولا ينجح تابعهم ، ولذلك لا تظهر عليهم موارثة الصدق ، ولا تسطع حولهم أنوار الولاية ، ولا تتحقق لديهم أعلام المعرفة ، ولا يستر عوراتهم لباس الخشية • لأنهم لم ينالوا أحوال النقاء ، ومراتب النجاء

(١) هلك •

وخصوصية البدلاء ، وكرامات الأوتاد ، ولو عرفوا أنفسهم لظهر لهم الحق . وعلموا علم أهل الباطن) ... الى آخر ما قال .

وبقليل من التأمل نعرف من هذه المقدمة أن الغزالي يصر بعد أن نقده معاصروه على التثبيت بأذيال الصوفية + ويمكننا أن نتوقع ما سيجيب به في كل ما أخذ عليه من الوجهة الشرعية ، ويجب أن نفهم ذلك منذ الآن ، لنخرج كل ما نقلناه في آرائه الأخلاقية من الشذوذ هذا التخريج ولنرجع اسرافه في بعض المواطن الى هذا الأصل الذي اختاره وارتضاه وهو التصوف والا فمن هم النقاء ، والنجاء ، والبدلاء ، والأوتاد ، ان لم يكونوا جماعة من المتصوفة الذين يستيحيون ما لا يباح ؟!

ومن أظرف ما أجاب به الغزالي فيما أخذ عليه من الأغلاط النحوية ، أنه قليل الخبرة بالنحو ، ثم ما أجمل نصحه لتلامذته بأن يصلحوا ما يعثرون عليه من أشباه هذه الأغلاط ! ويا ليتة نصح بمثل هذا في اصلاح ما ضل فيه من الأحكام :

الكذب على الغزالي

ومما يجب التنبيه له أن الغزالي لم يسلم من الكذب عليه فقد وضعت المؤلفات باسمه ، واتجر به المضللون . ويذكر الزبيدي من هذه الكتب : (السر المكتوم في أسرار النجوم) وينص علي أن هذا الكتاب نسب أيضا الى الفخر الرازي ، وأنه سئل عنه فأنكره . ومما دس على الغزالي كتاب : تحسين الظنون ، وكتاب النفخ والتسوية ، وكتاب المضمون به على غير أهله . قال السبكي : ذكر ابن الصلاح أنه منسوب اليه ، ثم قال : معاذ الله أن يكون له . وبين سبب كونه مختلقاً موضوعاً عليه . قال الزبيدي : والأمر كما قال : فقد اشتمل على التصريح بقدم العالم ، ونفى علم القديم بالجزئيات ، وكل واحد من هذه يكفر الغزالي قائلها هو وأهل السنة أجمعون ، فكيف يتصور أنه يقولها ؟

وقد ذكر الأستاذ الدكتور على العناني في محاضراته بالجامعة المصرية أنه يبعد أن يكون « المضمونون به على غير أهله » هو ما بأيدي الناس ، لأن هذا الكتيب الضعيف لا يدل على المعنى الذى قصده الغزالي من « المضمونون به على غير أهله » ويرجح الدكتور العناني أن يكون « المضمونون به على غير أهله » كتابا ضخما يشمل آراء الغزالي الفلسفية التى يضمن بنشرها على الجمهور .

وعندى أن رأى الدكتور العناني صواب لأمرين: الأول أن الغزالي كان ينصح دائما بأن لا يلقي للعامة غير الكلام البسيط فمن المعقول أن تكون له آراء خاصة تخالف ما فى كتاب الاحياء وأمثال كتاب الاحياء الثانى ما ذكره الزبيدي من أن كتاب « المضمونون به على غير أهله » يشمل على التصريح بقدوم العالم ونفى علم القديم بالجزئيات ، فان هذه المسائل لا توجد فى النسخة التى يتداولها الناس .

وقد رجح جرجى زيدان فى فهرس تاريخ « الآداب العربية » أن كتاب : « التبر المسبوك » مدسوس على الغزالي ، وقد حاولت تحقيق ذلك ، فوجدت ما يقرب رأى جرجى زيدان وما يبعده . أما ما يقربه فهو اسقاط اسم من ترجمه من الفارسية . وظهور الكتاب بمظهر الضعف فى كثير من الموضوعات ، وأما ما يبعده فهو تقارب مادته من مؤلفات الغزالي الأخلاقية ، وإحالاته على الاحياء فى كلامه عن رذيلة الغضب الا أن يكون من دسه عليه غشى فعلته تلك بهذه القرائن الصناعية ، التى توهم القارئ أن لا وضع ولا اختلاق . ومما لا مرية فيه أن مصنفات وضعت باسم الغزالي ، فأما عددها فلا يزال مظنة الارتياب .

ولا يفوتنا فى ختام هذا الباب أن نذكر القارىء بما لاحظناه فيما
سلف من اختلاف آراء الغزالي فى كتبه ، باختلاف سنه ، وصحته •
فقد وضع مؤلفاته فى ظروف مختلفة ، كان فى بعضها يحكم العقل
والشرع ، وكان فى بعضها يساير الصوفية فى أوهامهم ووساوسهم •
والرجل فى الواقع معذور ، فقد كان يؤلف فى أوقات لا تصلح مطلقا
للتأليف ، لأنه يشترط فى المؤلف ما يشترط فى القاضى من الصحة
وهدوء البال •

الباب الخامس في مباحث تمس الأخلاق

نبين في هذا الباب قيمة العمل في ذاته ، شر هو أم خير ، حسن أم قبيح ، ضار أم نافع . ثم نتكلم عن الإرادة ، وعن الضمير ، وعن الأغراض والنتائج ، والوسائل والغايات . وسنبين في هذا الباب أن نجمل الآراء الفلسفية اجمالاً لنبين بازائها آراء الغزالي نوعاً من البيان .

الفصل الأول

الخير والشر

العمل الذي يجب أن يعمل ، أو يحسن أن يعمل ، هو الخير والعمل الذي يجب أن لا يعمل ، أو ينبغي أن لا يعمل ، هو الشر .
فللخير درجات ، وللشر درجات .

هذه لغة اليوم . أما الغزالي فكان تارة يسمى ما يجب أن يعمل واجباً ، وما يحسن أن يعمل مستحباً ، وما يجب أن لا يعمل حراماً وما ينبغي أن لا يعمل مكروهاً وما عدا أولئك فهو مباح .

وكان تارة أخرى يقسم الأفعال الى : حرام ، وواجب ، ومباح .
أما الحرام فهو المقول فيه : اتركوه ولا تفعلوه . وأما الواجب فهو المقول فيه : افعلوه ولا تتركوه . وأما المباح فهو المقول فيه : ان شئتم فافعلوه وان شئتم فاتركوه .

الحسن والقبح

وربما قسم العمل الى : حسن ، وقبيح ، ومباح – واليك اجمال ما فصله في كتابه « المستصفى في الأصول » :

هناك اصطلاحات ثلاثة مختلفة في اطلاق لفظ الحسن والقبيح :

الأول – أن الأفعال تنقسم الى ما يوافق غرض الفاعل ، والى ما يخالفه ، فالموافق يسمى حسنا ، والمخالف يسمى قبيحا ، والثالث يسمى عبثا •

الثاني – الحسن ما حسنه الشرع بالتشاء على فاعله • ويقول الغزالي : ويكون المأمور به شرعا ، ندبا كان أو ايجابا ، حسنا ؛ والمباح لا يكون حسنا •

الثالث – الحسن ما لفاعله أن يفعله ، فيكون المباح حسنا مع المأمورات •

والمقصود من هذه الاصطلاحات الثلاثة هو ما حسنه الشرع أو قبحه • وهنا يجزم الغزالي بأن العمل لا يكون حسنا لذاته ، ولا قبيحا لذاته ، فيخالف المعتزلة الذين يقولون بأن من الأعمال ما يدرك حسنه بضرورة العقل ، كاتخاذ الغرقى والهلكى • ومعرفة حسن الصدق ، ومنها ما يدرك قبحه بضرورة العقل : كالكفران وإيلاء البرىء، والكذب الذى لا غرض فيه •

ويحتج المعتزلة لذلك : بأننا نعلم قطعا أن من استوى عنده الصدق والكذب آثر الصدق ، ومال اليه ان كان عاقلا ، وليس ذلك الا لحسنه • وأن القوى اذا رأى ضعيفا مشرفا على الهلاك يميل الى انقاذه ، وان كان لا يعتقد أصل الدين لينتظر ثوابا ، ولا يوافق ذلك غرضه ، فقد يتعب به ، بل يحكم العقلاء بحسن الصبر على السيف اذا أكره المرء على افشاء السر أو نقض العهد •

ويجب الغزالي : بأنه لا ينكر اشتها هذه القضايا بين الخلق
وكونها محمودة ، ولكنه يصر على أن مستندها : اما الدين بالشرائع
واما الأغراض •

مشارت الغلط

ولكن الأغراض قد تدق ، فلا يتنبه لها الا المحققون ، من أجل
ذلك نبه على مشارات الغلط ، وهي ثلاثة :

الأول : أن الانسان يطلق اسم القبح على ما يخالف غرضه ، وان
كان يوافق غرض غيره • فان كل طبع مشغوف بنفسه ، فيقضى بالقبح
مطلقا ، وربما يضيف القبح الى ذات الشيء ، فيكون قد قضى بأمور
ثلاثة ، هو مصيب في واحد منها ، وهو أصل الاستباح ، ومخطيء في
أمرين : أحدهما اضافة القبح الى ذاته ، اذ غفل عن كونه قبيحا لمخالفته
غرضه ، والثاني حكمه بالقبح مطلقا ، ومنشؤه عدم الالتفات الى غيره
بل عدم الالتفات الى أحوال نفسه ، فانه قد يستحسن في بعض الأحوال
عين ما يستقبحه اذا اختلف الغرض •

الثاني : ما هو مخالف للغرض في جميع الأحوال ، الا في حالة
واحدة نادرة ، قد لا يلتفت اليها الوهم ، بل لا تخطر بالبال ، فيراه مخالفا
في جميع الأحوال ، فيقضى بالقبح مطلقا ، لاستيلاء أحوال قبحه على
قلبه ، وذهاب الحالة النادرة عن ذكره •

الثالث : سبق الوهم الى العكس ، فان ما يرى مقرونا بالشيء
يظن أن الشيء أيضا مقرون به مطلقا لا محالة ، ومثاله نفره من نهشته
الحية من الجبل المبرقش اللون ، لأنه وجد الأذى مقرونا بهذه الصورة
فتوهم أن هذه الصورة مقرونة بالأذى ، فان الوهم عظيم الاستيلاء على
النفس ، ولذلك ينفر طبع الانسان من المبيت في بيت فيه ميت ، مع قطعه
بأنه لا يتحرك ، ولكنه يتوهم في كل ساعة حركته ونطقه •

نقض حجة المعتزلة

وبعد أن بين الغزالي هذه المآثرات أخذ يناقش ما احتج به المعتزلة وهو يرى أن الانقاذ إنما يرجع على الإهمال في حق من لا يعتقد الشرائع ، لدفع الأذى الذي يلحق الإنسان من رقة الجنسية ، وهو طبع يستحيل الانفكاك عنه ، وسببه أن الإنسان يقدر نفسه في تلك البلية ويقدر غيره معرضا عنه وعن انقاذه ، فيستقبحه منه بمخالفة غرضه ويعود فيقدر ذلك الاستقبح من المشرف على الهلاك في حق نفسه فيدفع عن نفسه ذلك القبح المتوهم ، فان فرض في بهيمة أو في شخص لا رقة فيه ، فهو بعيد تصوره . ويبقى أمر آخر : هو طلب الثناء على إحسانه . فان فرض حيث لا يعلم أنه المنقذ ، فقد يتوقع أن يعلم فيكون ذلك التوقع باعثا . فان فرض في موضع يستحيل أن يعلم ، فقد يبقى في النفس ميل يضاهي نفرة طبع المدوغ من الجبل المبرقش وذلك أنه رأى هذه الصورة مقرونة بالثناء فظن أن الثناء مقرون بها على كل حال ، والمقرون بالليذ لذ ، كما أن المقرون بالمكروه مكروه .

بل الإنسان إذا جالس من عشقه في مكان . فانه يحس من نفسه بتفرقة بين ذلك المكان وغيره ، إذا انتهى إليه . ولذلك قال الشاعر :

أمر على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وقال ابن الرومي :

وحب أوطان الرجل اليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرت لهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

وكذلك إخفاء السر ، وحفظ العهد . إنما تواصى بهما الناس لما فيهما من المصالح . فمن يحتمل في سبيلهما الضرر ، فأنما يحتمله لأجل

الثناء ، فان فرض حيث لا ثناء ، فقد وجد مقرونا بالثناء • فيميل الوهم الى المقرون بالليذ وان كان خاليا عنه •

تحرير هذا البحث

هذه خلاصة ما يراه الغزالي في تأييد أهل السنة، وتخطئة المعتزلة. وتكون النتيجة على رأى أهل السنة أنه لا حسن ولا قبح قبل ورود الشرع ، وأنه لا ثواب ولا عقاب قبل ورود الشرع وهذا الرأى خطأ من وجهين :

الأول - مخالفته لجوهر الشريعة ، فان الشريعة انما جاءت لهداية الناس ، ولا معنى للهداية غير ارشادهم الى ما حسن أو قبح من الأفعال ليفعلوا الحسن ، ويتجنبوا القبيح • ولو كانت الأعمال خالصة فى ذاتها من صفة الحسن والقبح ، لما كانت هناك حاجة الى الشرائع ، ولكن خيرا للناس أن لا يحملوا أعباء التكليف •

الثانى - استهاتته بالشخصية الانسانية ، فانه اذا صح أن لا حكم للعقل قبل ورود الشرع ، فان معنى ذلك أن الشخصية الانسانية لاتصلح لفهم حقائق الأشياء ، وما أدرى كيف صاغت بعد ذلك لحمل أمانة الدين الحنيف ؟

والواقع أن الأشاعرة ينجون على العقل حين يحكمون بأن التحسين والتقبيح لا يكون الا بالشرع • فالزنا عندهم قبيح، لا لضرره كما يحكم بذلك العقل ، بل لأن الشرع حكم بقبحه ، وعلى ذلك لو حكم الشرع بحسن الزنا لكان حسنا ، ولوجد الأشاعرة من أوجه المغالطة ما يشبتون به أنه حسن ، ولهذا الرأى نتيجة من أسوأ النتائج : وهى الركون الى ما وقع فى الشرائع من الأغلاط ، فقد يندر أن تجد شريعة لم تمتد اليها يد التحريف ، فاذا شئت أن تتحاكم الى العقل لتتقى الشرائع من أوشاب

يظهر لمن تأمل مؤلفاته : أنه يفرق بين الخير فى العمل ، والخير فى الاعتقاد ، اذ يراه يقول فى ص ٤٧ من الجزء الثالث من الاحياء :

« اذا حكم قلب المفتى بايجاب شئ ، وكان مخطئا فيه ، صار مثابا عليه . بل من ظن أنه تطهر ، فعليه أن يصلى . فان صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله ، فان تذكر ثم تركه كان معاقبا عليه ، ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته ، لم يعص بوطئها ، وان كانت أجنبية فان ظن أنها أجنبية ، ثم وطئها ، عصى بوطئها وان كانت زوجته » .

ويراه يقول فى ص ١١ من كتابه « المنقذ من الضلال » :
« والطبيعيون قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات . وأكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوان فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه الى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها . ولا يطالع التشريح ومنافع الأعضاء مطالع الا ويحصل له هذا العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان ، ولا سيما الانسان . الا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم فى قوى الحيوان ، فظنوا أن القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه أيضا ، وأنها تبطل بطلان مزاجه ، فتتعدم . ثم اذا انعدمت فلا يعقل إعادة المعلوم كما زعموا فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحذوا الآخرة . وهؤلاء أيضا زهدة . لأن أصل الايمان هو الايمان بالله وبالرسول واليوم الآخر وهؤلاء جحذوا اليوم الآخر وان آمنوا بالله وبصفاته » .

وتهاافت الغزالي فى هذا الحكم واضح . فقد قرر أن من يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء يحصل له العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان والانسان ، فهو اذن أقوى ايمانا وأرسخ عقيدة ممن لم يطالع التشريح . ولكن الباحث فى منافع الأعضاء مضطر الى أن يؤمن بأثر المزاج فيما يعتور النفس من قوة وضعف ، وهو بالتالى مضطر الى

يظهر لمن تأمل مؤلفاته : أنه يفرق بين الخير فى العمل ، والخير فى الاعتقاد ، اذ يراه يقول فى ص ٤٧ من الجزء الثالث من الاحياء :

« اذا حكم قلب المفتى بايجاب شىء ، وكان مخطئا فيه ، صار مثابا عليه . بل من ظن أنه تطهر ، فعليه أن يصلى . فان صلى ثم تذكر أنه لم يتوضأ كان له ثواب بفعله ، فان تذكر ثم تركه كان معاقبا عليه ، ومن وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته ، لم يعص بوطئها ، وان كانت أجنبية فان ظن أنها أجنبية ، ثم وطئها ، عصى بوطئها وان كانت زوجته . »

ويراه يقول فى ص ١١ من كتابه « المنقذ من الضلال » :
« والطبيعون قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات . وأكثروا الخوض فى علم تشريح أعضاء الحيوان فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه الى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها . ولا يطالع التشريح ومنافع الأعضاء مطالع الا ويحصل له هذا العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان ، ولا سيما الانسان . الا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم فى قوى الحيوان ، فظنوا أن القوة العاقلة من الانسان تابعة لمزاجه أيضا ، وأنها تبطل ببطلان مزاجه ، فتتعدم . ثم اذا انعدمت فلا يعقل اعادة المعدوم كما زعموا فذهبوا الى أن النفس تموت ولا تعود ، فجحّدوا الآخرة . وهؤلاء أيضا زنادقة . لأن أصل الايمان هو الايمان بالله وبالرسول واليوم الآخر وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وان آمنوا بالله وبصفاته » .

وتهافت الغزالي فى هذا الحكم واضح . فقد قرر أن من يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء يحصل له العلم الضرورى بكمال تدبير البانى لبنية الحيوان والانسان ، فهو اذن أقوى ايمانا وأرسخ عقيدة ممن لم يطالع التشريح . ولكن الباحث فى منافع الأعضاء مضطر الى أن يؤمن بآثر المزاج فيما يعتور النفس من قوة وضعف ، وهو بالتالى مضطر الى

الايمان بأن النفس تموت • واذن فهو زنديق فيما يرى الغزالي ! وكيف ذلك والغزالي يرى أن من وجد على فراشه امرأة فظن أنها زوجته لم يعص بوطئها وان كانت أجنبية !؟

لقد صرح الغزالي في عدة مواطن من كتبه ، بأن من حمل على شرب الخمر لا يحد ؛ وصرح في ميزان العمل بأن الأمزجة تشكل الأخلاق ؛ فهو يرى الاختيار شرطا للمؤاخذه ، كما أوضح ذلك حين تكلم عن حديث النفس في الجزء الثالث من الاحياء ، فكيف يحكم بكفر الرجل العالم الذي أفعه العلم مثلا بأن النفس تموت؟ أيرى الغزالي أن من المحرم شرعا أن يدرس التشريح ؟ وإذا كانت الشريعة تدعو الى تحكيم العقل كما نطق بذلك القرآن ، أفليس معنى ذلك أنه ليس للشريعة أن تضع بنفسها نتيجة ذلك التحكيم ، والا كان ايماننا بقوة الحديد ؟

الحق أن الغزالي مال كثيرا الى ترضية العامة حين بحث صحة الايمان ، حتى رأيناه يذكر أن المرء قد يتكلم بما هو كفر وهو لا يدري !

وما أغرب قوله في كتابه المنقذ من الضلال : « ثم رد ارسططاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الالهيين ، ردا لم يقصر فيه حتى تبرأ من جميعهم ، الا أنه استقى أيضا من رذائل كفرهم بقايا لم يوفق للنزوع منها • فوجب تكفيره ، وتكفير متبعية ، من متفلسفة الاسلاميين : كابن سينا والفارابي ، وأمثالهم » •

والغزالي الذي أسرف هذا الاسراف في الحكم على الايمان وفق كل التوفيق حين دعا الى حسن الظن بالناس • وانظر ما قاله في تحريم الغيبة بالقلب « ليس لك أن تعتقد في غيرك سوءا الا اذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل ••• حتى أن من استنكه فوجد منه رائحة الخمر

لا يجوز أن يحد ، اذ يقال يمكن أن يكون قد تمضمض بها ومجها وما شربها ، أو حمل على الشرب قهرا • فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها بالقلب ، واساءة الظن بالمسلم بها ، •

وعندى أن الرجل لا يكفر الا اذا عرف الحق وعاند ، فأى فيلسوف رأى رأيا شاذا عن حسن قصد فهو ناج ولو كان رأيه يخالف الدين مخالفة صريحة • فكان من الحق على الغزالي أن يقيم الأدلة على ما عند ابن سينا والفارابى من العناد ، وسنعود الى تفصيل هذا الرأى فى غير هذا الباب •

مقياس الخير والشر

ومع أن الغزالي قرر أن لا دخل للعقل فى حسن العمل وقبحه وانما الأمر فى ذلك للشرع ، فقد رأيناه يقيس العمل بمقياس العقل والشرع معا ، حين يريد أن يحكم : أخير هو أم شر • فالعمل خير اذا وافق العقل والشرع ، وشر اذا خالف العقل والشرع •

ولم يفرد الغزالي بابا لهذا البحث ، ولكنه نوه بمدلوله فى مواطن كثيرة ، فقد جاء فى ص ٨١ من ميزان العمل فى تعريف السخاء ما نصه : « هو أن يتيسر عليك بذل ما يقتضى الشرع والعقل بذله عن طوع ورغبة ويتيسر عليك امساك ما يقتضى الشرع والعقل امساكه عن طوع ورغبة وجاء فى ص ١٣٦ من هذا الكتاب ما نصه : « وعماد عفة الجوارح كلها أن لا يطلقها فى شئ مما يختص بها الا فيما يسوغه العقل والشرع وعلى الحد الذى يسوغه » وقال فى ص ٥٧ من الجزء الثالث من الاحياء « وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت اشارة العقل والشرع » وقال فى وصف العمل الصالح : « وذلك بأن يكون موزونا بميزان العقل والشرع » ص ٢٢ ج ٣ احياء •

اغفال الغزالي لهذا المقياس

هكذا يقاس الخير والشر بمقياس العقل والشرع فيما يرى الغزالي •
ولكن ماهو الشرع ؟ وما هو العقل ؟

ان الغزالي نفسه وضع في الأخلاق أحكاما لا نظنها تستند على عقل
أو دين ! ولنضرب مثلا بما وضعه لنظام الطعام • جاء في الميزان ص ١٨٤
ما نصه : « وأما المطعم فهو الأصل العظيم • اذ المعدة مفتاح الخيرات
والشرور - ولهذا أيضا ثلاث مراتب : أدناها قدر الضرورة وهو ما يسد
الرمق ويبقى معه البدن ، وقوة العبادة • وذلك يمكن تقييله بالعادة
تارة بتقليل الطعام شيئا فشيئا حتى يتعود الصبر عنه عشرة أيام وعشرين •
وقد انتهى الزهاد في القدر كل يوم الى حمصة وبعضهم في الوقت الى
عشرين يوما وقيل أربعين • وهذه رتبة عظيمة يقل من يستقل بها »
وقد أطال القول في فضائل الجوع في الربع الثالث من الاحياء حتى قال :
« روى أن عيسى عليه السلام مكث يناجي ربه ستين صباحا لم يأكل
فخطر بباله الخبز فانقطع عن المناجاة ، فاذا رغيف موضوع بين يديه
فجلس يبكي على فقد المناجاة ، واذا شيخ قد أظله ، فقال له عيسى : بارك
الله فيك يا ولي الله ، ادع الله تعالى لي ، فاني كنت في حالة فخطر ببالي
الخبز فانقطعت عني ! فقال الشيخ : اللهم ان كنت تعلم أن الخبز خطر
ببالي منذ عرفتك فلا تغفر لي ! بل كان اذا خطر لي شيء أكلته من غير
فكر ولا خاطر ! » •

وقال أيضا « الفائدة السابعة من فوائد الجوع - تيسير المواظبة على
العبادة • فان الأكل يمنع من كثرة العبادات لأنه يحتاج الى زمان يشتغل
فيه بالأكل ، وربما يحتاج الى زمان في شراء الطعام وطبخه ، ثم يحتاج
الى غسل البدن والخلال ، ثم يكثر ترداده الى بيت الماء لكثرة شربه
والأوقات المصروفة الى هذا لو صرفها الى الذكر والمناجاة وسائر العبادات
لكثر ربحه » •

فهي الكلمة الأولى نراه يدعو الى تقليل كمية الطعام حتى تصل الى حصصة ، وتطويل المدة حتى تصل الى عشرين يوما أو أربعين ، ثم يعد هذه الرياضة رتبة عظيمة • فياليت شعري ، أيرضى بذلك العقل ، وهو لا يرضى بأقل من أن يكون المرء حياً ، فيه فضائل الحياة من قوة ونشاط؟ أم يرضى بذلك الشرع ، وهو لا يرضى بأقل من أن يكون الرجل جندياً يضرب في الأرض ، ويحرس الثغور ، ويرهب القوم الكافرين ؟

وفى الكلمة الثانية ، يصف عيسى بما لا ينبغي أن يوصف به الأنبياء ، والا فكيف ينبغي لنبي أن يناجى ربه ستين صباحاً بلا طعام وهو مسئول عن الدعوة الى دينه ، وقلوب ينتجح في الدعوة ضعيف ؟ هذه جراحة في وصف الأنبياء والمرسلين ، فما أحسبهم الا رجالاً اشداء تمت لهم صفات الفتوة والرجولة ، أما هذه الرهينة التي تصورها الغزالي فلا تنتج غير الضعف والخمول ، وما كان الأنبياء كسالى ولا واهنين •

وفى الكلمة الثالثة ، يستكثر على المرء أن يضع وقتاً في شراء الطعام وطبخه ، ثم غسل يده ، وتخليل أسنانه ، وما أدرى كيف يسير الناس ، اذا قاسوا الخير والشر بهذا المقياس !

الواقع أن الغزالي وضع مؤلفاته في الأخلاق مشربة بنزعة صوفية بل صرح بأن مدار أكثر كتابه الميزان على مذهب التصوف • والتصوف ليس مذهب الأحياء ، ولكنه مذهب الأموات • وما ظنك بمذهب يجيز للغزالي أن يصور للنظر للمستقبل بهذه الصورة المنكرة حين يقول « وأرفع الدرجات درجة من لا يلتفت الى غده ويقصر همته على يومه ويومه على ساعته ، وساعته على نفسه ، وقدر نفسه كل لحظة مرتحلاً من الدنيا أو مستعداً للارتحال » •

وما أظن أمة تفهم الأخلاق هذا الفهم ، ثم تقدر على الجلاء في عالم الأحياء • ولم يبعد من وصف الأخلاق في رأى الغزالي بأنها أخلاق العبيد !

الفصل الثانى

الارادة

- ١ -

وردت كلمة الارادة فى كتب الغزالى لأغراض متعددة : فتارة يريد بها السلوك فى طريق الله ، ومنها المريد الذى يرد كثيرا فى كلامه ويريد به السالك فى ذاك الطريق ، طريق الصوفية •

وللارادة بهذا المعنى شرط يتقدمها : وهو رفع السد الذى بين المريد وبين الحق ، وهذا السد فيما يرى الغزالى أربعة أشياء : المال والجاه ، والمعصية ، والتقليد •

ويرفع حجاب المال بخروج المريد عن ملكه ، حتى لا يبقى له الا قدر الضرورة • ويرفع حجاب الجاه بالبعد عن موطنه مع ايثار الخمول • ويرفع حجاب التقليد بترك التعصب للمذاهب • أما المعصية فلا يرفعها الا التوبة ، والندم ، والعزم على عدم العود والخروج من المظالم •

والتجرد من هذه الحجب هو فيما يرى الغزالى كالتطهر للصلاة ولا بد للمصلى من امام • فكذا لا بد للمريد من أستاذ ، وقد وضع عدة آداب للمريد مع أستاذه ، وليس ذلك مما يعنينا الآن • ويكفى أن يعرف القارئ ما يقصد من كلمة مريد التى يكثر دورانها فى « الميزان » و « المنهاج » و « الاحياء » •

- ٢ -

وتارة يذكر الارادة ويريد بها ما ينبعث عن المعرفة ويسخر القدرة والارادة بهذا المعنى هى المقصودة عند علماء الأخلاق • ولها عند الغزالى أسماء مختلفة : فنراه حينما يسميها القوة العاملة اذ يقسم قوى النفس

الانسانية الى قوة عالمة ، وقوة عاملة ، ويذكر أن الثانية « هي قوة ومعنى للنفس هو مبدأ حركة بدن الانسان الى الأفعال المعينة الجزئية المختصة بالفكر والروية على ما تقتضيه القوة العالمة النظرية » الميزان ص ٢٦ •

ونراه حيناً آخر يسميها النية • ويعنونها كذلك في الأربعين والاحياء • فلو أنك نظرت في الفهرست لتعرف في أى موضع تكلم عن الارادة ، ثم نظرت في الفصل الذى شرحها فيه ، لما رأيتها الارادة التى يتكلم عنها الأخلاقيون ، وانما رأيتها الارادة التى عناها الصوفية ، واشتقوا منها كلمة مريد • فأما الارادة التى هي من موضوعات الأخلاق ، فاسمها عند الغزالي النية ، وله في شرحها كلام طويل •

- ٣ -

يقول الغزالي « ان النية والارادة والقصد ، عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب ، ويكتنفها أمران : علم وعمل • والعلم يتقدم لأنه أصل وشرط • والعمل يتبع لأنه ثمرة وفرع • وذلك لأن كل عمل ، أعنى كل حركة وسكون اختياري • لا يتم الا بثلاثة أمور : علم ، وارادة ، وقدرة • لأنه لا يريد الانسان ما لا يعلمه ، فلا بد وأن يعلم ، ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من ارادة ، ومعنى الارادة انبعث القلب الى ما يراه موافقا للغرض ، اما في الحال ، واما في المآل » ص ٣٨١ ج ٤ احياء •

ويقول (النية هي الارادة الباعثة للقدرة ، المنبئة عن المعرفة • وبيانه أن جميع أعمالك لا تصح الا بقدرة وارادة وعلم ، والعلم يهيج الارادة ، والارادة باعثة للقدرة ، والقدرة خادمة الارادة) ص ٢٦٢ من الأربعين •

وواضح أن الارادة كما يراها الغزالي لا تختلف عما نراه الآن فانك لا تجد فرقا بين كلامه هذا وبين قول جول سيمون (والواقع أننا

لأجل أن نعمل يجب أن نريد ، ولأجل أن نريد يجب أن نعرف ماذا نريد ، ولماذا نريده (الواجب ص ١٩ •

- ٤ -

ويقرر الغزالي فوق ما تقدم أنه لا يكفي أن يعلم الانسان صواب العمل ليريده وينفذه ، بل لا بد من أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقا له ، فإذا جازمت المعرفة بأن الشيء موافق ولا بد أن يفعل ، وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه ، انبعثت الارادة ، ونهضت القدرة لتنفيذ المراد •

ويقرر كذلك أن نهوض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد ، وقد يكون بباعثين اجتماعا في فعل واحد • وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد من القوة بحيث لو انفرد لكان كافيا لانهاض القدرة ، وقد يكون كل واحد قاصرا عنه الا بالاجتماع ! وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر ، ولكن قام الآخر بمعاوته • فالباعث الثاني اما شريك أو رفيق أو معين • ولهذا التقسيم مزية في تقدير ما في العمل من خير أو شر بتقدير البواعث ؟ فان العمل تابع للباعث عليه ، فيكتسب الحكم منه ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر • بل ربما كانت النيات أقوى في التقدير من الأعمال ، ومن هنا كانت نية المرء خيرا من عمله ، كما جاء في الحديث الشريف ، وكما ذكر الغزالي من أن أعمال الجوارح ليست مرادة الا لتأثيرها في القلب ، ليميل الى الخير ، وينفر من الشر^(١) •

تربية الارادة

تربى الارادة فيما يرى الغزالي بتكرار طاعة الميل المحمود وتكرار

(١) انظر ص ٢٦٣ من الأربعين

مجاهدة الميل المذموم • وفى ذلك يقول : « وإذا حصل الميل بالمعرفة فانما يقوى بالعمل بمقتضى الميل والمواظبة عليه • فان المواظبة على مقتضى صفات القلب تجرى مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفات فالمثل الى طلب العلم أو طلب الرياسة ، لا يكون ميلا فى الابتداء الا ضعيفا • فان اتبع مقتضى الميل ، واشتغل بالعلم ، وتربية الرياسة ، والأعمال المطلوبة لذلك ، تأكد ميلا ورسخ ، وعسر عليه النزوع • وان خالف مقتضى ميلا ، ضعف ميلا ، وانكسر ، وربما زال • بل الذى ينظر الى وجه حسن مثلا فيميل اليه طبعه ميلا ضعيفا ، لو تبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر ، والمجالسة ، والمخالطة ، والمحاورة ، تأكد ميلا حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه • ولو فطم نفسه ابتداء ، وخالف مقتضى ميلا ، لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل ، ويكون ذلك دفعا فى وجهه حتى يضعف ••• لأن بين الجوارح والقلب علاقة ، حتى انه ليتأثر كل واحد منهما بالآخر • الا أن القلب هو الأصل المتبوع ، فكانه الأمير والراعى • والجوارح كالخدم والراعى والاتباع » •

والغزالي لا يرى للعمل قيمة بغير النية ، وان شئت الارادة • واذ كانت النية هى التى تقوم العمل ، فمن الخير أن تكون قوية ، لأنه كما تكون الرغبة فى عمل طيب ، أو النفرة من عمل خبيث ، يكون جزاء العامل : فيكثر أجره ان قوى حبه للخير ، وبغضه للشر ، ويقل فيما عدا ذلك • وقد نص فى عدة مواطن من كتبه بأن المعول على القلوب ، حتى لتجده يذكر أن الصغيرة تنقلب كبيرة بالاصرار والمواظبة ، أو بالاستهانة بما لها من الخطر • وأن الكبيرة اذا وقعت بغتة ، ولم يتفق اليها عود ، واستعظمها المرء ، كانت مرجوة العفو ، وفى ذلك يقول :

« فان الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله ، وكلما استصغره كبر عند الله ، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه ، وكراهيته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به • واستصغاره يصدر

عن الالف له ، وذلك يوجب شدة الأثر فى القلب ، والقلب هو المطلوب
تتويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيئات « ص ٣٣ ج ٣

أهمية الإرادة

الإرادة شرط للمسئولية، وشرط للجزاء • فالذى يعمل وهو ناس
أو غافل لا يجازى ولا يؤاخذ • وانما كان الأمر كذلك فيما يرى
الغزالي : لأن القلب لا يتأثر بما يجرى فى الغفلة ، والقلب عند الغزالي
هو كل شئ ، فليست السيئة حسنة الا لأنها تصلحه ، أو تزيد فى
صلاحه ، وليست السيئة سيئة الا لأنها تفسده أو تزيد فى فساده •
والجريمة الهائلة اذا اقترفها المرء وهو مضطرب متردد ، لا خطر لها
عنده ، لأن القلب لا يتأثر بما يفعل المرء وهو كاره ، والقفوة التافهة
عظيمة الخطر اذا أتاها المرء وهو راض مسرور ، لأنه بقدر ما تحلو
السيئة يعظم أثرها فى تسويد القلب وافساده • والذنب الواحد تختلف
قيمه حين يأتيه رجلان : أحدهما عارف به ، وثانيهما جاهل له ، فهو
بالنسبة للأول كبيرة ، وبالنسبة للثانى صغيرة ، لأن الإرادة تختلف قوة
وضعا باختلاف درجة العلم ، اذ كانت ثمرة له •

ويقول الغزالي بعد كلام طويل « فهكذا يجب أن تفهم تأثير الطاعات
كلها ، اذ المطلوب منها تغيير القلوب، وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح،
فلا تظنن فى وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة
والأرض ، بل من حيث انه بحكم العادة يؤكد صفة التواضع فى القلب •
ومن وجد فى قلبه رقة على يتيم ، فانه اذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة
فى قلبه « ص ٢٨٤ ج ٤ •

الجبر والاختيار

وعد اختلف العلماء ، ولا يزالون مختلفين ، فى حرية الارادة ، فمنهم من يقول انها مجبورة ، ومنهم من يقول انها مختارة ، ومنهم من يحكم بانها دائرة بين الجبر والاختيار .

وأنا أرجح رأى الأخير ، لأن الواقع أن هناك مؤثرات تحمل الارادة على الاتجاه الى جهة معينة ، كالوراثة ، والصحة ، والبيئة ، والظروف الخاصة . والارادة فيما عدا ذلك حرة مختارة فالذى ورث عن أبيه أو أمه خلقا من الأخلاق ، يسير مضطرا الى ما يوافق ذلك الخلق . والذى يحمله ضعف صحته على اللد في الخصومة لا يستطيع اجتناب هذه الخصلة . والذى تقضى عليه البيئة التى يعيش فيها باحترام زى خاص ، يشعر بالاضطرار الى التزى بهذا الزى . فأنا أستطيع نزع العمامة لألبس الطربوش ، ولكنى لا أستطيع لبس القبعة ، لأنى مقهور على مسaire الوسط الذى أعيش فيه ، وان زعمت ثم زعمت أنى مختار . والذى يقهره ظرف من الظروف على اتيان جريمة من الجرائم غير مختار . وسيرقى القضاء يوما فيحلل الظروف التى وقعت فيها الجريمة ليتبين صحة المسؤولية . فكثيرا ما يعاقب المجرم وهو غير مسئول .

فإذا انتفت موانع الاختيار فالارادة حرة فى الاقبال على الفعل ، أو الانصراف عنه . وفى هذه الحالة تصبح للخير قيمته ، وللشر قيمته ويصير الخير جديرا بالثوبة لأنه أحسن وهو مختار ، والشرير خليقا بالعقوبة لأنه أساء وهو مختار . أما المضطر الى فعل الخير أو الشر لسبب من الأسباب فهو فيما أرى غير أهل للثواب والعقاب .

والغزالي لا يقول بحرية الارادة حرة مطلقة ، ولا بمعجزها المعجز المطلق . ويقول « بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا . وخلق الاختيار والمختار جميعا ، فأما القدرة فوصف للعبد وخلق للرب ، وأما

الحركة فخلق للرب ، ووصف للعبد وكسب له ، فانها خلقت مقدورة
بقدره هي كسب وصفة • وكانت الحركة نسبة الى صفة أخرى تسمى
قدرة فتسمى باعتبار تلك النسبة كسبا • وكيف تكون جبرا محضا وهو
بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والرعدة الضرورية ؟ أو
كيف يكون خلقا للعبد وهو لا يحيط علما بتفاصيل أجزاء الحركات
المكتسبة وأعدادها ؟ واذا بطل الطرفان لم يبق الا الاقتصاد في الاعتقاد ،
وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعا ، وبقدرة العبد على وجه آخر
من التعلق يعبر عنه بالاكساب « ص ١٢٠ ج ١ احياء •

والواقع أن رأى الغزالي هذا لا يفصح عن قيمة ما في أعمال المرء
من الاختيار ، فهي في رأيه ليست جبرا لانها تفتقر عن الرعدة وهي
ليست اختيارا لأن المرء لا يحيط بتفاصيل ما لحركاته من الأجزاء • مع
أن الاختيار لا يتوقف اثباته على معرفة الأجزاء والأعداد ، لأن العمل
الاختياري قد تكون له لوازم ضرورية ، لا يتنبه لها المرء ، ولا تكون
غفلته عنها قاذحة في اختياره •

ويقرر الغزالي مع هذا « أن فعل العبد وان كان كسبا له ، لا يخرج
عن كونه مرادا لله سبحانه ، فلا يجري في الملك والملكوت طرفه عين ،
ولا لفته خاطر ، ولا فلة ناظر ، الا بقضاء الله وقدرته ، وبارادته
ومشيئته ، ومنه الشر والخير ، والنفع والضرر ، والاسلام والكفر ،
والعرف والتكر ، والفوز والخسر ، والغواية والرشد ، والطاعة ،
والعصيان ، والشرك والايمان « ص ١٢٠ ج ١ (١) •

وأنا لا أفهم ما هو هذا الكسب الذي يقره أهل السنة ، ويتابعهم
الغزالي في اقراره • فهم لا يقولون بأن العبد مضطر ، والا كانوا جبرية ،
والجبرية في رأيهم خاطئون • ولا يقولون بأنه مختار ، والا كانوا معتزلة ،

(١) ٢٢١ ، ص ١٢٠ ج ١ احياء •

وهم قد سلقوا المعتزلة بالسنة حداد • فلم يبق الا أن العبد لا هو حر ولا هو مختار ، وإنما هو مكتسب : وهذا الكسب أيضا مراد لله • اذن فما الذى بقى للعبد المسكين !

الحق أن هذه وسوسة أوقعهم فيها الخلاف !

وأساس هذه الوسوسة أنهم يحسبون حرية الارادة خروجاً على الله فى ملكوته ، والغزالي يضرب المثل بزعيم الضيعة يستنكف أن يكون لأحد العمال رأى معه ، وما كان أغناه عن ضرب هذه الأمثال !

ان حرية الارادة الانسانية لا تضر الله شيئاً ، فما بال أهل السنة يأبون الا أن تكون طرفة العين ، وهى حركة طبيعية ، أنرا لارادة الله ؟ ولا قيمة لما يجيب به المعتسفون من أن اختراع الله للقدرة كافٍ فى اقرار الكسب للمرء ، فانه لا خلاف فى أن الله واهب القدرة ، ولكن ليس معنى ذلك أنه يسيرها أنى شاء ، ومتى شاء ، والا كان التكليف ضرباً من العبث ، ولو كره المتكلفون • فلم يبق الا أن الارادة حرة ، وذلك هو ما وضع الله من قانون ، فلا يبتسوا بما نقول !

على أن العهد قريب بما قال الغزالي فى تربية الارادة ، فاذا كان ما أريده هو ما يريد الله ، فأى الارادتين تربي ؟ ان هذا الاتناقض •

ونعود فنذكر أنه قرر فى مكان آخر من الاحياء « أن النية غير داخلية تحت الاختيار » وقد عرفت أنه يريد بالنية الارادة ، وأن رأيه وسط بين الجبر والاختيار ، أفلا يكون متناقضاً فى حكمه : تارة بأن النية حرة ، وتارة بأنها مجبورة ؟

الحقيقة أن الارادة التى يقرر الغزالي أنها غير مختارة ليست هى الارادة بمعنى القصد ، وإنما ذلك ما يسمى ارادة صادقة ، وهى التى

يعقبها التنفيذ • فمن الجائز أن أقصد الى أى عمل فى أى وقت ، ولكن ليس فى مقدورى أن أرغب رغبة صادقة فى كل ما يعن لى من الأعمال ، فى جميع الأحيان • وفى ذلك يقول الغزالى « فقد تيسر فى بعض الأوقات ، وقد تتعذر فى بعضها • نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه فى أكثر الأحوال احضار النية للخيرات ، فان قلبه مائل بالجملة الى أصل الخير فينبعث الى التفاصيل غالبا ، ومن مال قلبه الى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك • بل لا يتيسر له فى الفرائض الا بجهد جهيد ، وغايته أن يتذكر عذاب النار أو نعيم الجنة ، فربما تنبثق له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته » •

وخلاصة رأى الغزالى أن المرء حر فى الاقبال على ما شاء من الأعمال ، وان كان فى اقباله انما ينفذ ارادة الله ، ولكنه ليس صادق النية فى كل حين ، وانما تصدق النية بالترغيب فى الجنة والتخويف من النار •

ولا يفوتنا أن ننبه على ما دعا اليه فى تربية الخلق من مخالطة الأخيار ، فان فى ذلك اعترافا ضمنيا بتأثير الوسط فى الارادة الانسانية ، ونقله اياها من حال الى حال • وهذا نوع من الجبر ، ولكنه جبر معقول •

الفصل الثالث

الضمير

هو صوت ينبعث من أعماق الصدور ، آمرا بالخير ، أو ناهيا عن الشر ، وان لم ترج مثوبة ، أو تخش عقوبة •
والغزالى كما رأيت لا يرى شيئا حسنا لذاته ، أو قبيحا لذاته ، فالشرع هو المكيف للأعمال حسنا وقبيحا ، فلا مجال بالطبع لأن يفرد بابا

للضمير ، اذ كان التكليف انما ينزل من السماء * والضمائر التي ترد في كلامه انما يريد بها مكنونات الصدور ، وهي السرائر من باب واحد * والانسان فيما يرى ليس مسئولاً عن مراقبة ضميره ، اذ هو لا يعرف الضمير * وانما يسأل عن مراقبة ربه ، وخشيته ، في السر والعلانية فليس هناك جارحة باطنية تدرك الخير والشر ، وان لم تتعرض لهما الشرائع ، وانما هناك رب يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور ، والمرء عن خشيته مسئول *

غير أنه لا يصح لنا أن ننسى أن هناك أسباباً لتشوء الضمير ، فالفلسفة توجد لدارسها نوعاً من الشعور بالمسئولية ازاء بعض الجوانب ، والاخلاق توجد للباحث فيها نوعاً من ادراك الواجب ، والشريعة كذلك تورث المتدين بها نوعاً من الوجدان *

ولا نبعد عن الصواب اذا قررنا أن الغزالي يؤمن بالنوع الأخير من الضمير ، وان لم ينوه به ، ولم يختصه بالبيان * واليك قوله في ص ٨٥ ج ١ من الاحياء « ومنها أن يكون اعتياده في علومه على بصيرته ، وادراكه بصفاء قلبه ، لا على الصحف والكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره » وقد ردد في كتبه هذا الحديث « الإثم ما حاك في صدرك ، وان أفتوك وأفتوك » وليس ذلك الا اشادة بهذه الحاسة الباطنية التي يفرز المرء اليها عند ما يلتبس عليه وجه الصواب * الا أنه يجب ان نعرف ان نص الشريعة من كتاب أو سنة هو عنده فوق الفتوى وفوق الضمير *

والحق أن الضمير لا وجود له في ذاته ، حتى نؤاخذ الغزالي باغفاله ، وانما ينشأ من الشرائع الوضعية ، والسمائية * حتى انك لتجد لكل شعب ضمائر تخصه بالذات ، حسبما توحى التقاليد * فمثلاً جريمة السرقة كانت فضيلة عند بعض الشعوب ، وكان من تنقصه فيها المهارة عرضة لاحتقار الرأي العام ، ولذع الضمير !! ونهب مال الغريب لا جرج فيه عند فريق من القبائل البربرية ، فمن الواضح أنهم لا يقاسون عند

نهبه تأنيب الضمير • بل الشخص الواحد يختلف ضميره باختلاف سنه ،
فيكون ضميره في سن العشرين ، أضعف أو أقوى منه في سن الثلاثين ،
حسبما توجب الظروف • ومن هنا صح لشاعر أن يقول :

يقولون هل بعد الثلاثين ملعب . فقلت وهل قبل الثلاثين ملعب ؟

كما صح لغيره أن يقول :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للبطل ابعد

وعندى أن فكرة الضمير اذا صح أن تكون عامة ، فيجب أن تقصر
على المنافع البشرية • على معنى أن الضمير هو الحاسة التي تتألم لما يتوجع
له الانسان من حيث هو انسان ، بغض النظر عن دينه ، ووطنه ، ومذهبه •
فان للانسانية وشائج لا ينال منها اختلاف المذاهب ، ولا تباين اللغات ،
ولا تباعد الأقطار •

الفصل الرابع

الأغراض والنتائج

هل يكون العمل خيرا باعتبار نتيجته ، أو باعتبار المقصود منه ؟
وبعبارة أوضح : هل يكون خيرا لأننى أردت به الخير ، أو لأنه أتبع
الخير ، وان لم أرد ذلك ؟

ويظهر أنه لاستخلاص رأى الغزالي فى الجواب على هذا السؤال ،
ينبغى أن نسايره فى الأعمال المختلفة ، لنعرف رأيه فى كل نوع منها
على انفراد •

وقد رأيناه يقسم أعمال الانسان الى طاعات ومعاصٍ ومباحات • أما
الطاعات فلا تكون خيرا الا بالنية ، وهى الغرض فى التعبير الحديث •
ويقول فى ذلك (ان العمل تابع للبائع عليه فيكتسب الحكم منه • ولذلك

قيل : « انما الأعمال بالنيات » لأنها تابعة لا حكم لها في نفسها وانما الحكم للمتبع (وهو يستتج بناء على هذا الأساس أنه لا قيمة للصوم اذا أراد الصائم الانتفاع بالحمية ، ولا للعتق اذا أراد السيد أن يتخلص من مئونة عبده ، ولا للحج اذا أراد المرء أن يصح مزاجه بالحركة والانتقال ، ولا للغزو اذا أحب الشخص أن يتعلم أسباب الحروب : لأن النية لا تصح عند الغزالي الا اذا خلصت من الشوائب ، وتقرب العبد بها الى الله . ولا مانع عنده من وجود باعث آخر ، ويسميه الباعث النفسى ، على شرط أن يكون أضعف من الباعث الأسمى . فان كان مساوياً له ، صار العمل لا له ولا عليه ، كما يقول . وان كان أقوى منه فهو مضر ومفض للعقاب .

والغزالي ينصح بالتدبر قبل الشروع في الطاعة ليعرف المرء أى الباعثين أقوى : باعث النفس أو باعث القربة ، وأى النصيين أوفى : نصيب الله أم نصيب الشيطان . ولكنه يقول : « ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فان ذلك منتهى بغية الشيطان منه ، اذ المقصود أن لا يفوت الاخلاص . ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا » .

ويلاحظ أن في هذا تناقضا مع حكمه على العمل الذى غلب فيه الباعث النفسى بأنه مضر ومفض للعقاب ، والعمل الذى يضر ويفضى للعقاب ، لا يكون تركه منتهى بغية الشيطان ، فكان على الغزالي أن يفرق بين العمل فى ذاته وبين غرض العامل منه ، لأن العمل الطيب غير ضار فى ذاته ، وان ساء الغرض منه . والمفروض أننا نتكلم عن أعمال هى فى نظر الشرع طاعات ، وهى فى ذاتها خير ونافعة ، فكيف تنقلب بسبب النية ضارة ؟

ولم يفرق الغزالي بين الأعمال الاجتماعية والأعمال الفردية فمن الواضح أن بعض الأعمال يرجع الى فائدة المرء وحده كالعبادات وبعضها

يرجع نفعه الى جمهور الناس • وما أجسب الغزالي ينهى عن الاعمال الاجتماعية ، مهما ساء القصد ، اذ لا أقل من أن تكون تمرينا للنفس على عمل الخير • وقد صرح في غير موطن بان التخلق مفض الى الخلق ومتى كان العمل نافعا للناس ، فالدعوة اليه واجبة ؛ والعامل حر في الاستفادة من حسن نيته ان شاء •

واما المعاصي فهي شر على كل حال • والغزالي هنا يقدر النتائج ، فمن عمل شرا عن جهل فهو اثم ، ولا عذر له من جهله لان الجاهل غير معذور الا اذا كان قريب عهد بالاسلام ، وهذا عذر محدود • وقد علمت انه يرى ان المعصية شر لانها ضارة ورأيت كذلك أن فاعل المعصية اثم وان لم يعلم وجه اثمه ، فتحتم أن تكون العبرة هنا بالنتائج لا الاغراض بخلاف الطاعات فقد تنقلب معاصي صرفة اذا خبث النية ، كمن يتعلم العلم ليستميل الناس •

الفصل الخامس الوسائل والغايات

اذا كانت الغاية شريفة ، فلا يجب فيما يرى الغزالي أن تكون الوسيلة دائما شريفة ، فالغاية عنده قد تبرر الوسيلة • وقد أوضح هذا حين تكلم عن المواطن التي يجوز فيها الكذب فقال : « الكلام وسيلة الى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن الوصول اليه بالصدق والكذب جميعا ، فالكذب فيه حرام ان أمكن التوصل اليه بالصدق وان أمكن التوصل اليه بالكذب دون الصدق ، فالكذب فيه مباح ، ان كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب ان كان المقصود واجبا • وكما أن عضمة دم المسلم واجبة ، فمهما كان في الصدق سفك دم امرئ مسلم قد اختلفى من ظالم ، فالكذب فيه واجب • ومهما كان لا يتم مقصود الحرب ، أو

صلاح ذات الين ، أو استمالة قلب المجنى عليه ، الا بكذب فالكذب مباح^(١) » وبعد أن بين الحالات الثلاث التي يجوز فيها الكذب كما نص الحديث ، وهى الصلح والحرب ومحادثة المرأة ، قال : « فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفى معناها ماعداها اذا ارتبط به غرض مقصود صحيح له أو لغيره^(٢) » ثم ضرب لذلك الأمثال الآتية :

(١) أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله • فله أن ينكره •

(٢) أن يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة ارتكبها بينه وبين الله ، فله أن ينكر ذلك ، اذ للرجل أن يحفظ دمه ، وماله وعرضه ، بلسانه ، وان كان كاذبا •

(٣) أن يسأل عن سر أخيه ، فله أن ينكره •

(٤) أن يصلح بين الضرائر من نسائه ، بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب اليه •

وقد تنبه الغزالي الى خطر هذا الباب ، فبين أن الكذب لا ينبغي أن يقترب كلما كانت له فائدة ، بل يجب أن تكون فائدته أقوى وأظهر من فائدة الصدق ، والا وجب أن يكون الرجل من الصادقين • وانظر قوله « ولكن الحد فيه أن الكذب محظور ، ولو صدق فى هذه المواضع تولد منه محذور ، فينبغى أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط ، فاذا علم أن المحذور الذى يحصل بالصدق أشد وقعاً فى الشرع من الكذب • فله الكذب • وان كان ذلك المقصود أهون من مقصود الشرع ، فيجب الصدق • وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل الى الصدق أولى • لأن الكذب يباح لضرورة ، ولحاجة مهمة • فان شك فى كون الحاجة مهمة ، فالأصل التحريم » ص ١٤١ ج ٣ •

(١) ص ١٣٩ ج ٣ احياه •

(٢) ص ١٤١ ج ٣ •

غير أن هذه الحيلة لا تلزم الرجل فيما يرى الغزالي إلا إذا كان يترك الكذب لغرض من أغراضه • أما إذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة بحق الغير ، والاضرار به • وهذا من الغزالي نظر بعيد •

وقد استثنى من الكذب للمصلحة ، الكذب على رسول الله بوضع الأحاديث في فضائل الأعمال ، وفي التشديد في المعاصي ، فليس هذا من الأغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول الله ، فإن الكذب عليه من الكبائر التي لا يقاومها شيء •

وضع القصص

وبهذه المناسبة ، نذكر أن الغزالي صرح في الجزء الأول من الاحياء ص ٣٧ « من الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة في الطاعات ، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق الى الحق » وهو يرى أن « هذه من نزعات الشيطان ، فإن في الصدق مندوحة عن الكذب » وهذا منه اسراف • بل هو نفسه أول من يؤاخذ على وضع القصص ان كان في وضعها مؤاخذة • ويكفى أن نعرف أنه يذكر في كتبه من قصص الأنبياء والصالحين ، ما لم يقم على صحته أي دليل • والرواية الكاذبة ليست أقل خطرا من التأليف !

وكما جاز الكذب في سبيل الغاية ، كذلك تجوز في سبيلها الغيبة • وقد صرح الغزالي بجواز الغيبة في المواطن الآتية :

(١) التظلم • فإن من ذكر قاضيا بالظلم ، والخيانة ، وأخذ الرشوة ، كان مفتابا عاصيا • أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم الى السلطان وينسبه الى الظلم ، إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به • ولا أدري لم لا تستباح أعراض الظالمين ؟

(٢) الاستعانة على تغيير المكروه ، ورد العاصي الى منهج الطاعة •

(٣) الاستفتاء • كما يقول للمفتي : ظلمنى أبى أو زوجى أو أخى ، وكيف طريقى الى الخلاص • والاسلم التعريض ، ولكن التعين مباح بهذا العذر •

(٤) تحذير المسلم من الشر • فاذا رأيت فقيها يتردد الى مبتدع أو فاسق ، وخفت أن تتعدى اليه بدعته وفسقه • فلك أن تكشف له بدعته وفسقه • متى كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة لآخر • واحذر أن يكون الحسد هو الباعث !

(٥) أن يكون المغتاب مجاهرا بالفسق ، بحيث لا يستكف من أن يذكر له ، ولا يكره أن يذكر به •

وهنا يحتاط الغزالي : فيبين أنه ليس لك أن تفتاب المجاهر بفسفه الا بما يتجاهر به • فمن كان يتجاهر بشرب الخمر فليس لك أن تذكر زناه ، اذا كان يستره ، وهذا منه نظر دقيق •

والغاية الشريفة ، تبيح النميمة ، كما أباحت الكذب والغيبة • فللاسان أن ينم ، اذا كان في النميمة فائدة لمسلم ، أو دفع لمعصية • كما اذا رأى من يتناول مال غيره ، فعليه أن يشهد به ، دفعاً للجاني عن المعصية ، ورداً لحق الماخوذ ماله • والنميمة في هذا المثال اذا كانت ضرا في جانب الظالم ، فهي نفع في جانب المظلوم ، وهو أولى بالاسعاف • بل دفع الظالم عن الظلم خير له في حاضره ، وابعاد له عن الضر في مستقبله ، اذا كان مستعداً للاقلاع عن الفساد •

الباب السادس في الأخلاق

تمهيد

كلمة أخلاق وجدت قبل الغزالي ، ففي الحديث « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » وقد عرف العرب فيما عرفوا عن اليونان كتاباً لأرسطو في الأخلاق ، ووضع ابن مسكويه كتاباً في صناعة تهذيب الأخلاق ، ويوشك كتابه ذاك أن يكون كتاباً في علم الأخلاق ، على نحو ما كان يفهم اليونان ، ومن اقتفى أثرهم من فلاسفة المسلمين •

والذي يعينني الآن هو تحديد علم الأخلاق كما فهمه الغزالي • وأقرر أنني بعد مراجعة كتبه لم أجده يساير من تقدمه من مجددي الفلسفة اليونانية ، وإنما يفهم من علم الأخلاق شرح طرائق السلوك ، وفقاً لما سنته الشريعة السمحة ، ورسمه الصوفية ، ومن هنا نحوهم من الفقهاء • ولعلم الأخلاق فيما يريد أسماء متعددة : فهو تارة يسميه علم طريق الآخرة ، وأخرى يسميه علم صفات القلب ، وحيناً يسميه اسرار معاملات الدين ، وربما سماه أخلاق الأبرار ، وهو اسم لبعض مؤلفاته • وأهم كتبه في الأخلاق نجده سماه إحياء علوم الدين • ففعلنا الأخلاق عنده هو تكييف النفس وردها إلى ما رسمته الشريعة وخطه رجال المكاشفة من علماء الاسلام ، ومن سبقهم من الأنبياء ، والصديقين ، والشهداء •

وإذا كنا نجد ابن مسكويه مثلاً يستشهد كثيراً بكلام أرسططاليس وجالينوس ، ويتحدث عن الرواقين ، ومن اليهم من الحكماء ، فانا نجد الغزالي يؤيد أبحاثه بكلام ابن أدهم ، والتستري ، والمحاسبي ، ومن اليهم من الصوفية ، وربما نقل ما روى عن عيسى ، وموسى ، ودادود ، ومن اليهم من الأنبياء ♦

تعريف الخلق

نرى الغزالي في ص ٥٦ من « الميزان » يعرف الخلق الحسن بأنه اصلاح القوى الثلاث : قوة التفكير ، وقوة الشهوة ، وقوة الغضب ، ونراه في ص ٦٤ منه يعرف الخلق الحسن بفعل ما يكره المرء ♦ ويستشهد بالحديث : (حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات) وبآلية (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم) ونراه يقول في ص ٤٧ « وأما حسن الخلق فبان يزيل جميع العادات السيئة التي عرف الشرع تفاصيلها ويجعلها بحيث يرفضها فيتجنبها كما يتجنب المستقذرات ، وأن يعود العادات الحسنة ويشتاق إليها فيؤثرها ويتنعم بها » ♦

وانما ذكرنا هذه التعاريف المبهمة ، التي لا تغنى شيئاً في التحديد ، لندل على ميل الغزالي الى الخطابات ، فقد لا تخلو منها صفحة من كتبه في الأخلاق ♦

ولكنه في ص ٥٦ ج ٣ احياء عرف الخلق تعريفاً دقيقاً فقال « الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة الى فكر وروية ، فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً ، سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً ، وان كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً » ثم ذكر أن الخلق ليس هو فعل الجميل أو القبيح ، ولا القدرة

على الجميل أو القبيح ، ولا التمييز بين الجميل والقبيح • وانما هو الهيئة التى بها تستعد النفس لأن يصدر عنها الامساك والبذل • ثم قال : فالخلق اذن هو عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة •

الفصل الأول

تربية الخلق

ليس للغزالي رأى محدود فى الفطرة البشرية : فهو تارة يراها خالصة تصلح لكل شيء ، وتقبل كل صورة ، وتارة يراها أميل الى الخير منها الى الشر • يدل على ذلك قوله « واذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل اليه وإلى القبائح ، فكيف لا تستلذ الحق لو ردت اليه ، والتزمت المواظبة عليه ؟ بل ميل النفس الى هذه الامور الشنيعة خارج عن الطبع ، يضاهي الميل الى آكل الطين ، فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة ، فأما ميله الى الحكمة وحب الله تعالى ، ومعرفته ، وعبادته ، فهو كالميل الى الطعام والشراب : فانه مقتضى طبع القلب ، لأنه أمر ربانى ، وميله الى مقتضيات الشهوة غريب عن ذاته ، وعارض على طبعه » ص ٦٣ ج ٣ •

وما نريد أن تناقش هذا الرأى بأكثر من أن نلفت النظر الى أن الميل الى مقتضيات الشهوة لا يبعد كثيرا عن الميل الى الطعام والشراب ، فهو جزء من الفطرة البشرية ، كما أن الميل الى الخير جزء من الفطرة البشرية ، وانما توجه النفس بمقتضى الظروف • فكما أن المرء لا يشتهي فى كل لحظة أن يأكل أو يشرب ، فهو كذلك لا يشتهي فى كل لحظة أن يكون خيرا أو شريرا ، وانما يظهر ميله الى الخير حين يوجد موجب الخير ، ويظهر ميله الى الشر حين يوجد موجب الشر • بل قد تقوى الموجبات حتى ترد الرشيد غويا أو ترد الغوى رشيدا • ولولا صلاح الفطرة للخير والشر لما احتجنا الى تربية الأخلاق •

كيف يربى الخلق

يرى الغزالي أن من الناس من ولد حسن الخلق بفطرته ، بحيث لا يحتاج الى تعليم ، ولا الى تأديب ، كعيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، عليهما السلام ، وكذا سائر الانبياء . ولا يبعد فيما يرى أن يكون في الطبع والفطرة ما قد ينال بالاكْتساب ، فرب صبي خلق صادق اللهجة سخيا جريئا .

وما أريد أن أناقش الغزالي في حكمه بأن الانبياء لا يحتاجون الى التعليم والتأديب ، ويكفى أن أذكر أن عصمة الانبياء - في غير نبليغ الرسالة - كانت مما اختلف فيه العلماء ، وأن في القرآن شواهد كثيرة على غفران ما تقدم وما تأخر للنبي صلى الله عليه وسلم من الذنوب .

والطريق الى تربية الخلق فيما يرى الغزالي هو التخلق : أي حمل النفس على الاعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب . فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود ، فعليه أن يتكلف فعل الجود : وهو بذل المال ، حتى يصير ذلك طبعاً له .

والغزالي يهتم كثيرا برياضة النفس على ما يرغب المرء فيه من مكارم الأخلاق ، ويرى كسب الخلق بسبب التخلق من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح ، ويقول في ذلك :

« كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتحرك الا على وفقها لا محالة . وكل فعل يجري على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر الى القلب . ويعرف ذلك بمثال : وهو ان من أراد أن يصير الحذق في الكتابة صفة نفسية له حتى يصير كاتباً بالطبع ، فلا طريق له الا أن يتعاطى بجارحة اليد ما يتعاطاه الكاتب الحاذق ويواظب عليه مدة طويلة ، يحاكي الخط الحسن ، فيتشبهه بالكاتب تكلفاً . ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصير صفة راسخة في نفسه ، فيصدر منه في

الآخر الخط الحسن طبعاً ، كما كان يصدر منه في الابتداء تكلفاً •
 فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسناً • ولكن الأول بتكلف ،
 إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب • ثم انخفض من القلب إلى الجارحة ،
 فصار يكتب الخط الحسن بالطبع • وكذلك من أراد أن يصير فقيه
 النفس ، فلا طريق له إلا أن يتعاطى أفعال الفقهاء ، وهو التكرار للفقهاء •
 حتى تنعطف منه على قلبه صفة الفقه ، فيصير فقيه النفس •
 ومن هنا كان الغزالي يرى أن الكثرة الواحدة لا توجب الشقاء
 المؤبد ، لأنها بدون التكرار لا تصبح صفة للنفس • ولا معنى للشقاء
 المؤبد إلا أن يصير إحدى الرذائل صفة نفسية لأحد الناس •

الفصل الثاني

أماكن تغيير الخلق

لهذا الفصل علاقة ظاهرة بالفصل الذي قبله ، فإن تربية الخلق
 معلقة على إزالة الخلق السيئ • ويرى الغزالي أن تغيير الخلق ممكن
 ويقول في ذلك تعليقا على قوله عليه السلام : « حسنوا أخلاقكم » لو لم
 يكن ممكناً لما أمر به ، ولو امتنع ذلك لبطلت الوصايا والمواظبات والترغيب
 والترهيب ، فإن الأفعال نتائج الأخلاق ، كما أن الهوى إلى أسفل نتيجة
 الثقل الطبيعي ، بل كيف ينكر تهذيب الإنسان مع استيلاء عقله ، وتغيير
 خلق البهائم ممكن إذ ينتقل الصيد من الوحش إلى التأنس ، والفرس
 من الجماع إلى السلاسة •

ويظهر أن الغزالي شهد من يرى أن الخلق كالخلق لا يمكن
 تغييره ، والا كان طمعاً في تغيير خلق الله • وقد ذكر في ذلك أن خلق الله
 قسمان : قسم لا فعل لنا فيه ، كالسماء والكواكب ، وقسم فيه قوة لقبول
 كمال بعده ، إذ وجد شرط التربية • وتربيته قد تتعلق بالاختيار ، فإن

النواة ليست بتفاح ولا نخل ، ولكنها قابلة بالقوة لأن تصير نخلا بالتربية ، وغير قابلة لأن تصير تفاحا ، وانما تصير نخلا اذ تعلق بها اختيار آدمي في تربيتها ويقول : « فلذلك لو أردنا أن نقلع بالكلية الغضب والشهوة من أنفسنا ونحن في هذا العالم عجزنا عنه ، ولكن لو أردنا قهرهما واسلاسهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه » .

أقسام الطبائع

وهو بعد ذلك يقسم الجبال الى سريعة القبول ، وبطيئة القبول ، باعتبار التقدم في الوجود ؛ ويقسم الناس في تفسير الخلق الى أربع مراتب - الأولى : الانسان الغفّل الذي لا يعرف الحق من الباطل والجميل من القبيح . وهو أقبل الأقسام للعلاج : فلا يحتاج الا الى مرشد والى باعث يحمله على الاتباع - الثانية : أن يكون قد عرف قبح القبيح ، ولكنه لم يتعود العمل الصالح . بل زين له سوء عمله ، يتعاطاه انقيادا لشهوته ، واعراضا عن صواب رأيه ، فأمره صعب من الأول ، اذ تضاعفت علته . فيلزم (١) قلع ما رسخ فيه من تعود الفساد (ب) وصرف النفس الى ضده - الثالثة : أن يعتقد أن القبيح حق وجميل . ويرى الغزالي أن هذا لا يرجى صلاحه الا على الندرة ، اذ تضاعفت عليه أسباب الضلال - الرابعة : أن يكون مع وقوع نشوئه على الاعتقاد الفاسد ، وتربيته على العمل به ، يرى فضله في كثرة الشر ، واستهلاك النفوس ، ويتباهى بفساده ، ويراه مما يرفع قدره . قال الغزالي : وهذا أصعب المراتب وفي مثله قيل : من التعذيب تهذيب الذئب ليتأدب وغسل الأسود لبييض . ثم قال . فالاول : من هؤلاء يقال له جاهل ، والثاني : جاهل وضال ، والثالث : جاهل وضال وفاسق ، والرابع : جاهل وضال وفاسق وشرير .

ولا يفوتنا أن نقرر أن الغزالي لا يريد من تغيير الخلق الا قهره واسلاسه ، وقد صرح بذلك في قوله :

« وظنت طائفة أن المفصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها ، وهيئات ! فان الشهوة خلقت لفائدة • وهى ضرورية فى الجبله ، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان ، ولو انقطعت شهوة الودع لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب ببدليه لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهدده وهلك • ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حب المال الذى يوصله الى الشهوة حتى يحمله ذلك على امساك المال • وليس المطلوب اماطة ذلك بالكلية ، بل المطلوب ردها الى الاعتدال الذى هو وسط بين الافراط والتفريط » •

نبيذ يعرف المرء عيوب نفسه

يرى الغزالي أن من كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه ، فاذا عرف العيوب أمكنه العلاج •

واذا كان أكثر الخلق جاهلين لعيوب أنفسهم ، حتى ان أحدهم ليرى القذى فى عين أخيه ، ولا يرى الجذع فى عين نفسه ، فقد وضع الغزالي أربعة طرق لمعرفة عيوب النفس •

الأول - أن يجلس المرء بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس مطلع على خفايا الآفات ، ويحكمه فى نفسه ، ويتبع اشارته فى مجاهدته •

الثانى - أن يطلب صديقا صدوقا بصيرا متدينا فينصبه رقيقا على نفسه ، ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كره من أخلاقه ، وأفعاله ، وعيوبه الباطنة والظاهرة ، نبهه اليه •

الثالث - أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه ، فان عين السخط تبدى المساوى • ولعل انتفاع الانسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مدهن يخفى عنه عيوبه •

الرابع - أن يخالط الناس ، فكل ما رآه مذموما عند الخلق اتهم

نفسه به • فان الطباع متقاربة في اتباع الهوى ، وما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله ، أو عن أعظم منه ، أو عن شئ منه • فليستفقد نفسه ويطهرها عن كل ما يذمه من غيره •

علامات حسن الخلق

يتحاكم الغزالي في هذا الباب الى القرآن ، اذ أن الله تعالى ذكر في كتابه صفات المؤمنين والمنافقين ، وهي بجملتها ثمرة حسن الخلق ، وسوء الخلق • وبعد ان سرد جملة من الايات قال : « فمن اشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وفقد جميعها علامة سوء الخلق ، ووجود بعضها دون بعض ، يدل على البعض دون البعض • فليشتغل بتحصيل ما فقده ، وحفظ ما وجده » ص ٧٤ ج ٣ •

والظاهر أنه لا يكفي دائما أن يتحاكم المرء الى القرآن ، فقد تكون هناك خلة واحدة تحتاج الى تحرير ، اذ لا يدري المرء أهو مخطئ في التخلق بها أم مصيب • وقد تنبه الغزالي الى هذه النقطة في غير هذا الباب ، وهو يرى ان المطلوب في علاج البخل مثلا هو « الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية البعد عن الطرفين » ويقول « فان أردت أن تعرف الوسط فانظر الى الفعل الذي يوجب الخلق المحظور ، فان كان أسهل عليك وألذ من الذي يضاده ، فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون امساك المال وجمعه ألذ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه ، فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل ، فزد في المواظبة على البذل • فان صار البذل على غير مستحق ألذ عندك وأخف عليك من الامساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع الى المواظبة على الامساك • فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلقك بتيسير الأفعال وتيسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك من الالتفاف الى المال ، فلا تميل

الى بذله ولا الى امساكه ، بل يصير عندك كالماء ، فلا تطلب فيه الا امساكه لحاجة محتاج ، أو بذله لحاجة محتاج . ولا يترجح عندك البذل على الامساك ^(١) » .

وفى هذا مغالبة للطبيعة البشرية ، وما أحسب خلق الكرم يتطلب أن يتساوى البذل والامساك ، وانما يحاول الغزالي أن يجعل الفضائل حركات فطرية للنفوس ، وهو أمل بعيد .

الفصل الثالث

الطريق الى تهذيب الأخلاق

يتخذ الغزالي البدن مثالا للنفس : فكما أن البدن ان كان صحيحا فشأن الطبيب تمهيد القانون لحفظ الصحة ، وان كان مريضا فشأنه جلب الصحة اليه ، فكذلك النفس : ان كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغى أن تسعى لحفظها . واكتساب زيادة صفاتها . وان كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغى أن تسعى لجلب ذلك اليها . وكما أن العلة المغيرة لا اعتدال البدن ، الموجبة للمرض لا تعالج الا بضدها : فان كانت من حرارة فبالبرودة ، وان كانت من برودة فبالحرارة ، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب ، علاجها بضدها : فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخي ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفا . وكما أنه لا بد من احتمال مرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الابدان المريضة ، فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب ، بل أولى ، لأن مرض البدن

(١) ج ٣ ص ٣٦٧ .

يخلص المرء منه بالموت بخلاف مرض القلب فإنه يدوم بعد الموت أبد الآباد (٩) وكما أن كل مبرد لا يصلح لعله سببها الحرارة إلا إذا كان على حد مخصوص ، ويختلف ذلك بالشدة والضعف ، والدوام وعدمه ، وبالكثرة وبالقلة ، ولا بد من معيار يعرف به مقدار النافع منه ، فإنه إن لم يحفظ معياره زاد الفساد ، فكذلك النقائص التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار . وكما أن معيار الدواء مأخوذ من معيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها ، أهى ضعيفة أم قوية ، فإذا عرف ذلك التفت الى أحوال البدن ، وأحوال الزمان ، وصنائه المريض ، وسنه ، وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها ، فكذلك الذى يطب نفوس المريدين ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف فى فن مخصوص ، وطريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم . وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، فكذلك المرشد لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم وأمات قلوبهم . بل ينبغي أن ينظر فى مرض المريء ، وفى حاله ، وسنه ، ومزاجه ، وما تحتمله نفسه من الرياضة ، وينبى على ذلك رياضته .

وهذه الطريقة تدل على بصر الغزالي بعلاج الأخلاق ، وتدل من جانب آخر على تقدم الطب فى ذاك الزمان (١) .

وقد فصل طرائق التهذيب باختلاف الطبائع ، ووضع بجانب كل رذيلة علاجها الخاص . وقد علمنا من ذلك أنهم كانوا يعالجون الكبر إذ ذاك بالسؤال . وهذا فيما أرى استشفاء من داء بداء ، فقد يولد السؤال أمراضا فى النفس تحتاج فى اقتلاعها الى مجاهدة وعناء ، ولكن الصوفية يبيحون ما لا يباح ! !

(١) انظر ص ٦٤ ، ٦٥ ج ٣ احياء . ص ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ من الميزان

الفصل الرابع

غاية الأخلاق

الخير هو ما تعتقد أنه خير ، والشر هو ما تعتقد أنه شر ؛ والسبيل الى هذه العقيدة هو وزن العمل بميزان العقل والشرع • ولكن ما هي الغاية من عمل الخير ؟ وما هو الغرض من تجنب الشر ؟

غاية الأخلاق - فيما يرى الغزالي - هي السعادة الأخروية وقد فصل هذا في الفصل الاول من « الميزان » ويقول في ص ١١٧ من هذا الكتاب : « ان السعادة الحقيقية هي الأخروية ، وما عداها سميت سعادة ، اما مجازا واما غلطا ، كالسعادة الدنيوية التي لا تعين على الآخرة • واما صدقا ، ولكن الاسم على الأخروية أصدق ، وذلك كل ما يوصل الى السعادة الأخروية ويعين عليها • فان الموصل الى الخير والسعادة ، قد يسمى خيرا وسعادة (٩ !) •

وهذا يدل على أن الغزالي ليست له غاية اجتماعية : فالذي يسعف مريضا ، أو ينيث ملهوبا ، أو يأسو جريحا ، أو يواسي فقيرا ، لا يهمه نفاء المريض ، ولا اغاثة الملهوف ، ولا براء الجريح ، ولا سد حاجة الفقير ، ما دامت نيته قد خلصت في عمله ، ووثق بجزاء الآخرة ! وكل سعادة ينتجها العمل الطيب في هذه الدنيا انما هي عنده سعادة مجازية ، وواجب المرء أن يفهمها كذلك • وله أن يعدها سعادة نسبية ، على معنى أن ما يوصل الى السعادة الأخروية قد يسمى خيرا وسعادة ! ! وقد نص في ص ١٣٦ من الميزان على أن من يتجنب الفحشاء محافظة على كرامته لا يسمى عفيفا ، لأنه لم يقصد بعفته وجه الله ، فكل عمله تجارة ، وترك حظ لحظ يماثله !!

مناقشة قصيرة

ونسأل الغزالي سؤالين اثنين :

أولاً - اذا أسعفت مريضاً وكان لا يهملك برؤه ، لأن سعادتك ليست نتيجة لمساعك في هذه الدنيا ، وانما يهملك أن تصح نيتك فتتاب في أخراك ، ألا تكون تاجراً في غايتك الأخلاقية ؟

ثانياً - اذا تركت الزنا توفيراً لكرامتك أو لصحتك ، كيف لا تكون عفيفاً ؟ ولماذا طلبت العفة ، ودعا إليها الشرع ؟

أليس ذلك. لأن فيها حفظاً للصحة ، وتوفيراً للكرامة ؟ واذا كنت تتخذ العقل مقياساً للخير والشر ، فخبّرني أيجد العقل ما يحكم به على ضرر الزنا وأنه شر أكثر من انه مود بالصحة ، ذاهب بالكرامة ؟

ونعود فنذكر أن الغزالي سخر ممن يرون السعادة الآخروية في نعيم الجنة ، وما فيها من الحور والولدان ، وان نطق بذلك الكتاب ، وراى أن سعادة الآخرة هي رضاء الله . أفلا يصح لنا قياساً على هذا أن نعد الطمع في السعادة الآخروية عند اغاثة الملهوف ، واسعاف الجريح ، ينافي ما تسمو اليه الأخلاق ، وأن واجب الرجل الخير أن يرى سعادته في سعادة من أغاثه وواساه ، لا أن يلقى جزاءه على ذلك في الآخرة ، فان لم تثمر أعماله في الأولى ؟

ولا يفوتنا أن نقرر أن فهم الغزالي للغاية الأخلاقية على هذا النحو جعله يخطيء في فهم كثير من أسرار الشريعة ، ففريضة الحج مثلاً يحسبها الغزالي نوعاً من الرياضة الروحية ، فتراه يملأ باب الحج من كتاب الاحياء بالأدعية والأوراد ، حتى لتجد لكل خطوة يخطوها الحاج دعاء خاصاً بها ، وحتى لتحسبه غفل عن قوله تعالى (ليشهدوا منافع لهم) اذ تراهم يستكثر أن يحج المرء مثلاً ليتنفع بموسم التجارة !

ونظرة صغيرة الى حرص الشريعة على وحدة المسلمين ، ترينا السر في فرض الحج على من استطاع اليه سبيلا ؛ فالتجارة التي تنبه اليها الغزالي ثم استنكرها ، ليست شيئا بجانب ما يستفيد منه المسلمون حين يتلاقى حاجتهم ، وينفض كل منهم أخبار قومه ليعرفوا ما يحيط بهم من المشاكل الدولية ، وليستعدوا لدرء ما قد يحيط ببعض ثغورهم من خطر . ولكن الغزالي يرى العمل كله في العبادة المجردة ، ويرى الجزاء أيضا عبادة مجردة ، وكثيرا ما نص الصوفية على أن لذائد الجنة ليست مادية ، ولكنها تسبيح وتقديس وتهليل !؟

الفصل الخامس

هل تورث الأخلاق

قرر الغزالي حين تكلم في التربية أن قلب الطفل « جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة » وهو قابل لكل ما ينقش عليه ، ومائل الى كل ما يمال به اليه . فان عُوِّد الخير وعلمه نشأ عليه ، وسعد في الدنيا والآخرة . وان عود الشر وأهمل اهمال البهائم شقى وهلك ، ص ٧٧ ج ٣ .

وهذا يدل على أن الغزالي يرى أن الفطرة الانسانية قابلة لكل شيء ، وأنه ليس لها قبل التربية أى لون . فالخير اذن يكتسب بالتربية . والشر يكتسب بالتربية . وليس للانسان بفطرته ميل خاص : لا الى الشر ، ولا الى الخير ، وانما يسعد أو يشقى بما يقدم اليه أبواه ومعلموه .

ويؤيد هذا قوله في تهذيب الأخلاق « وكما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال ، وانما تعثرى المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد معتدلا صحيح الفطرة ، وانما أبواه

يهوّدانه ، أو ينصّرانه ، أو يمجّسانه : أى بالاعتقاد والتعليم تكتسب الرذائل • وكما أن البدن فى الابتداء لا يخلق كاملا ، وانما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية والغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ، وانما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم ، ص ٦٤ ج ٣ •

ولكننا نجد الغزالي يقرر فى ص ١٢٧ من « الميزان » أن النسب الدينى أمانة الديانة وحسن الخلق ، لأن العرق نزاع • ونجده كذلك يحض فى تربية الطفل على أن تكون الموضع امرأة سالحة متدينة تأكل الحلال « فان اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه ، فاذا وقع عليه نشوء الصبى انعجت طبيئته من الخبث ، فيميل طبعه الى ما يناسب الخباثت » ص ٧٧ ج ٣ •

وهذا صريح فى الحكم بوراثة الأخلاق ، اذ لا يمكن أن تعتبر الرضاة نوعا من الأدب والتدريب ، اذ كانت تسبق الادراك والتمييز • يضاف الى هذا أنه يقرر أن الطفل قد يشاهد عليه الميل الى الحياء ، وأنه يجب استغلال هذه الغريزة فيه • ومن الواضح أنه لو كانت الفطرة جميعا خالصة من كل الميول ، لكان واجبا أن يغرس الحياء فى الطفل بالتربية والرياضة • لا أن ينمى ، اذ لا ينمى غير الموجود •

ومما تقدم نرى للغزالي رأيين مختلفين فى وراثة الأخلاق • فهو حين يقرر أن قلب الطفل جوهرة ساذجة خالية من كل نقش ، وقابلة لكل صورة ، يحكم بأن الأخلاق لا تورث • وحين يدعو الى أن لا توضع الطفل امرأة غير متدينة يحكم بأنها تورث ؟ فهل يمكن رفع ما بين هذين الأمرين الأمرين من ظاهر الخلاف ؟

تحرير هذا البحث

الواقع أن الغزالي لم يعن بهذا البحث ، لذلك كان كلامه فيه متناقضا ، وغير محدود • ولو أنه عنى به عناية خاصة لين لنا أن الأخلاق

تورث ، وأن هذه الوراثة لا تمنع من قبول الطفل لكل صورة • فالفطرة البشرية صالحة لكل غرس ، لأن الأخلاق التي يرثها الطفل من أبويه تولد معه ضعيفة ميسورة الاقتلاع ، بل الكهول يقدرّون على استئصال رذائلهم بالرياضة والمجاهدة ، والطباع التي يرثها المرء من أبويه لاتعاوده الا عند خمود مزاياء التي كسبها بنصح أساتذته ، أو تأثير بيئة صالحة ساقته إليها الأقدار •

اذن لا تناقض في كلام الغزالي الا من حيث الظاهر • فهو يقول بوراثة الأخلاق في ثنايا آرائه المبشرة هنا وهناك ، وان كان يجعل للتربية السلطان الأكبر في تكوين النفوس •

الباب السابع في الفضائل

تتكلم في هذا الباب عن تحديد الفضيلة ، وبيان أمهات الفضائل ومالها من الفروع ، ثم نذكر طائفة من الفضائل التي عنى بدرسها الغزالي : كصدق ، والصبر ، والتوكل ، والخمول ، وما الى ذلك مما تدور عليه حياة الأفراد ، وينبنى عليه الاجتماع ، ليرى القارىء ما يسمو اليه في تصور المثل الاعلى للحياة .

تحديد الفضيلة

لا يفرق الغزالي بين كلمة فضيلة ، وكلمة خلق ، فهما عنده عبارة عن هيئة النفس ، وصورتها الباطنة .

وأساس الفضيلة فيما يرى يرجع بعضه الى ما أخذ عن أرسطو وبعضه الى ماأخذ عن أفلاطون . فهو يأخذ عن أرسطو نظرية (التوسط) التي يسميها الاعتدال ، فقوة الغضب مثلا ان مالت عن الاعتدال ، الى طرف الزيادة سميت تهورا ؛ وان مالت الى الضعف سميت جبنا ، فأما ان ظلت وسطا بين الزيادة والنقصان فهي الشجاعة . فالمحمود هو الوسط ، وهو الفضيلة ، والطرفان رذيلتان ، كما يقول .

ولا يجمد الغزالي على هذه النظرية حتى يعترض عليه بأن من الفضائل ما لا وسط له ، بل يقرر أن العدل ليس له طرفان : زيادة ونقص ، بل له ضد واحد ، ومقابل واحد : هو الجور .

ويأخذ عن أفلاطون نظرية المماثلة ، أى مشابهة الله ، فإن الله فيما يرى أفلاطون : هو الوحدة التى تجتمع فيها وتتصالح جميع كمالات المخلوقات • والرجل الفاضل عند أفلاطون هو الذى ينظر الى الله بلا انقطاع كما ينظر الفنان الى الأنموذج • والغزالي يقرر أن المرء يقرب من الله بقدر ما يقرب من رسول الله ، ومعنى ذلك أن الرسول جمع مكارم الأخلاق ، وقد حضنا على أن نتخلق بأخلاق الله ، ما عدا الكبرياء • فمشابهة الرسول واحتذاؤه عند الغزالي تماثل تماما مشابهة الله عند أفلاطون •

وأخذ أيضا عن أفلاطون نظرية التوافق L'harmonie ويسميتها العدل • والتوافق عند أفلاطون هو تناسب القوى والملكات لتكمل فى المرء جوانبه الخلقية • واليك ما يقول الغزالي فيما يشابه هذا المعنى « وكما أن حسن الصورة الظاهرة لا يتم مطلقا بحسن العينين دون الأنف والفم والخذ ، بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ، فكذلك فى الباطن أربعة أركان ، لا بد من الحسن فى جميعها حتى يتم حسن الخلق ، فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق ، وهى : قوة العلم ، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة • وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث • أما قوة العلم فحسنها وصلاحها فى أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب فى الأقوال ، وبين الحق والباطل فى الاعتقادات ، وبين الجميل والقيبح فى الأفعال • فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة ، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة • وأما قوة الغضب فحسنها فى أن يصير انقباضها وانبساطها فى حد ما تقتضيه الحكمة • وكذلك الشهوة حسننها وصلاحها فى أن تكون تحت اشارة الحكمة ، أعنى اشارة العقل والشرع » •

ويجب أن نتنبه الى هذه الكلمة الأخيرة ، وهى (اشارة العقل والشرع) فإن الغزالي يدمج فيها التوافق والمماثلة معا ؛ أما المماثلة فهى

فى لفظ الشرع ، وقد وضع لهذا أخلاق الرسول مسئلة فى الفران •
وأما التوافق فهو فى لفظ العقل ، اذ يرجع كل الملكات الى طاعته •
وانظر قوله « فالعقل مثاله مثال الناصح المشير وقوة العدل هى القدرة ،
ومثاله مثال المنفذ الممضى • والغضب هو الذى تنفذ فيه الاشارة ، ومثاله
مثال كلب الصيد فانه يحتاج الى أن يؤدب حتى يكون استرساله وتوقفه
بحسب الاشارة »

والأمر كذلك فى قوة العلم وقوة الشهوة • وقد نص فى «الميزان»
على أن العدل عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب واستشهد
بالقول المأثور : بالعدل قامت الأرض والسموات • وهذا الترتيب الواجب
خاضع للعقل بالطبع ، وهذا ما يراد بنظرية التوافق •

أمهات الفضائل

أصول الفضائل فيما يرى الغزالي أربعة : الحكمة والشجاعة والعفة
والعدل • وقد نص على أنه يعنى بالحكمة حالة للنفس بها يدرك الصواب
من الخطأ فى جميع الأحوال الاختيارية • ويعنى بالعدل حالة للنفس وقوة
بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة • ويعنى
بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل فى اقدامها واحجامها • ويعنى
بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع •

ولهذه الأصول فروع ، كما يرى الغزالي ، فمن اعتدال قوة العقل
يحصل حسن التدبير ، وجودة الذهن ، وثقابة الرأى ، واصابة الظن ،
والتفطن لدقائق الأعمال ، وخفايا آفات النفوس •

وأما خلق الشجاعة فيصدر عنه : الكرم ، والنجدة والشهامة ،
وكسر النفس ، والاحتمال ، والحلم ، والثبات ، وكظم الغيظ ، والتودد •
وأما خلق العفة فيصدر عنه : السخاء ، والحياء ، والصبر ،

والمسامحة ، والقناعة ، والورع ، واللطافة ، والمساعدة ، والظرف ، وقلة
الطمع .

وقد نص في « الميزان » على أن الحكمة فضيلة القوة العقلية ،
والشجاعة فضيلة القوة الغضبية ، والعفة فضيلة القوة الشهوانية ، والعدل
عبارة عن وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب (فليس جزءاً من
الفضائل ، بل هو عبارة عن جملة الفضائل ^(١)) .

وقد لحظ الغزالي أن في هذه الفروع شيئاً من الغموض ، فكتب
في شرحها ثلاثة فصول مطولة في الميزان ، وبين معها كذلك ما ينشأ من
الافراط والتفريط ، من أنواع الرذائل ، وسرّجها إليها في غير هذا
الباب .

الفضائل السلبية

في مقدورنا أن نقسم الفضائل الى ايجابية وسلبية : فالأمل فضيلة
ايجابية ، لأنه يحمل صاحبه على العمل في سبيل الحياة . والزهد فضيلة
سلبية ، لأنه يرضى صاحبه بما قد يكون عليه من سوء الحال .

وبعد أن نفهم هذا ننظر في الفضائل التي عني بدرسها الغزالي .
فنجدها في الأغلب فضائل سلبية : من ذلك فضيلة الفقر ، وفضيلة الزهد ،
وفضيلة التوكل ، وفضيلة الخوف ، وفضيلة الخمول ، وفضيلة التواضع ،
وفضيلة الجوع .

ولم يعن الغزالي بشرح الفضائل الايجابية : كالشجاعة ، والاقدام
والحرص ، وما الى ذلك مما يحمل المرء على حفظ ما يملك ، والسعي
لنيل ما لا يجد . فانه لا يكفي أن يسلم الرجل من الآفات النفسية ، بل
يجب أن يزود بكل مقومات الحياة . وخير للمرء أن يوصم برذائل القوة

(١) ص ٩٠

من أن يتحلى بفضائل الضعف • فإن الضعف شر كله ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون •

الفضائل الفردية

ويمكننا أن نقسم الفضائل الى فردية واجتماعية • فالقناعة فضيلة فردية ، لأنها تخص صاحبها بالذات • والأمانة فضيلة اجتماعية لأن المرء يحتاج اليها حين يعامل الناس •

والغزالي يعنى فى الأغلب بالفضائل الفردية ، حتى لتحسبه يكتب مؤلفاته لافراد يعيشون فى عزلة وانفراد • فلو أنك أردت أن تدخل فى عالم السكون ، لوجدت لدى الغزالي من آداب الوحدة والعزلة ما يقنك ويرضيك • ولكنك لو أردت أن تدخل فى عالم السياسة ، لما وجدت لديه فكرة واحدة يمكن أن تكون نبراسا يهتدى به الساسة من الوزراء والسفراء •

درجات الأخلاق

وبعد معرفة أمهات الفضائل وما لها من الفروع ، يخطر بالبال هذا السؤال : هل يرى الغزالي أن فى مقدور المرء أن يصل الى أعلى درجات الأخلاق ؟

ونجيب بأنه يرى ذلك فى مقدور المرء ، وانظر قوله :
« وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكا مطاعا يرجع الخلق كلهم اليه ، ويقتدون به فى جميع الأفعال •
ومن انفك عن هذه الجملة كلها واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد » •

والدرجة العليا عنده هى درجة النبوة ، والصوفية فيما يرى يقربون من هذه الدرجة ، واليك ما يقول عنهم فى كتابه « المنقذ من الضلال » :

« لو جمعوا عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على اسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرتهم وأخلاقهم ، ويبدؤوا بما هو خير منه ، لم يجدوا اليه سبيلا : فان جميع حرائقهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به » ♦

واظن أننا هدمنا هذا الحكم من أساسه بما أسلفنا من نقد أحوال الصوفية ، فان ما استحسّن الغزالي من احوالهم لا يمكن أن يكون مقتبسا من نور مشكاة النبوة ، وهل كانت النبوة يا هذا وساوس واضاليل ؟ تعالت النبوة عما تصفون !

اين مقياس العقل والشرع ؟ هايتيه ، هايتيه : فهو وحده فصل الخطاب !

الفصل الأول

فضيلة الصدق

ابتدأ الغزالي الكلام على هذه الفضيلة بقوله تعالى (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) وبقوله عليه السلام « ان الصدق يهدي الى البر والبر يهدي الى الجنة ، وأن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا » ♦ وان الكذب يهدي الى الفجور ، والفجور يهدي الى النار ، وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا » ثم قال : ويكفى في فضيلة الصدق أن الله تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال : « واذكر في الكتاب ابراهيم انه كان صديقا نبيا » وقال : « واذكر في الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا » ♦ وقال : « واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقا نبيا » ♦

مراتب الصدق

للصدق فيما يرى الغزالي ستة معان : صدق في القول ، وصدق في النية والارادة ، وصدق في العزم ، وصدق في الوفاء بالعزم ، وصدق في العمل ، وصدق في تحقيق مقامات الدين . فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق ، ومن صدق في شيء فهو صادق بالاضافة الى ما فيه صدقه .

الأول - صدق القول . وهو أشهر أنواع الصدق ولا يجوز العدول عنه الا لمصلحة . كتأديب الصبيان والنساء ومن يجري مجراهم . وفي الحذر من الظلمة ، وفي قتال الأعداء ، والاحتراز من اطلاعهم على أسرار الملك . قال الغزالي : « فمن اضطر الى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه لله فيما يأمره الحق به ، ويقتضيه الدين . فاذا نطق به فهو صادق ، وان كان كلامه مفهما غير ما هو عليه . لأن الصدق ما أريد لذاته ، بل للدلالة على الحق والدعاء اليه . فلا ينظر الى صورته ، بل الى معناه . نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل الى المعارض ما وجد اليها سبيلا . فقد كان رسول الله اذا توجه الى سفر ورئى بغيره . كيلا ينتهي الخبر الى الأعداء فيقصد . وليس هذا من الكذب في شيء . قال رسول الله : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا ونمى خيرا » . ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع : « من أصلح بين اثنين . ومن كان له زوجتان . ومن كان في مصالح الحرب . والصدق ههنا يتحول الى النية ، فلا يراعى فيه الا صدق النية واردة الخير » .

الثاني - صدق النية والارادة ، ويرجع ذلك الى الاخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات الا الله .

الثالث - صدق العزم . فان الانسان قد يقدم العزم على العمل ، فيقول : ان رزقني الله مالا تصدقت بجميعه ، أو بشطره ، فهذه العزيمة قد يصادفها في نفسه وهي جازمة صادقة ، وقد يكون في عزمه نوع ميل

وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة ، فالصدق هنا عبارة عن التمام والقوة •

الرابع - صدق الوفاء بالعزم ، فان النفس قد تسخو بالعزم في الحال ، اذ لا مشقة في الوعد والعزم ، فاذا حقت الحقائق ، وحصل التمكن ، وهاجت الشهوات ، انحلت العزيمة ، ولم يحصل الوفاء بالعزم ، وهذا يضاد الصدق فيه •

الخامس - صدق الأعمال ، وهو أن تكون أعمال المرء الظاهرة ، صورة لحالته الباطنة • بخلاف أعمال الرياء •

السادس - الصدق في مقامات الدين ، فالصدق في الخوف والرجاء والزهد والرصا والتوكل والحب ، لان لامثال هذه الامور مبادئ يطلق بظهورها الاسم ، ثم لها حقيق ، والصادق من نال تلك الحقائق ••• وفي هذا المعنى شيء من الغموض •

الفصل الثاني

فضيلة الصبر

يرى سقراط أن الفضيلة أساسها العلم • فمتى علم الانسان الخير فعله ، ومتى عرف الشر تركه • ويقرب رأى الغزالي من هذا في أساس الصبر ، الا أنه يشترط أن تصل المعرفة الى اليقين حتى تثمر الصبر واليك قوله في هذا المعنى : « ترك الأعمال المشتتة عمل يثمره حال يسمى الصبر ، وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة • وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة • فاذا قوى يقينه ، أعنى المعرفة التي تسمى ايماناً ، وهو اليقين بكون الشهوة عدواً قاطعاً لطريق الله تعالى قوى

باعث الدين، واذا قوى ثباته تمت الافعال على خلاف ماتقاضاه الشهوة
وقال في موطن اخر : « والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين اذ اليقين
يعرفه ان المعصية ضارة ، والطاعة نافعة ، ولا يمكن ترك المعصية ،
والمواظبة على الطاعة الا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين في فهر باعث
الهوى ^(١) » ويذكر اميل بوراك في كتابه :

Cours Élémentaires de Philosophie

ص ٣٤٣ ان العلم لا يكفي أساسا للفضيلة + فمعرفة الواجب لا تكفي
للقيام به + بل لا بد من حبه وارادته ارادة حرة ثابتة + وهذا التقييد
يساوى ما اشترط الغزالي من اليقين ، لان المرء متى يقن نفع شيء احبه ،
أو ناد يحبه + ويرى الدور منصور فهمي والاستاذ عبده خير الدين
ان المعرفة التي يراها سقراط اساس الفضيلة لا بد ان تدون المعرفة
الجازمه التي تورث الارادة ثم التنفيذ + واذن فلا اعتراض على سقراط .

أسماء الصبر

ويقرر الغزالي أن الصبر تختلف أسماؤه باختلاف ما يصبر المرء
عنه ، فهو جماع كثير من الفضائل ، أو هو نصف الايمان + فان كان
صبرا ، عن شهوة البطن والفرج سمي عفة + وان كان في احتمال مكروه
سمي صبرا ، وضده الجزع + وان كان في احتمال الغنى سمي ضبط
النفوس ، وضده البطر + وان كان في الحرب سمي شجاعة ، وضده الجبن +
وان كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلما ، وضده التذمر + وان كان
في نائبة مضجرة سمي سعة الصدر وضده الضجر + وان كان في اخفاء
كلام سمي كتمان السر + وان كان عن فضول العيش سمي زهدا ، وضده
الحرص + وان كان صبرا على قدر يسير من الخطوط سمي قناعة ، وضده
الشراهة +

(١) ج ٦٧ ٤

(٢) ج ٧٠ ٤

درجات الصابرين

وللإنسان بالنسبة للصبر ثلاثة أحوال :

الأولى - أن يقهر داعى الهوى ، فلا تبقى له قوة المنازعة ، ويتوصل الى

• هذه الحال بدوام الصبر .

الثانية - أن تغلب دواعى الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين ،

وهى أسوأ الأحوال •

الثالثة - أن تكون الحرب سجلاً بين الهدى والضلال •

حكم الصبر

ويقسم الصبر باعتبار حكمه الى فرض ونفل ومكروه ومحرم •
فالصبر عن المحظورات فرض ، وعن المروهاة نفل ، والصبر على
الاذى المحظور محظور ، كمن تقطع يده أو يد ولده فيسكت ويصبر ،
وكمن يقصد حرime بشهوة محظورة فتتهيج غيرة ، فيصبر عن اظهار
الغيرة ، ويسكت على ما يجرى على أهله • فهذا الصبر محرم • والصبر
المكروه هو الصبر على اذى يناله بجهة مكروهة فى الشرع ، كنظر
الأجنبى الى امرأته •

ضرورة الصبر

ويرى الغزالى أن المرء محتاج الى الصبر فى كل حال : فهو يحتاج
اليه فى السراء ، كما يحتاج اليه فى الضراء • بل هو اليه فى السراء
أحوج ، فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية • والصبر هنا يكون
بأن يراعى المرء حقوق الله فى ماله بالانفاق ، وفى بدنه ببذل المعونة
للخلق ، وفى لسانه ببذل الصدق •

والطاعة تحتاج الى صبر ، لأن النفس بطبعها تنفرد من العبودية •

وللصبر على الطاعة ثلاث أحوال : الأولى قبل الطاعة ، وذلك تصحيح النية والاخلاص ، والصبر على شوائب الرياء ، والعزم على الاخلاص والوفاء . والثانية حالة العمل ، كى لا يفتر قبل الفراغ منه . والثالثة بعد انتهائه اذ يحتاج الى الصبر عن افشائه والتظاهر به ، والنظر اليه بعين العجب .

ويحتاج المرء الى الصبر عن المعاصى ، وعلى الأخص التى صارت مألوفاً بالعادة ، اذن تنضاف العادة الى الشهوة . ثم ان كانت المعصية مما يسهل فعله كان الصبر عنها أثقل على النفس ، كالصبر عن معاصى اللسان من الغيبة ، والكذب ، والمراء ، والثناء على النفس تعريضا وتصريحا ، والمنزح المؤذى للقلوب .

والصبر على أذى الناس فضيلة ، وأعظم منه الصبر على أنواع البلاء : كموت الاعزة ، وهلاك الأموال ، وزوال الصحة .

ويرى الغزالى أن توجع القلب ، وبكاء العين ، لا ينافى الصبر ، لأن ذلك مقتضى البشرية ، ولا يفارق الانسان الى الموت .

والذى كفى جميع الشهوات واعتزل الناس ، لا يستغنى عن الصبر على العزلة والانفراد ، ويريد الغزالى بهذا أن يؤكد احتياج المرء الى الصبر فى جميع الأحوال والأفعال .

تحصيل الصبر

ويمكن تحصيل الصبر باضعاف باعث الشهوة ، وتقوية باعث الدين . ويضعف باعث الشهوة بتقليل مادته من حيث النوع والكم ، أو قطع أسبابه ، أو تسلية النفس بمباح من جنس ما يشتهيه . ويقوى باعث الدين بأمرين : الأول أطماعه فى فوائد المجاهدة بالتفكير فى الاخبار الواردة عن الصبر وعواقبه . والثانى أن يعود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى حتى يمرن على جهاده ومقاومته .

الفصل الثالث

فضيلة الخمول

الغزالي يسمي الخمول فضيلة ، ويخيل الى أنه لا فضل فيه !! ولكن تسمية الغزالي هذه تدلنا عن شيء خاص يوضح رأيه في الأخلاق؛ ذلك أنه حين دعا الى الخمول، لم يدع الى التجرد من الخصائص الذاتية التي توجب ذبوع الشهرة وبعد الصيت ؛ وقد خص الشهرة المذمومة بما يأتي من طريق التكلف . وهو لا ينكر أن يشتهر المرء بعمله في غير جلبة ولا ضوضاء .

وقد نبه بلطف الى أن حسن السمعة قد يفسد المعلمين بنوع خاص، فقد يعود المعلم على كثرة الطلبة ، فيفتر نشاطه حين يقلون . وفي هذا المعنى يذكر عن ابي العالية أنه كان اذا جلس اليه أكثر من ثلاثة قام . ولم ينس الغزالي أن التجمهر حول الأمراء فتنة لهم ، وذلة لتابعيهم ، فذدر في هذا المعنى كلمة جامعة لعمر بن الخطاب .

ويقول الغزالي : « فان قلت فأى شهرة تزيد على شهرة الأنبياء والخلفاء الراشدين وأئمة العلماء ، فكيف فاتهم فضيلة الخمول ؟ فاعلم أن المذموم طلب الشهرة ، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم . نعم فيه فتنة على الضعفاء ، دون الأقوياء، وهم كالغريق الضعيف اذا كان معه جماعة من الغرقى فالأولى به أن لا يعرفه أحد منهم ، فانهم يتعلقون به فيضعف عنهم ، فيهلك معهم .

وأما القوى فالأولى أن يعرفه الغرقى ليتعلقوا به فيحييهم ويثاب على ذلك » .

فالرجل الخير فيما يرى الغزالي هو الذي لا يعرف غير الواجب ولا يهمه أقبل الناس عليه ، أم أعرضوا عنه ، لأنه بالواجب مشغول .

الفصل الرابع

فضيلة التوكل

كتب الغزالي عن التوكل أربعاً وخمسين صفحة في الاحياء وثلاث عشرة صفحة في كتاب الاربعين ، وسبعاً وعشرين صفحة في منهاج العابدين . وهو يبالغ في المنهاج أكثر مما يفعل في الأربعين والاحياء ، فان كلامه في الكتابين الأخيرين واحد ، وان اختلف في الايجاز والاطناب ، وكثيراً ما يحيل في الأربعين على الاحياء .

وأول ما نلاحظه أن الغزالي اهتم بهذه الفضيلة ، حتى احتاج الى أن يعتذر عن تطويله في كتاب المنهاج ، اذ كان التطويل يخالف شرط ذلك الكتاب . وهذا الاهتمام نفسه يوضح لنا جانباً من أهم الجوانب في فهمه للحياة .

ونقرر منذ الآن أن ما كتبه عن التوكل صريح في الدعوة الى الرهينة ، وقطع العلائق مع الناس ، والتدرج على احتمال الظمأ والجوع ، والاقتناع بأن الموت من جملة الأرزاق !

ونحن نعلم أن العلماء يجب أن يضربوا الأمثال بأنفسهم للناس كما فعل عمر حين خرج بعد الخلافة يتجر في الأسواق ، ولكن الغزالي يقول « فالاهتمام » بالرزق قبيح بذوى الدين ، وهو بالعلماء اقبح ، لان شرطهم القناعة . والعالم القانع ياتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة ان كانوا

(١) ناقشني الأستاذ محمد بك جاد المولى يوم الامتحان فيما اخذته على الغزالي من تقبيحه الاهتمام بطلب الرزق ، وهو يرى ان «الاهتمام» هو القبيح ، فاما طلب الرزق فلا قبح فيه ولكن يلاحظ أن الغزالي قابل الاهتمام بالقناعة ، والقناعة في طلب الرزق ليست فضيلة ، بل الفضيلة هي الاهتمام بالرزق . ولا زلت ارى انه لامعنى لان يكون الاهتمام بالرزق قبيحاً بذوى الدين حتى يكون بالعلماء اقبح . ولكن عللر الغزالي انه ينظر الى هذه المسألة نظرة صوفية كما قال فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار .

معه ، الا اذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه ، فذلك له وجه لائق العالم العامل الذي سلوكه بظاهر العلم والعمل ، ولم يكن له سير بالباطن ، فان الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن ، فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب الى الله تعالى بما يعطيه أولى ، فانه تفرغ لله عز وجل ، واعانة للمعطى على نيل الثواب « ص ٢٨٦ ج ٤

ولو أنه دعا الحكومات الى الأخذ بيد العلماء ، واغنائهم عن السعي الى الرزق لتحصّر جهودهم في نشر العلم ، لكان له قسط من الصواب . أما زعمه أن الكسب يمنع من السير بالفكر الباطن ، وأن الأولى للعالم أن يكتفي بما يعطيه الناس ليعينهم على نيل الثواب ، فهو رأى يهوى بصاحبه الى الحضيض ، ولا يتناسب مع مكانة العلماء .

كراهة السؤال

ومع أن الغزالي يبيح للعالم السؤال ليعين المعطى على نيل الثواب ، فانا نجد في مكان آخر يقرر أن السؤال حرام في الأصل وانما يباح لضرورة ، أو حاجة قريبة من الضرورة ، لأن في السؤال اظهار الشكوى من الله باظهار الفقر ، ولأن السائل يذل نفسه بسؤاله ، وليس للمؤمن أن يذل نفسه لغير الله ، ولأنه يؤذى المستؤل : فقد لا تسمح نفسه بالذل عن طيب قلب . فان بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ .

ويمكن الحكم بأن الغزالي يحتاط أبلغ احتياط في اباحة السؤال . ولكن يبقى انه من اهانة العلم والدين أن يقبل المرء بكليته على العبادة أملا في أن يطعمه سواء ، فانه لا يعقل أن تكون نوافل العبادات مما يترك

فى سبيله طلب المعاش ، حتى يباح لأجلها السؤال^(١) .

حكم الكسب

والغزالى مع هذا لا يرى الكسب منافيا للتوكل فى كل حال ، فمن الخطأ فيما يرى ان « يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالقلب ، والسقوط على الارض كالخرقة الملقاة ، وكالدحم على الوضغ ، وهذا ظن الجاهل ، فان ذلك حرام فى الشرع ، والشرع قد أننى على المتوكلين ، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين ؟ » وقد بين أن الانسان فى سعيه الى مقاصده اما أن يكون جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب ، أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار ، أو لدفع ضرر لم ينزل به كدفع الصائل والسارق ، أو لازالة ضرر قد نزل به . كالتداوى من المرض .

والنافع باعتبار الأسباب التى يجلب بها ثلاث درجات : مقطوع به . ومظنون ظناً يوثق به ، وموهوم وهما لا تثق النفس به ثقة تامة ، ولا تطمئن اليه .

والأولى كالأسباب التى ارتبطت بها المسيبات بتقدير الله ومشيتته ارتباطاً مطرداً لا يختلف ، كمن يرى الطعام موضوعاً بين يديه وهو

(١) قامت ضجة يوم الامتحان بسبب هذا الحكم ، وأنكر فضيلة الاستاذ الشيخ عبد المجيد اللبان أن يكون الغزالى قال شيئاً من ذلك . وهذا يدل على أن الفطرة الخالصة تستنكر السؤال .

وقد كتب فضيلة الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار بهامش النسخة التى كانت عنده ما يأتى : كانت قدم المعري أرسخ فى الزهد من قدم الغزالى . فقد كان متحققاً بالزهد عملاً واشتهر ذلك عنه اشتهاً لاشبهه فيه . وقد قال :

الأمر لله قد أصبحت فى دعة أرضى القليل ولا أهتم للقوت
وشاهد خالقي أن الصلاة له أعز عندي من درى وياقوتي

ومع هذا فراهيه فى الزهد خير من رأى الغزالى ، لأنه كان مع اعجابه بالقناعة والزهد يعيب على القانع الزاهد أن يكون عيشه من فضلات أهل اليسار . ويقول :

ويعجبني دأب الذين ترهبوا سوى أكلهم كد النفوس الشحائح

جائع • ثم لا يمد اليه يده ، لانه يرى السعى الى تناوله ومضغه تفويتا للتوكل ، وهذا فيما يرى الغزالي جنون « فانك ان انتظرت ان يخلق الله فيك شبعاً دون الخبز ، او يخلق في الخبز حركة اليك ، او يسخر ملكاً ليمضغه لك ويوصله الى معدتك ، فقد جهلت سنة الله • وكذلك لو لم تزرع الارض وطمعت في أن يخلق الله نباتاً من غير بذر ، أو تلد زوجتك من غير وفاق ، فكل ذلك جنون » •

والتوكل في هذا المقام - كما نص الغزالي - لا يكون بالعمل ، بل بالعلم ، ومعنى ذلك انه لا يجوز لك ترك الاسباب ، وانما تعلم ان الله هو مسبب الاسباب •

والثانية الاسباب التي ليست متيقنة ، ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها ، وان احتمال حصولها دونها بعيداً ، فمن يترن الا مصار والقوافل ، ويسافر في البوادي التي ينذر ان يطرفها الناس ؛ ويكون سفره من غير زاد ، فهو ليس شرطاً في التوكل ، بل استصحاب الزاد سنة الاولين ، ولا يزول التوكل به •

وقد أسرف الغزالي حين تحدث عن هذا الموقف في المنهاج ، وانظر ماذا يقول : « فان قلت : فهل تدخل البادية بلا زاد ؟ فاقول : ان كان لك قوة قلب بالله تعالى وثقة بالغة بوعد الله سبحانه وتعالى ، فادخل ، والا كن كالعوام بعلائقهم » ص ٨٢ •

ولو أننا رجعنا الى ما وضعه من آداب المسافر لعلنا أنه احتياط هناك ، فحث المسافر على أن يأخذ حاجته من الزاد ، ثم أوصاه بان يأخذ قدراً يوسع به على رفقاته ، فكيف يصبح المسافر بزاده في البادية من العوام ؟ ومن عسى أن يكون هؤلاء العوام المؤدبون ؟

وقد توقع الغزالي أن يسأل عن حمل رسول الله وأصحابه للزاد ، ولكنه تفضل فأجاب بأن ذلك مباح غير حرام ! ثم توقع أن يسأل : هل

ترك الزاد أولى أم أخذه لمن قوى يقينه ؟ وأجاب فى المنهاج بأن الترك أفضل ، وأنا لا أعلم لهذا الفضل أساسا غير التسك الذى ينكره العقل ، ويأباه الدين !

ولم يفت الغزالي أن يذكر أن هذه المجازفة قد تكون القاء بالأيدى الى التهلكة ، فأجاب بأن شرطها أولا رياضة النفس حتى تحتل الجوع أسبوعا أو ما يقاربه ، وثانيا أن يكون المتوكل بحيث يقوى على التقوى بالحشيش ، وما يتفق من الأشياء الخسيسة ، اذ لا يخلو الامر من أن يجد آدميا فى بحر الأسبوع أو ينتهى الى محلة ، أو قرية ، أو الى حشيش يجترى به !

وأحب أن يذكر القارىء هذه الصورة الغريبة ، فان الغزالي يدعو اليها جمهور المسلمين !

وانظر كيف يقول : « فان قلت فما قولك فى القعود فى البلد بغير كسب • أهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأن صاحب السياحة فى البادية اذا لم يكن مهلكا نفسه ، فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه حتى يكون فعله حراما • بل لا يبعد أن يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب ، ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن الى أن يتفق • ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد اليه ، ففعله ذلك حرام • وان فتح باب البيت وهو غير مشغول بعبادة ، فالكسب والخروج أولى له • ولكن ليس فعله حراما الى أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب • وان كان مشغول القلب بالله غير مشرف الى الناس ، ولا متطلع الى من يدخل من الباب فيأتيه برزقه ، بل تطلعه الى فضل الله تعالى واشتغاله بالله فهو أفضل » •

وما أدرى كيف يتفق هذا مع قوله فى نفس الصفحة : فاذا التبعد عن الاسباب كلها مراعاة للحكمة ، وجهل بسنة الله تعالى ؟ الا أن يكون السؤال من الاسباب ، وهو سبب مهين !

وأحب أيضا أن يذكر القارئ هذا التناقض في الجمع بين التوكل وبين السؤال !! وكيف تقوم لامة فائمة وهي تربي على هذه الأخلاق !!

ثم ما هو الفرق بين من يترك الطعام عند وجوده ، وبين من يدخل البادية بلا زاد ؟ لا فرق الا أن الثاني قد يجد من يتصدق عليه ، أو يجد حشيشا يقتات به ! ولو ذكر الغزالي أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وأن الله لرم بنى آدم وحملهم في البر والبحر ورزقهم من الطيبات ، لما اختار لامرئ هذا الحظ الخسيس ، ولما وضع هؤلاء المشردين ، في طبقة المتوكلين •

والدرجة الثالثة ملايسة الأسباب التي يتوهم افضاؤها الى المسببات من غير ثقة ظاهرة ، كالذي يستقصى التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه • يقول الغزالي « وذلك يخرج بالدلية عن درجات التوكل كلها ، وهو الذي فيه الناس كلهم ، اعنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح » (١) •

وإذا كان الاحتيال لكسب المباح مما ينافى التوكل ، فقد انهدم أعظم ركن في بناء الممالك والشعوب • والغزالي يردد النفرة من الحيلة لكسب الرزق ، وقد لاحظنا ذلك عليه حين تكلم عما يجهل بالتاجر من أن لا يكون أول داخل في السوق ولا آخر خارج منه •

ونرى الحاجة ماسة الى أن ننبه الى أن فهم التوكل بهذه الصورة خطأ صراح ، وليس علينا من حرج اذا رأينا الغزالي من الخاطئين ، وما نريد أن نزيد !

هبة الموت المتوكلين

وللمتوكل مقامات ثلاثة :

الأول - مقام من يترك الزاد وهو يدور في البوادي ، وانما كان هذا أفضل فيما يرى الغزالي لأن فيه تشبها على الرضا بالموت !

الثاني - مقام من يقعد في بيته أو في مسجد ، ولكنه في القرى والأمصار . وهذا أضعف من الأول كما يقول .

الثالث - من يخرج للكسب على الوجه الذي ارتضاه حين تكلم عن آداب الكسب ، وهو أن لا يقصد به الاستئثار ، ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته ، وعجيب والله أن يكون الكسب أدنى درجات المتوكلين .

توكل المعيل

غير أن الغزالي يخص تلك الحالة الشديدة بالمنفرد ، وقد قدمنا أنه يرضى له الاقتناع بأن الموت من جملة الأرزاق .

أما المعيل صاحب الأولاد فإنه لا يجوز له إلا المقام الثالث ، وهو توكل المكتسب ، كتوكل أبي بكر رضى الله عنه إذ خرج للكسب « فاما دخول البراري وترك العيال توكل في حقهم ، أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكل في حقهم ، فهذا حرام . وقد يفضى إلى هلاكهم ، ويكون هو مؤاخذاً بهم . بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله . فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة في الآخرة فله أن يتوكل في حقهم » وهذه مجازفة من الغزالي: إذ يرضى أن يعوّد الرجل أبناءه على الجوع ، وأن يمرنهم على الاعتداد بالموت جوعا في سبيل الآخرة ، وقد يكونون لم يبلغوا سن التكليف .

يقول الغزالي : « وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب ، بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة ، والرضا بالموت

ان تأخر الرزق نادرا ، وملازمة البلاد والأمصار وملازمة البوادي التي لا تخلو عن الحشيش وما يجرى مجراه • فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى ... الخ ؟

ونكرر ما لاحظناه من أن فهم التوكل بهذه الصورة خطأ مبين ، فانه يجر القادر على الطلب الى الرضا بالسؤال ، وانتظار المصادفات ، والترحيب بالموت ، مع أن قطع أسبابه من أول ما يعنى به بناء الاخلاق •

الادخار

ورأى الغزالي في الادخار عجيب ، اذ أفضل الحالات عنده لمن حصل على مال بارث أو كسب أو أى سبب من الاسباب أن يأخذ قدر حاجته في الوقت : فيأكل ان كان جائعا ، ويلبس ان كان عاريا ، ويشترى مسكنا مختصرا ان كان محتاجا ، ويفرق الباقي في الحال • ولا يأخذ ، ولا يدخر ، الا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج اليه ، فيدخره على هذه النية !

والذي يدخر لسنة ليس من المتوكلين أصلا كما يقول !

والذي يدخر لأربعين يوما فما دونها يحرم من المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكلين •

ونحب أن يتأمل القارئ هذا الرأي في الاقتصاد ، فقد أكثر المؤرخون من لوم العرب على اهمال هذا العلم ، وعدوا الجهل به سببا لسقوط المملكة العربية ، مع أنها كانت تسيطر على أخصب بلاد العالم كمصر والعراق • ولكن كيف يحترم هذا العلم في أمة يقول امام الأئمة فيها : ان ادخار المال لأربعين يوما يحرم المرء من المقام المحمود !؟

وقد تفضل الغزالي فأباح للمعيل أن يدخر قوت عياله لسنة !؟

وتفضل كذلك فأجاز للرجل أن يدخر الكوز وأثاث البيت !!

والفرق عنده بين الكوز وغيره ، أن سنة الله لم تجر بتكرار الأواني مع الحاجة إليها في كل وقت ، ولكن جرت سنته بتدرج الارزاق في كل سنة . وكان عليه أن يعرف أن الرزق إنما يتجدد في كل سنة ، لمن يملك من المزارع والمتاجر ما يتجدد ريعه في كل سنة . فياعجباً كيف يجيز التوكل اتلاف رأس المال !

آداب المتوكلين

وضع الغزالي الآداب الآتية للمتوكل حين يخرج من بيته :

(١) أن يعلق الباب ، ولا يستقصي في أسباب الحفظ ، كالتماسه من الجيران الحفظ مع العلق ، وكجمعه أغلاقاً كثيرة !

(٢) أن لا يترك في البيت متاعاً يحرص عليه السارق !

(٣) ما يضطر الى تركه في البيت ، ينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضى الله فيه من تسليط سارق عليه !

(٤) اذا عاد فوجد المال مسروقاً فينبغي أن لا يحزن ، بل يفرح اذا أمكنه !

(٥) أن لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ . فان فعل بطل توكله ، ودل على تأسفه على ما فات !

(٦) أن ينتم لأجل السارق وعصيانته وتعرضه لعذاب الله ، ويشكر الله اذ جعله مظلوماً ولم يجعله ظالماً !

وما أدرى ما الذي أنسى الغزالي أن يحض المتوكل على أن يترك باب البيت مفتوحاً ، وأن يعلق عليه لوحة مكتوباً فيها بخط واضح جميل : من أراد أن يأخذ شيئاً من هذا البيت فهو مغفور الذنوب ، بل مجزى بما مكن صاحبه من صنع المعروف !!

وليس من التوكل بالطبع أن يتعقب المرء الجنة ، لينالوا على يد الوالى جزاء ما قدمت أيديهم • بل التوكل هو أن لا يبالغ المرء فى أسباب الحفظ ، وأن يوطن النفس على ما يسرق من متاعه ، وأن لا يحزن بل يفرح حين يسرق ، وأن يغتم لأن هذا السارق المسكين عصى الله وتعرض لعذابه ، وأن يشكر الله على أن جعله من المظلومين ، ولم يجعله من الظالمين •

وأظرف ما فى هذا الباب دعوة الغزالي الى أن يجعل الرجل ماسرق منه ذخيرة له فى الآخرة ، وان أعيد اليه فالأولى أن لا يقبله !

توكل الخائف

يقرر الغزالي أن الضرر قد يعرض للخوف فى النفس والمال • أما فى النفس فكالنوم فى الأرض المسبعة ، او فى مجارى السيل من الوادى ، أو تحت الجدار المائل ، أو السقف المنكسر ، وكل ذلك فيما يرى منهى عنه ، لأنه تعريض للهلاك بلا فائدة •

وجملة القول أن أسباب الخوف اما مقطوع بها أو مظنونة أو موهومة ، وترك الموهوم هو شرط التوكل ، فالمبالغة فى الاحتياط تبعد المرء عن مقام المتوكلين ؟

وهنا لا نرى بأسا من تحقيق مسألة أخطأ فيها الغزالي ، فقد عبد من الأسباب الموهومة الكى ، وذكر أن رسول الله لم يصف المتوكلين الا بترك الكى والرقية والطيرة • ولو صح رأيه فيما استشهد به ، لكان للرقية والطيرة فائدة موهومة ، مع أنه يستحيل أن يرى رسول الله قيمة لهذه الأسباب ، وانما يريد أن يضيف المكتوبين والمتطيرين والراقين الى جملة الموسوسين •

ولو كان للكى فائدة موهومة لما عد تركه من التوكل ، وهو يتعلق مباشرة بالصحة • وانما نهى عنه الرسول لأن ضرره كثير ، ومحقق ،

ونفعه قليل بل موهوم • وفوق هذا يجب أن نلاحظ أن الأسباب الموهومة لم يكن تركها شرطا في التوكل الا لأن في تركها تعويدا على المخاطرة ، وهى من صفات الأحياء ، فاذا اختلفت الظروف ، وكانت رعاية الأسباب الموهومة نوعا من الحيلة ، فاني لا أفهم كيف تحرم المرء من المقام المحمود !

واذا خاف الانسان على ماله ، فله أن يعلق بيته ، وأن يعقل بعيره ، لأن هذه أسباب عرفت بسنة الله اما قطعاً واما ظناً ، فلا ينقض بها التوكل ، كما لا ينقض بدفع العقارب والحيات والسباع ، لأن الصبر على هذه جنون •

توكل المريض

يقسم الغزالي الأسباب المزيلة للمرض الى مقطوع به ، ومظنون ، وموهوم ، ويقرر أن ترك المقطوع به ليس من التوكل بل تركه حرام. عند خوف الموت • وكان عليه أن يتنبه الى أن المرض متى وجد ، فالموت مخوف في كل حال ، لان للمرض طفولة وحدائه وفتوة ، فان ترك وهو ناشئ أمسى وهو قوى متين ، بل يجب حرب جراثيم المرض ، لأنها تبيض وتفرخ ، ثم تصبح أعداء ألداء • فاما الموهوم فشرط التوكل تركه • وقد بينا ما تختلف عليه هذه الحال • وأما المظنون كالقصص والحجامة وشرب الدواء المسهل ، وما الى ذلك من الأسباب الظاهرة عند الأطباء ، فليس تركه من التوكل ، كما أن تركه ليس محظورا كالمقطوع به ، بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص. وهذا ما لا نوافق عليه الغزالي ، لأننا لا نفهم كيف يكون الحرص على الصحة مما يفضل اغفاله في بعض الأحيان •

والى القارئ الأحوال التى يحمد فيها عنده ترك التدوى :

(١) أن يكون المريض من المكاشفين ، وقد كوشف بأن أجله انتهى ، وإن الدواء لا ينفعه (!) •

(٢) أن يكون المريض مشغولا بحاله وبخوف عاقبته •

(٣) أن تكون العلة مزمنة ، والدواء الذى يؤمر به موهوم النفع بالنسبة لعلته •

(٤) أن يقصد بترك التداوى استبقاء المرض لينال أجر الصابرين ، أو ليمرن نفسه على الصبر الجميل !

(٥) أن يكون قد سبق له كثير من الذنوب ، ويرى المرض تكفيرا إذا طال ، وكان قد عجز عن التكفير !

(٦) أن يستشعر فى نفسه مبادئ البطر والطغيان بطول مدة الصحة ، فيترك التداوى خوفا من أن يعاجله زوال المرض ، فتعاوده الغفلة والبطر والطغيان •

ويحسن أن نلفت النظر الى أن هذه أسباب ضعيفة ، لا تقتضى ترك الدواء ؛ وهى فى الوقت نفسه تدل على مبلغ حرص الغزالي على نزعه الصوفية ، فمن الواضح أن ايثار المرض فى سبيل الفرار من آفات العافية ، إنما هو عمل سلبي قليل الغناء • وماذا يضرنا لو حاربنا المرض ، ثم رجعنا بعد ذلك الى حرب ما للصحة من الآفات ، لنخرج رجالا صحيح الجوارح والقلوب ؟

والغزالي فوق ما سلف يفضل كتمان المرض ، ولا ييجز اظهاره الا فى الأحوال الآتية :

(١) أن يكون الغرض التداوى ، فيذكر المرض للطبيب ، لا فى معرض الشكاية ، بل فى معرض الحكاية •

(٢) أن يوصف المرض لمن يرجى منه الدعوة الى الصبر •

(٣) أن يقصد باظهار المرض اظهار العجز والافتقار الى الله .

قال الغزالي : « فبهذه النيات يرخص في ذكر المرض ، وانما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله حرام . ويصير الاظهار شكاية بقرينة السخط واظهار الكراهة لفعل الله . فان خلا عن قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الاولى تركه . لأنه ربما يوهم الشكاية ، ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزيد في الوصف على الموجود من العلة . ومن ترك الندوى توكللا فلا وجه في حقه للاظهار، لان الاستراحة الى الدواء أفضل من الاستراحة الى الافشاء » .

وهذه الكلمة الاخيرة غاية في الحكمة والسداد .

ملاحظات ثلاث

الاولى

جاء في ص ٢٩٢ ج ٤ احياء ما نصه : « فان قلت فكيف يكون للمتوكل مال حتى يؤخذ ؟ فأقول : المتوكل لا يخلو بيته عن متاع كقصعة يأكل منها وكوز يشرب منه واناء يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده ، وعصا يدفع بها عدوه ، وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت . وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجا فيصرفه اليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطلا لتوكله . وليس من شرط التوكل اخراج الكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده ، وانما ذلك في المأكول وفي كل مال زائد على قدر الضرورة . لأن سنة الله جارية بوصول الخير الى الفقراء والمتوكلين في زوايا المساجد . وما جرت السنة بتفريق الكيزان والأمتعة في كل يوم وفي كل أسبوع » .

وهذه الفقرة تدل واضح الدلالة على أن التوكل هذا نزعة صوفية،

وقد وضع الغزالي مقياسا لتقدير الأعمال هو العقل والشرع ، وما أحسبه يستطيع أن يثبت أن آية « وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » خاصة بهذا الصنف من الناس ، بل التوكل المأمور به في القرآن هو الاعتماد على الله مع مباشرة الأسباب والايمان بانه لا يضع أجر العاملين ♦

الثانية

جاء في المنهاج ص ٨٠ ما نصه : « فان قيل هل يلزم العبد طلب الرزق بحال ما ؟ فاعلم أن الرزق المضمون الذي هو الغذاء والقوام لا يمكننا طلبه اذ هو شيء من فعل الله سبحانه للعبد كالحياة والموت لا يقدر العبد على تحصيله ولا على دفعه (!؟) فان قيل : لكن لهذا الرزق المضمون أسباب : فهل يلزمنا طلب الأسباب ؟ قيل له لا يلزمك ، اذ لا حاجة للعبد اليه اذ الله سبحانه يفعل بسبب وبغير سبب ، فمن اين يلزمنا طلب السبب ثم ان الله تعالى ضمن لك ضمانا مطلقا من غير شرط الطلب والكسب ، قال الله تعالى : « وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها » ثم كيف يصح أن يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه فيطلبه ، والواحد منا لا يعرف سبب الرزق يتناوله من أين يحصل له ، فلا يصح تكليفه ♦ فتأمل » ♦

وقد تأملنا كثيرا ، فلم نر هذه الحجج الا خيالا في خيال !

الثالثة

أراد الغزالي أن يحض على التوكل فأمر بملاحظة الجنين كيف وصلت سرته بسرة الأم لينتهي اليه الغذاء لما كان عاجزا عن الحركة والاضطراب ، فلما انفصل سلبط الله على الأم الحب لترضعه وهي راغمة ، وأودر له اللبن اللطيف ، اذ كان مزاجه لا يحتمل الغذاء الكثيف ♦ وانتقل الغزالي من هذا الى بيان أن الكبير قد كثرت أسباب الرفق به ،

فبعد أن كان المشفق واحداً هو الأم أو الأب ، أصبح أهل البلد كافة يشفقون عليه • ثم أخذ يبين كيف ينتفع اليتيم بشفقة المسلمين ، الى آخر ما قال •

وهذه الحجة على الغزالي لا له ، فانه اذا كان الله وصل سره الجنين بسرة أمه لضيقه عن الحركة ، وأدر عليه اللبن لعجزه عن المضغ ، وسلط على أمه الحب لعجزه عن السعى ، فلماذا منحه القوة اذن ، اذا كان لم يشأ أن يستغنى بها عن الناس ؟

فأما ما قاله من أن كل واحد من أهل البلد اذا أحس بمحتاج تألم قلبه ، ورق عليه ، وانبعثت له داعية الى ازالة حاجته ، فهي أمنية شرعية ، وليته ذكر أن العرب هموا بترك دينهم ليخلصوا من الزكاة !

الفصل الخامس

فضيلة الاخلاص

ابتدأ الغزالي كلامه عن هذه الفضيلة بقوله تعالى (وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) ثم ذكر جملة من الأحاديث والأخبار • ثم قرر بعد ذلك أن كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح اليه النفس ، ويميل اليه القلب ، قل أم كثر ، اذا تطرق الى العمل تكدر به صفوه ، وزال به اخلاصه • ثم بين أنه قلما يخلو فعل من أفعال المرء وعبادة من عباداته ، عن حظوظ وأغراض عاجلة • وأن العمل الخالص هو الذى لا باعث عليه الا طلب القرب من الله •

ومقياس الاخلاص فيما يرى الغزالي هو أن يشعر المرء بارتياح حين يجد غيره يعمل عملاً كان يريد أن يقوم به • نعرف هذا من قوله :
« وأشد الخلق تعرضاً لهذه الفتنة هم العلماء • فان الباعث للأكثرين .

على نشر العلم لذة الاستيلاء ، والفرح بالاتباع • والشيطان يلبس عليهم ذلك ويقول : غرضكم نشر دين الله ، والنضال عن الشرع الذى شرعه رسول الله • وترى الواعظ يمين على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلطين • ويفرح بقبول الناس قوله ، وإقبالهم عليه ، وهو يدعى أنه يفرح بما يسر له من نصرة الدين • ولو ظهر من أفرانه من هو احسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساء ذلك وغمه ، ولو كان ياعته الدين لشكر الله تعالى اذ نفاه هذا المهم بغيره • ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول : انما غمك لاتقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس الى غيرك • اذ لو اتعطوا بقولك لكنت أنت المثاب واغتمامك لموات الثواب محمود • ولا يدري المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الامر أفضل وأجزل ثوابا وأعود اليه فى الآخرة •

وقد انحصر الاخلاص عنده فى الأمور الدينية ، لغلبة هذه الأمور عليه ، ولو كان الغزالي من الذين باشروا الحركات العامة ، ووقفوا على الشئون الاجتماعية ، لذكر لنا ضروبا من الاخلاص فى نهوض الافراد بأممهم • وبين لنا كيف يتطرق الغرض الى الاعمال الاجتماعية ، وكيف تشقى الشعوب بأصحاب الاغراض ، فليس الاخلاص وفقا على الصلاة والزكاة والحج والصيام ، بل الاخلاص فيما بين الرجل وبين أمته ، أو جب من الاخلاص فيما بينه وبين ربه ، لأنه حين يحرم الاخلاص فى العبادة لا يضر الله شيئا فان الله غنى عن العالمين • ولكنه حين يحرم الاخلاص فيما يعمل لأمة ، يشقى بسوء غرضه ملايين من النفوس ، ثم يصبح وهو منبوذ مهين • ولكن أكثر الناس لا يعلمون !

الباب الثامن

في توقي الرذائل

تمهيد

لم يضع الغزالي للرذيلة تعريفا يخصصها بالذات ، وإنما هي عنده
 افراط في الفضيلة أو تفريط • وهو يرى أن الافراط في قوة العلم ينشأ
 عنه المكر والحقد والحداغ والدهاء ، وأن التفريط فيها يصدر عنه البله ،
 والغمارة ، والحمق ، والجنون ، وينشأ من الافراط في الشجاعة التهور
 وما اليه من الجسارة ، والتبجح ، والاستشاطاة والتكبر والعجب والبذخ •
 ويصدر من التفريط فيها الجبن ، والهلع ، والمهانة ، وصغر النفس ،
 والنكول • وأما الرذائل الصادرة من الافراط أو التفريط في العفة ، فهي :
 الشره ، وكلال الشهوة ، والوقاحة ، والتخث ، والتبذير ، والتقتير ،
 والرياء ، والتهاكت والمجانة ، والعبث والشكاسة ، والملق والحسد والشماتة
 ••• الخ •

وألاحظ أن كلامه في هذا الباب غير واضح ، وقد لاحظ هو ذلك ،
 فأخذ يشرح أمثال الرذائل الآتية : الاستشاطاة ، الانفراك ، التخاسس ،
 البذالة ، الشكاسة ، الكزازة ، التحاشي ، النكول ، الغمارة ••• الخ •

والأمر كذلك في الفضائل المتفرعة عن أمهات الأخلاق •

وينبغي أن لا تنسى أن الغزالي يوصي دائما بقلع الخلال الرديئة

وغرس مكارم الأخلاق ، ويسمى هذا بالتخليه ، والتحليه ، أى اخلاء القلب من الشهوات ، ثم تحليلته بكراثم النزعات •
واذ كنا بينا رأييه فى جملة من الفضائل الضرورية للأفراد ، فأننا ذاكرون كذلك رأييه فى طائفة من العيوب والردائل الكثيرة الوجود ، ليتضح ما يتصوره من المثل الأعلى للحياة •

الفصل الأول رذيلة الغضب

الغضب قوة تتوجه عند ثورانها الى دفع المؤذيات قبل وقوعها ، والى التشفى والانتقام بعد وقوعها • وهو فيما يرى الغزالى ثلاث درجات :
التفريط ، والافراط ، والاعتدال •

أما التفريط ففقد هذه القوة ، أو ضعفها • وهو مذموم اذ من ثمراته قلة الأنفة مما يؤنف منه ، كالتعرض للحرم والزوجة ، والأمة ، واحتمال الذل من الأخساء ، وصغر النفس •

وأما الافراط فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن العقل والدين ، فلا تبقى للمرء بصيرة ، ولا نظر ، ولا فكرة ، ولا اختيار •

وأما الاعتدال فهو المحمود ، وهو غضب ينثر اشارة العقل والدين :
فينبعث حيث تجب الحمية ، وينطفئ حيث يحسن الحلم •

قال الغزالى « فمن مال غضبه الى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة ، ونخسة النفس فى احتمال الدل والضيغ فى غير محله . فينبغى أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه • ومن مال غضبه الى الافراط .

-حتى جره الى التهور واقتحام الفواحش فينبغى أن يعالج نفسه لينض من
-سورة الغضب ويقف على الوسط بين الطرفين ^(١) ، *

أسبابه

وأسباب الغضب فيما يرى الغزالي ترجع الى ثلاثة أقسام :

الأول - ما هو ضرورة في حق الكافة كالقوت ، والملبس والسكن ،
وصحة البدن وهذه ضرورات لا يخلو الانسان من كراهة زوالها ، ومن
الغيظ على من يتعرض لها *

الثاني - ما ليس ضروريا لأحد من الخلق كالجهاد والمال الكثير ،
والعلمان ، والدواب وقد صارت هذه الأشياء محبوبة بالعادة ، والجهل
بمقاصد الأمور *

الثالث - ما يكون ضروريا في حق بعض الناس دون البعض ، وهذا
يختلف باختلاف الأشخاص *

علاجه

وقد وضع الغزالي طريقة لاستئصال رذيلة الغضب ، كما وضع
طريقة لتسكينه حين يثور *

أما الطريقة الأولى فهي استئصال الغضب باستئصال أسبابه واذ
كانت الأسباب المهيجة له هي الزهو ، والعجب ، والمزاح ، والهزل ،
والهزل ، والتعير ، والمماراة ، والمضادة ، والغدر ، وشدة الحرص على
-حصول المال ، والجهاد ، فينبغى للخلوص من الغضب ازالة هذه الأسباب ،
وهي في أنفسها رذائل تحتاج الى رياضة ، ورياضتها الرجوع الى معرفة
غوائلها لترغب النفس عنها ، وتنفر عن قبورها ، ثم المواظبة على مباشرة

(١) ١٦٩ ج ٣ احياء *

أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس • فإذا
انمحت عن النفس فقد ذكت وتطهرت من هذه الرذائل ، وتخلصت أيضا
من الغضب الذى يصدر منها •

أما علاج الغضب بعد هيجانه فيرجع الى العلم والعمل • والعلم ستة
أمور :

(١) أن يتفكر فى الأخبار الواردة فى كظم الغيظ ، والعفو ،
والحلم ، والاحتمال •

(٢) أن يخوف نفسه بعقاب الله ، فيذكر أن قدرة الله عليه أعظم من
قدرته على من يريد أن يمضى فيه غضبه •

(٣) أن يحذر نفسه عاقبة العداوة ، والانتقام ، وتشهير العدو
لمقابلته ، والسعى فى هدم أغراضه ، والشتمات بمصابه •

(٤) أن يتفكر فى قبح صورته عند الغضب ، ومشابهة الغضببان
للكلب الضارى ، ومشابهة الحليم للأنبياء •

(٥) أن يتفكر فى السبب الذى يدعو الى الانتقام ، ويمنع من
كظم الغيظ •

(٦) أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشئ على وفق مراد
الله لا على وفق مراده •

أما علاج الغضب بالعمل فهو أن تستعيز بالله من الشيطان الرجيم ،
فان لم ينفع ذلك ، فاجلس ان كنت قائما ، واضطجع ان كنت جالسا ،
واقرب من الأرض التى منها خلقت ؛ لتعرف ذل نفسك ، فان لم ينفع ذلك
فتوضأ ، أو اغتسل بالماء البارد •

دواء الشر بالشر

بعد أن بين الغزالي علاج الغضب ، وفضيلة الحلم ، وكظم الغيظ ،
أخذ فى بيان القدر الذى يجوز الانتصار والتشفى به من الكلام • وهو

على الجملة لا يجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ، ولا مقابلة التجسس بالتجسس ، ولا السب بالسب ، وكذا سائر المعاصي . ويجوز أن ينتصر المظلوم لنفسه بالكلام في غير تلك المنكرات ، ولكن الأفضل تركه ، فإنه يجسر الى ما وراءه ، ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه . والسكوت عن الجواب لعله أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على حد الشرع فيه .

تم قسم الناس باعتبار الغضب الى أربعة أقسام : قسم سريع الوقود سريع الخمود ، وقسم بطيء الوقود بطيء الخمود ، وقسم سريع الوقود بطيء الخمود ، وهو شرهم ، وقسم بطيء الوقود سريع الخمود . قال الغزالي وهو الأحمد ما لم ينته الى فتور الحمية والغيرة .

وقد أوجب على صاحب السلطان أن لا يعاقب أحدا في حال غضبه لأنه ربما يتعدى الواجب ، ولأنه ربما يكون متغيظا على المعاقب فيكون متشفيا لغيظه ومريحا نفسه من ألم الغيظ ، فيكون صاحب الحظ ، مع أن الواجب أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه .

ولا يفوتنا أن نذكر أن الغزالي كرر النصح بتجنب من يتبعجون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب ، ويسمون ذلك شجاعة ورجولة . فان الفضل في الصفيح الجميل .

الفصل الثاني

رذيلة الحقد

هو فيما يرى الغزالي وليد الغضب ، فان الغضب اذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال ، رجع الى الباطن واحتقن فيه فصار حقدا ، ومعنى الحقد - كما نص على ذلك - أن يلزم المرء قلبه استئصال المفضوب عليه ، والبغضة له ، والنفور منه ، وأن يدوم ذلك ويبقى .

وللحق ما يأتي من النتائج :

(١) الحسد ، وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عن عدوك ، فتتعمد للنعمة تصيبه ، وتسرع للمصيبة تنزل به •

(٢) أن تزيد على اضرار الحسد في الباطن فتظهر الشماتة بما أصابه من البلاء •

(٣) أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وان طلبك وأقبل عليك •

(٤) أن تعرض عنه استصغارا له •

(٥) أن تتكلم فيه بما لا يحل : من كذب ، وغيبة ، وافشاء سر ، وهتك ستر •

(٦) أن تحاكيه استهزاء به ، وسخرية منه •

(٧) أن تؤذيه بضرب أو شبهة مما يؤلم بدنه •

(٨) أن تمنعه حقه : من قضاء دين ، أو صلة رحم ، أو رد مظلمة •

قال الغزالي : « وكل ذلك حرام • وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد الى ما يعصى به الله ، ولكن تستقله في الباطن • ولا ينتهي قلبك عن بغضه حتى تمتنع عما كنت تتطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته ، أو الدعاء له ، والثناء عليه ، والتحريض على بره ومواساته • فهذا كله مما ينقص درجتك في الدين ، وان كان لا يعرضك لعقاب ^(١) » •

وللحقود عند القدرة ثلاثة أحوال : الأولى استيفاء الحق من غير زيادة ولا نقصان وهو العدل ، والثانية الاحسان بالعفو والصلة وهو الفضل ، والثالثة الظلم ، وهو المنهى عنه •

الفصل الثالث

رذيلة الحسد

هو احدى نتائج الحقد ، وله فيما يرى الغزالي أربع مراتب :
الأولى - أن يحب المرء زوال النعمة عن غيره ، وإن كانت لا تنقل
إليه وهذا غاية الخبث •

الثانية - أن يحب زوالها إليه : لرغبته في مثل تلك النعمة ، كأن
يرى عند غيره امرأة جميلة ويحب أن تكون له ، فمطلوبه تلك النعمة
لا زوالها ، ومكروهه فقدتها لا تنعم غيره بها •

الثالثة - أن لا يشتهي عينها لنفسه ، بل يشتهي مثلها ، فإن عجز
عن مثلها أحب زوالها ، كي لا يظهر التفاوت بينهما •

الرابعة - أن يشتهي لنفسه مثلها ، فإن لم تحصل فلا يحب زوالها
عنه ، وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان في الدنيا ، والمندوب إليه إن كان
في الدين •

والرتبة الأولى مذمومة ، وتسمية الثانية حسدا تجوز ، فانما هي
تمنى ما للغير ، وهو أيضا مذموم لقوله تعالى (ولا تتمنوا ما فضل الله به
بعضكم على بعض) والثالثة أخف من الأولى •

أسبابه وعلاجه

ويرى الغزالي أن أسباب الحسد ترجع الى العداوة ، والتعزز ،
والكبر ، والعجب ، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة ، وحب الرياسة ،
وخبث النفس • وأكثر ما يكون الحسد بين الأمثال والأقران ، والاخوة ،
وبنى العم ، والأقارب ، لأن كثرة الروابط تولد أسباب الحسد
والبغضاء •

وعلاج الحسد فيما يرى الغزالي ينحصر في تأديب النفس وتبصيرها بخطر هذه الرذيلة ، فان الحاسد انما ينكر في غيره نعمة انعم الله بها عليه ، ومن واجب الرجل أن يشغل بنفسه ، وأن يحفظ وقته فلا يضيعه فيما لا يغنى ولا يفيد ، فليس أضيع من وقت يصرف في بغض نعمة لا يملك المرء زوالها عن سواء ♦

وقد قرر الغزالي أن الحسد يكاد يكون طبيعة في النفوس ، وأن الأمل في السلامة منه بالكلية بعيد ♦

الفصل الرابع رذيلة العجب

للعالم بكمال نفسه في علم ، أو عمل ، أو مال ، ثلاث حالات : الأولى – أن يكون خائفا على زواله ، ومشقفا على تكدره ، أو سلبه من أصله ، وهذا ليس بمعجب ♦

الثانية – أن لا يكون خائفا من زواله ، ولكن يكون فرحا به ، من حيث هو نعمة من الله ، لا من حيث اضافته الى نفسه ، وهذا أيضا ليس بمعجب ♦

الثالثة – أن يكون غير خائف عليه ، بل يكون فرحا به ، مطمئنا اليه ، ويكون فرحه من حيث انه كمال ونعمة ، وخير ورفعة ، لا من حيث انه عطية من الله ونعمة منه ، وهذا هو العجب ♦ فهو اذن استعظام النعمة والركون اليها مع نسيان اضافتها الى المنعم ♦ قال الغزالي : « فان انضاف الى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقا ، وأنه منه بمكان ، حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا واستبعد أن يجرى عليه مكروها يزيد على استبعاده ما يجرى على الفساق سمي هذا ادلالا بالعمل ♦♦ والادلال

وراء العجب ، فلا مدل الا وهو معجب ، ورب معجب لا يدل ، اذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء ، والادلال لا يتم الا مع توقع جزاء والعجب والادلال من مقدمات الكبر وأسبابه (١) ،

أسبابه وعلاجه

واليك ما يعجب به الناس مع وصف العلاج :

الأول - أن يعجب المرء ببدنه : في هيئته وصحته ، وقوته ، وتناسب أشكاله ، وحسن صورته ، وجمال صوته •

وعلاجه أن ينظر في مصير الوجوه الجميلة ، والأبدان الناعمة ، وكيف يعث بها التراب •

الثاني - البطش والقوة ، وعلاجه أن ينظر ما حل بقوم عاد •

الثالث - العجب بالعقل ، والكياسة ، والتفطن لدقائق الأمور ، من مصالح الدنيا والدين • وآفة هذا الاستبداد بالرأى وترك المشورة •

وعلاجه أن ينظر في مصير عقله لو أصيب بمرض في دماغه •

الرابع - العجب بالنسب الشريف •

وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم ، وظن أنه يلحق بهم ، فقد جهل •

الخامس - العجب بنسب السلاطين الظلمة ، وأعوانهم ، دون نسب العلم والدين •

وعلاجه أن يفكر في مخازيهم ، وفي مصيرهم يوم الحساب •

السادس - العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان
والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع •

وعلاجه أن يتفكر في ضعفه وضعفهم ، وأنهم كلهم عبيد عجزه
لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا •

السابع - العجب بالمال •

وعلاجه أن يتفكر في آفات المال ، وكثرة حقوقه ، وغوائله •

الثامن - العجب بالرأى الخطأ ، كما قال تعالى : « أفمن زين له
سوء عمله فرآه حسنا » •

قال الغزالي : « وعلاج هذا العجب أشد من غيره ، لأن صاحب
الرأى الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه ، ولا يعالج الداء الذى لا
يعرف ، والجهل داء لا يعرف ، فتعسرت مداواته جدا ••••• وانما علاجه
على الجملة أن يكون متبهما لرأيه ابدا لا يقتر به الا أن يشهد له قاطع
من كتاب أو سنة أو دليل عقلى صحيح جامع لشروط الأدلة (١) » •

وقد بين الغزالي فوق ما سلف أن العجب مع الله يدعو الى نسيان
الذنوب وإهمالها ، فبعض ذنوب المرء لا يذكرها ولا يتفقدتها لظنه أنه
مستغن عن تفقدتها فينساها • وما يتذكره منها يستصغره ولا يستعظمه ،
فلا يجتهد في تداركه وتلافيه ، بل يظن أنه يغفر له • ومتى أعجب المرء
بأعماله عمى عن آفاتها • ومن لم يتفقد آفات أعماله كان أكثر سعيه
ضائعا ، فان الأعمال الظاهرة اذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما
تنفع • وانما يتفقد عمله من يغلب عليه الخوف والاشفاق دون المعجب ،
فانه يغتر بنفسه وبرأيه ، ويأمن مكر الله وعذابه ، اذ يظن أنه قد استغنى
وفاز ، وهذا هو الهلاك الصريح الذى لا شبهة فيه • كما قال الغزالي •

(١) ص ٣٨٤ ج ٣ •

الفصل الخامس

رذيلة الكبر

يقسم الغزالي الكبر : الى باطن وظاهر • فالباطن هو خُلُق في النفس • والظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح • ويسمى الباطن الكبر ، والظاهر التكبر • والكبر فيما يرى ثمرة العجب • ويفصل عنه بأنه يتطلب متكبراً عليه ، بخلاف العجب ، فقد يعجب المرء بنفسه ، وماله ، وعمله ، ولو خلق وحده •

والتكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام :

الأول - التكبر على الله وهو أفحش أنواع الكبر ، ومثاله ما كان من فرعون •

الثاني - التكبر على الرسل ، ومثاله ما كان من قريش وبنى اسرائيل •

الثالث - التكبر على العباد ، بأن يستعظم المرء نفسه ، ويستحقر غيره •

أسباب التكبر

وللتكبر سبعة أسباب :

الأول - العلم ، وما أسرع الكبر الى العلماء !

الثاني - العمل والعبادة • ولكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات : الأولى أن يكون الكبر مستقراً في قلب المرء فيرى نفسه خيراً من غيره ، الا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يرى غيره خيراً من نفسه ، وهذا قد غرست في نفسه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها . الثانية ، أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في المجالس والتقدم على

الأقران و اظهار الانكار على من يقصر فى حقه ، بتصغير خده وتقطيب جبينه . قال الغزالى : « وليس يعلم المسكين أن الورع ليس فى الجبهة حتى تقطب ، ولا فى الوجه حتى يعبس ، ولا فى الخد حتى يصعر ، ولا فى الرقبة حتى تطأطأ ، ولا فى الذيل حتى يضم ، وانما الورع فى القلوب ^(١) » .

الثالثة : أن يظهر الكبر على لسانه حتى يدعو الى الدعوى والمفاخرة والمباهاة وتزكية النفس وحكاية الأحوال والمقامات .

الثالث - التكبر بالحسب والنسب .

الرابع - التفاخر بالجمال ، وأكثر ما يجرى هذا بين النساء .

الخامس - التكبر بالمال ، ويجرى هذا بين الملوك فى خزائهم وبين التجار فى بضائعهم ، وبين الدهاقين فى أراضيهم ، وبين المتجملين فى ملابسهم ، وخيولهم ، ومراكبهم .

السادس - التكبر بالقوة وشدة البطش .

السابع - التكبر بالاتباع والأنصار والتلامذة والغلمان والعشيرة والأقارب ، ويجرى ذلك بين الملوك فى المكاثرة بالجنود وبين العلماء فى المكاثرة بالمستفيدين .

قال الغزالى « وبالجمله فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالاته وان لم يكن فى نفسه كمالاته أن يتكبر به ^(٢) » .

وعلامات التكبر - كما ذكر الغزالى - تظهر فى شمائل الرجل : كصغر خده ، ونظره شزرا ، واطرافه برأسه ، وفى جلوسه متكئا . وتظهر فى مشيته ، وتبختره ، وقيامه وقعوده ، وحركاته وسكناته ، وفى سائر تقلباته فى أحواله وأقواله وأعماله .

(١) ٣٥٥ ج ٣ .

(٢) من ٣٥٧ ج ٣ .

وازالة الكبر - فيما يرى الغزالي - فرض عين ، وهو لا يزول
بمجرد التمني ، بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له •

علاجه

ولعلاجه طريقتان :

الأولى - قلع شجرته من مغرسها فى القلب ، وذلك بمعرفة المرء
تحفسه بالذلة ، وربّه بالعزة ، الى آخر ما قال الغزالي •

الثانية - دفع عارض الكبر ، بدفع الأسباب الخاصة التى يتكبر بها
الانسان على غيره ، وأنت لا تزال قريبا من تلك الأسباب السبعة التى
توجب التكبر فيما يراه ، وقد وضع لكل سبب علاجا خاصا ، غير أنه
لا يفترق كثيرا عما لخصناه له من علاج العجب ، فلنكتف به ، فان
أسباب هاتين الرذيلتين تكاد تكون واحدة ، وان كانت الثانية نتيجة
لأولى •

الفصل السادس

آفات اللسان

وقد رأى الغزالي أن اللسان كثير العثرات ، ولا بد للمرء من
خبطه ، فبسط القول فى آفاته ، وكتب فى ذلك نحو خمسين صفحة ،
بين فيها حدود تلك الآفات ، وأسبابها ، وغوائلها ، وطريق الاحتراز
عنها •

وقد مهد لآفات اللسان بكلمة مطولة حض فيها على الصمت ، ثم
قال فى تبرير ما دعا اليه من الأخلاق الى السكوت : « فان قلت : فهذا
بالفضل الكبير للصمت ما سييه ؟ فاعلم أن سييه كثرة آفات اللسان من

الخطأ ، والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والرياء ، والنفاق ، والفحش ،
والمرأ ، وتزكية النفس والخوض في الباطل ، والخصومة ، والفضول ،
والتحريف ، والزيادة ، والنقصان ، وإيذاء الخلق ، وهتك العورات •

فهذه افات كثيرة ، وهى سبابة الى اللسان لا تثقل عليه ، ولها
حلاوة في القلب ، وعليها بواعث من الطبع ، ومن الشيطان • والخائض
فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يجب ، ويمسكه ويكف عما
لا يجب ، فان ذلك من غوامض العلم •

ثم خشى أن يرميه القارئ بالاسراف فقال : « ويدلك على فضل
لزوم الصمت أمر : وهو أن الكلام أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ،
وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا
منفعة • أما الذى هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه وكذلك ما فيه
من ضرر ومنفعة لا تنفى بالضرر • وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو
فضول ، والاشتغال به تضييع زمان ، وهو عين الخسران •

فلم يبق الا القسم الرابع ، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام • وبقي
ربع ، وهذا الربع فيه خطر اذ يمتزج بما فيه اثم من دقائق الرياء ،
والتصنع ، والغيبة ، وتزكية النفس ، وفضول الكلام ، امتزاجا يخفى
دركه ، فيكون الانسان به مخاطرا ^(١) » •

وهذا من الغزالي اغراق في حب السلامة • ونحن ذاكرون
خلاصة هذه الافات ، لنعرف رايه في طبائع الافراد •

الكلام فيما لا يعنى

أما الآفة الأولى : فهى الكلام فيما لا يعنى ، وحده - كما قال
الغزالي - أن تتكلم بكل ما لو سكت عنه لم تأثم ، ولم تستضرر به فى
حال أو مآل ، ومن أمثلته فيما يرى أن يذكر المرء أسفاره وما رأى فيها

(١) ص ١١٨ ج ٣ احياء •

من جبال وأنهار ، وما وقع له فيها من الوقائع وما استحسنته من الأطعمة والياب ، وما تعجب منه من مشايخ البلاد وحوادثهم •

ولم ينتبه الغزالي لخطر هذا المثال • فان الكلام عن الأسفار والرحلات من الأمور ذوات البال ، والتحدث عن طبائع البلاد وأخلاق الناس من المستحسنات • ونحن مدينون بما نعلم من عادات الأمم وأخلاقها الى هؤلاء الذين يتحدثون بما لا يعنيههم فيقصون علينا ما رأوا في أسفارهم من الجبال ، والأنهار ، والأطعمة والياب ، وان عد الغزالي حديثهم ولو احترزوا تضييعا للزمان •

ومما أصاب في عده مما لا يعنى أن ترى انسانا في الطريق فتقول من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره ، فان ذكر تأذى به واستحيا ، وان لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب فيه • وكذلك سؤالك امرأ عن المعاصي ، وعن كل ما يخفيه ويستحي منه ، وسؤالك عما حدث به غيرك •

والباعث على هذه الآفة - فيما يرى - هو الحرص على معرفة مالا حاجة به اليه ، أو المباشطة بالكلام على سبيل التودد ، أو تزجية الاوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها •

وأما علاج ذلك فهو أن يعلم أن الموت بين يديه ، وأنه مسئول عن كل كلمة ، وأن أنفاسه رأس ماله ، وأن لسانه شبكة يقدر على ان يقتنص بها الحور العين ، فاهماله ذلك وتضييعه خسران مبین •

يقول الغزالي : « هذا علاجه من حيث العلم ، وأما من حيث العمل فالعزلة ، وأن يضع حصاة في فيه ، وأن يلزم نفسه السكوت عن بعض ما يعنيه ، حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه ^(١) » (١٩)

(١) ص ١٢١ ج ٢ - احياء -

فضول الكلام

أما الآفة الثانية فهي فضول الكلام • وهو يتناول الخوض فيما لا يعنى ، والزيادة فيما يعنى على قدر الحاجة • فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره • قال الغزالي : « ومهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين ، فالثانية فضول وهو مذموم وإن لم يكن فيه اثم ولا ضرر^(١) » •

وسبب هذه الآفة وعلاجها مماثلان لسبب وعلاج الكلام فيما لا يعنى

الخوض فى الباطل

وأما الآفة الثالثة فهي الخوض فى الباطل • وعد الغزالي منه حكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ، ومقامات الفساق ، وتنعم الأغنياء • وتجبر الملوك ، ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة وقرر أن مثل هذا لا يحل الخوض فيه وهو حرام ، بخلاف الكلام فيما لا يعنى أو أكثر مما يعنى فهو ترك الأولى • ويدخل الغزالي فى هذا الباب الخوض فى حكاية البدع والمذاهب الفاسدة ، وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن فى بعضهم • ثم قال : « وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفنتها فلذلك لا مخلص منها الا بالاختصار على ما يعنى من مهمات الدين والدنيا^(٢) » •

المراء والجدال

أما الآفة الرابعة فهي المراء والجدال • والمراء كما حده الغزالي

(١) ص ١٢١ احياء ج ٢

(٢) ص ١٢٢ ج ٣ •

هو كل اعتراض على كلام الغير باظهار خلل فيه • اما فى اللفظ ، واما فى المعنى ، واما فى قصد المتكلم » •

وترك المراء فيما يرى يكون بترك الانكار والاعتراض ، فكل كلام سمعه المرء صدق به ان كان حقا ، وسكت عنه ان كان باطلا أو كذبا • ولم يكن متعلقا بأمور الدين • وليس له أن يطعن فى كلام غيره باظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة ، أو من جهة النظم والترتيب ، أو من جهة المعنى ، أو من جهة القصد : كأن يقول هذا كلام حق ، ولكن ليس قصدك منه الحق ، وانما أنت فيه صاحب غرض • يقول الغزالي : « وهذا الجنس ان جرى فى مسالة علميه ربما خص باسم الجدل • وهو أيضا مذموم ، بل الواجب السكوت أو السؤال فى معرض الاستفادة لا على وجه العناد • أو التلطف فى التعريف لا فى معرض الطعن » •

« وأما المجادلة فعبارة عن قصد افحام الغير ، وتعجيزه ، وتنقيصه بالقدح فى كلامه ، ونسبته الى القصور والجهل فيه » •

والباعث على المراء والجدال فيما يرى الغزالي هو الترفع باظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير باظهار نقصه ، وهما شهوتان باطنان للنفس يرجعان الى السبعية والكبرياء •

وأما العلاج فيكون بكسر الكبر الباعث له على اظهار فضله ، والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره (والسبعية فى عبارات المتقدمين هى القوة الوجدانية المشتركة بين الانسان وبين كبار الحيوانات : فالانتقام قوة سبعية لأنه من صفات الجمل ، والعفة عن اكل ما يكسب الغير قوة سبعية لأنه من صفات الأسد ، اذ لا يأكل غير فريسته) •

الخصومة

أما الآفة الخامسة فهى الخصومة • وهى لجأج فى الكلام ليستوفى به مال أو مقصود • قال الغزالي : « فان قلت : فاذا كان للاسان حق

فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه ، مهما ظلمه ظالم ، فكيف يكون حكمه ، وكيف تدم خصومته ؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بتغيز علم ، ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية لا يحتاج إليها في نصرته الحجة وإظهار الحق . ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره فاما الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لد واسراف وزيادة الجاج على قدر الحاجة ومن تغيز قصد عناد وايداء ففعله ليس بحرام ، ولكن الأولى تركه ما وجد اليه سيلا » ♦

وقد بين الغزالي كيف توغر الخصومة الصدر ، وتهيج الغضب حتى ينسى المتنازع فيه ، ويبقى الحقد بين المتخاصمين : فيفرح كل واحد بمساة صاحبه ، ويحزن بمسرته ، ويطلق اللسان في عرضه ♦ فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات ♦

التقعر في الكلام

الآفة السادسة هي التقعر في الكلام بالتشديق ، وتكلف السجع ، والفصاحة ، والتصنع فيها بالتشبيها والمقدمات ، وما جرت به عادة المتفصحين ♦

والغزالي يفرق بين من يلقي خطبة ، وبين من يتكلم كلاما عاديا ، ولا خرج على الخطيب فيما يرى الغزالي أن يلجأ الى المحسنات اللفظية ، في غير افراط أو اغراب ، فان المقصود من الخطبة تحريك القلوب ، وتشويقها ، وقبضها ، وبسطها ، ولرشاقة اللفظ في ذلك كله تأثير ♦

أما المحاورات التي تجرى لقضاء الحاجات ، فالغزالي ينكر أن يكون فيها أى مظهر من مظاهر التكلف كالسجع أو غيره « بل ينبغي أن يقتصر المرء في كل شيء على مقصوده ، ومقصود الكلام التفهيم للغرض ، وما وراء ذلك تصنع مذموم » ♦

والآفة الخلقية للتصنع فيما يرى الغزالي ترجع الى الباعث عليه وهو الرياء ، وحب الظهور بالفصاحة ، والتميز بالبراعة •

الفحش

الآفة السابعة هي الفحش ، وهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة • وهذه العبارات متفاوتة في الفحش ، وبعضها أفحش من بعض ، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد • وقد ذكر الغزالي من ذلك ما يجرى في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به ، والصوب التي يستحيا منها كالبرص والقراع والبواسير ، ثم حض على استعمال الكناية في مثل تلك المواطن •

والباعث على الفحش فيما يرى : اما قصد الايذاء ، واما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق ، وأهل الخبث واللؤم •

وقد عد الغزالي الفحش والسب والبهذاء آفة واحدة ، وأضاف إليها « البيان » الوارد في حديث (البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق) وفسر هذا البيان بكشف ما لا يجوز كشفه ، أو المبالغة في الايضاح حتى ينتهي الى حد التكلف • أو البيان في أمور الدين ، وفي صفات الله أمام العوام ، اذ قد يثور من غاية البيان فيها شكوك ووساوس •

اللعن

أما الآفة الثامنة فهي اللعن ، لحيوان أو انسان أو جماد ، وكل ذلك مذموم •

وللغزالي في هذا الباب نظر دقيق : فهو لا يجيز أن تقول في رجل حي من اليهود مثلاً لعنه الله ، كما تقول لعن الله ابا جهل وفعرون ، فانه ربما يسلم فيموت مقرباً عند الله ، ولا يجيز أن يلعن المبتدع لأن معرفة البدعة غامضة • ومن بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه

ان لم يكن فيه اذى لمسلم ، فان كان لم يجرز • ولا يجوز لمن يزيد ،
لأنه لا يجوز ان يقال انه قتل الحسين ، أو امر بقتله ما لم يثبت ذلك •
فضلا عن اللعنة : اذ لا تجوز نسبة مسلم الى كبيرة من غير تحقيق ، ولا
يجوز ان يرمى مسلم بفسق وكفر من غير تحقيق » •

قال الغزالي : « والمؤمن ليس بلعان ، فلا ينبغي أن يطلق اللسان
باللعنة الا على من مات على الكفر ، او على الأجناس المعروفين بأوصافهم
دون الأشخاص المعينين »

المزاح

الآفة التاسعة هي المزاح ، والمذموم منه فيما يرى الغزالي هو
الافراط فيه ، أو المداومة عليه • فلك أن تمزح كما كان يمزح رسول
الله : فلا تقول الا حقا ، ولا تؤذى قلبا ، ولا تفرط فيسقط وفارك •

الاستهزاء

أما الآفة العاشرة فهي الاستهزاء • وحده كما قال الغزالي :
« الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك وقد
يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالاشارة والايماء »
وقد نص الغزالي على ان هذا انما يحرم في حق من يتأذى به ،
فأما من جعل نفسه مسخرة ، وربما فرح من أن يسخر به ، كانت
السخرية في حقه من جملة المزاح فله حكمه ، لأن المحرم هو استصغار
يتأذى به المستهزأ به ، لما فيه من التحقير •

افشاء السر

الآفة الحادية عشرة هي افشاء السر ، وهو مذموم لما فيه من الايذاء
والتهاون في حق المعارف والأصدقاء ، يقول الغزالي : « وهو حرام اذا
كان فيه اضرار ، ولو لم ان لم يكن فيه اضرار »

وقد عد من حقوق الاخ على أخيه في كتاب الصحبة : « أن يسكت عن افشاء سره الذي استودعه ، وله أن ينكره وان كان كاذبا ، فليس الصدق واجبا في كل مقام ، فانه كما يجوز للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره وان احتاج الى الكذب ، فله أن يفعل ذلك في حق أخيه . فان أخاه نازل منزلته ، وهما كشخص واحد لا يختلفان الا بالبدن » .

الوعد الكاذب

الآفة الثانية عشرة هي الوعد الكاذب ، وقد بين الغزالي أن ذلك يكون بالوعد على نية الخلف ، أو ترك الوفاء من غير عذر ، ولا جناح على من عزم على الوفاء فعن له عذر فممنه .

الكذب في القول واليمين

الآفة الثالثة عشرة هي الكذب في القول واليمين . وقد نص الغزالي على « أن الكذب ليس حراما لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره فان أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلا ، وقد يتعلق به ضرر غيره ورب جهل فيه منفعه ومصلحة فالكذب المحصل لذلك الجهل يكون مأذونا فيه وربما كان واجبا » وقد بينا المواطن التي أباح الغزالي فيها الكذب حين تكلمنا عن رأيه في الوسائل والغايات .

الغيبة

الآفة الرابعة عشرة هي الغيبة . وحدها « أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص في بدنه ، أو نسبه ، أو في خلقه ، أو في فعله ، أو في قوله ، أو في دينه ، أو في دنياه ، حتى في ثوبه وداره ودابته » .

وقد نص على أن التصريح ليس شرطا في تحقيق الغيبة ، بل تكفى
الاشارة ، والايماء ، والغمز ، والهمز ، والكتابة ، والحركة ، وكل
ما يفهم منه المقصود .

وللغيبية أسباب نذكر منها الأربعة الآتية :

(١) موافقة الأقران ، ومنجاملة الرفقاء ، ومساعدتهم على الكلام .

(٢) ارادة التصنع ، والمباهاة ، كأن يرفع المرء نفسه بتنقيص

غيره .

(٣) اللعب ، والهزل ، والمطايبة ، وتزجية الوقت بذكر عيوب

الناس .

(٤) البراءة مما ينسب المرء اليه بتنقيص من يفعله .

وقد تنبه الغزالي الى ما يقع فيه علماء الدين ، فقد ينكرون المنكر ،
ويضعون في صاحبه ، وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا ، مع انهم يكفيهم
أن يشخصوا المنكرات بلا تعرض للأشخاص ، وقد يغضبون لله حين
يامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ولكنهم يذكرون أشخاصا بالسوء ،
فيحبطون ما يعملون .

والغزالي يصف لعلاج الغيبة قراءة الآثار والاحاديث الواردة في
هذه الافه . وقد عد سوء الظن غيبة القلب ونهى عنه ثم ذر المواطن
التي تجوز فيها الغيبة ، وقد فصلناها أيضا في الوسائل والغايات ، كما
بيننا رأيه في كفارة الغيبة في الخروج من المظالم .

النيمة

الآفة الخامسة عشرة هي النيمة . وهي كما يقول الغزالي « كشف
ما يكره كشفه ، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول اليه ، أو كرهه
ثالث . وسواء كان الكشف بالقول ، أو بالكتابة ، أو بالرمز ، أو

بالإيماء • وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن ^(١) ، •

ولم يقتصر الغزالي على تقبيح النسيمة ، وعدّها من آفات اللسان ، بل وضع للرجل آداباً خاصة إزاء المنام • وهى :

(١) أن لا يصدقه ، لأن المنام فاسق ، وهو مردود الشهادة •

(٢) أن ينهأ عن ذلك ، وينصح له ، ويقبح عليه فعله •

(٣) أن يبغضه في الله ، فإنه بغض عند الله •

(٤) أن لا يظن باخيه الغائب السوء ، فإن بعض الظن اثم •

(٥) أن لا يحمل ما حكى له على التجسس ، والبحث لأجل التحقق •

(٦) وأن لا يحكى النسيمة ، والا رضى لنفسه ما نهى المنام عنه •

قال الغزالي : « والسعاية هى النسيمة ، الا أنها اذا كانت الى من يخاف جانبها سميت سعاية » ثم نقل قول مصعب بن الزبير : « نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية ، لان السعاية دلالة والقبول اجازة ، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازة ، فاتقوا الساعي ، فلو كان صادقاً فى قوله لكان لثيماً فى صدقه ، حيث لم يحفظ الحرمة ، ولم يستر العورة » ^(٢) •

ولا شك فى أن الغزالي يرتضى حكم مصعب فى قبول السعاية ، لأنه لم يعقب عليه ، ولم يذكر من أقوال السلف ما ينقضه • والسعاية والنسيمة شيء واحد ، أو كأنهما شيء واحد ، فمن الواجب أن تكون

(١) ص ١٥٧ ج ٣ •

(٢) ص ٢٥٨ •

آداب المرء واحدة ازاء النمامين والسعاة ، وهو ما تحسبه رأى الغزالي وان لم يصرح به •

وفى الوسائل والغايات تجد ما يجوز من النيمة فيما يرى الغزالي •

نلام ذى اللسانين

الآفة السادسة عشرة هي كلام ذى اللسانين الذى يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه وهو فيما يرى الغزالي نفاق « ولو دخل الرجل على متعادين وجامل كل واحد منهما وان صادقا لم يكن ذا لسانين ولم يكن منافقا ، فان الواحد قد يصادق متعادين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهى الى حد الأخوة ، اذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الاعداء ، نعم لو نقل كلام كل واحد منهما الى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النيمة ، اذ يصير نماما بان ينقل من احد الجانبين فقط ، فاذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام • وان لم ينقل كلاما ، ولكن حسن لكن واحد منهما ما هو عليه من المعادة لصاحبه فهذا ذو لسانين وكذلك اذا اثنى على أحدهما واذا خرج من عنده ذمه فهو ذو لسانين • بل ينبغى أن يسكت ، أو يثنى على المحق من المتعادين فى غيبته وفى حضوره ، وبين يدي عدوه ••• ولا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الراس فى معرض التقرير على كلام باطل ، فان فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغى أن ينكر ، فان لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه (١) » •

الملح

الآفة السابعة عشرة هي الملح ، وهو منهى عنه فى بعض المواضع ،

(١) ص ١٦٠ ج ٣ •

وفى بعضها لا بأس به ، بل ربما كان مندوبا اليه ، وقد بين الغزالي أن لهذه الرذيلة أربع آفات فى حق المدح ، واثنين فى حق المدوح ، أما آفاتهما فى حق المدح فهى :

(١) أنه قد يفرط فينتهى به الإفراط الى الكذب •

(٢) وقد يدخله الرياء ، فانه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضمرا له ، ولا معتقدا لجميع ما يقوله ، فيصير به مرآيا منافقا •

(٣) وقد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له الى الاطلاع عليه ، ويرى الغزالي أن هذه الآفة تنطرق الى المدح بالأوصاف المطلقة التى نعرف بالأدلة : كقولك انه متق ، وورع وزاهد ، وخير ، وما يجرى مجراه •

(٤) وقد يفرح المدوح ، وهو ظالم أو فاسق ، وذلك غير جائز •

أما آفاتهما فى حق المدوح فهى :

١ - أن المدح قد يحدث فيه كبرا واعجابا وهما مهلكان •

٢ - وأنه اذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتّر ، ورضى عن نفسه ، فقل جده •

وبعد أن بين الغزالي آفات المدح ، دعا المدوح الى أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر ، والعجب ، وآفة الفتور ، بأن يتأمل ما فى خطر الخاتمة ، ودقائق الرياء ، وآفات الأعمال ، فانه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المداح ، ولو انكشفت له جميع أسرارها وما يجرى على خواطره ، لكف المداح عن مدحه ؛ وحضه كذلك على أن يظهر كراهة المدح باذلال المداح •

الغفلة

الآفة الثامنة عشرة هي الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمور الدين •
ومن الأمثلة التي ذكرها الغزالي أنه لا يصح أن تقول عبدي وأمتي ، لأننا جميعا عبيد الله ، ونساؤنا جميعا إماء الله ، بل تقول غلامي وجاريتي *** الخ •

السؤال عن صفات الله

الآفة التاسعة عشرة هي سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه ، وعن الحروف ، وأنها قديمة أو محدثة • يقول الغزالي : « وكل كبيرة يرتكبها العامي فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم ، لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته ، وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات ، والإيمان بما ورد به القرآن ، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث • وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل ، ويتعرضون لخطر الكفر • وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة » •

الفناء

الآفة العشرون هي الفناء ، وتجدد تفصيلها في البحث عن رأيه في الفنون •

وانه ليخيل الى المرء أن الغزالي بالغ في آفات اللسان ، ولكن هذه المبالغة ليست الا نوعا من الاحتياط ، وهي ليست كبيرة على من يطمع في مكارم الأخلاق •

الفصل السابع

رديلة الرياء

انك لترجم الغزالي حين تقرا ما ذنبه عن الرياء ، فانك تتصوره رجلا ناد يجن من غلبة الجهال في عصره . ويكفى أن تلخص آراءه في هذا الباب لترى كيف كان الرجل يمقت الرياء ، ويبغض من أعماق صدره أعمال المرائين .

فمما يمقته الغزالي أن يظهر المسلم النحول والصفار ، ليدل بالنحول على فلة الأكل وبالصفار على شهر الدلي . يقول الغزالي : « ويقرب من هذا خفض الصوت ، واغارة العينين ، وذبول الشفتين ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم ، وأن وقار الشرع هو الذي خفض صوته ، وضعف الجوع هو الذي أضعف من قوته »

ومن الرياء تشيعث الشعر ، وحلق الشارب ، واطراق الرأس في المشي ، والهدوء في الحركة ، وإبقاء أثر السجود على الوجه ، وغلظ الثياب ، وتشميرها الى قريب من الساق ، وتقصير الأكمام وترك تنظيف الثوب ، والتطويل في الركوع والسجود . . . الخ .

ولم يغفل الغزالي عن الشؤون الاجتماعية وهو يتكلم في الرياء فقد بين أن من الناس من يظهر التقوى والورع والامتناع عن أكل الشبهات ، ليعرف بالامانة فيولى القضاء ، أو الأوقاف ، أو الوصايا ، أو مال الايتام ، فيأخذها . أو يسلم اليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستاتر بما قدر عليه منها . أو يودع الودائع فيأخذها ويبيحها . أو تسلم اليه الأموال التي تنفق في طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها . . . الخ .

وللغزالي في هذا الباب نظر بعيد : فهو يعين العيوب الاجتماعية ، ويشرح عيوب العلماء والزهاد . ويظهر أن الناس لهذه كانوا يتخذون دين الله سلما لأغراضهم الخيثة : من الفسق والفجور ، ونهب الأموال .

وأكرر ما قلته من أن الغزالي لا يغضب إلا حين يحارب رذيلة
 يراها بعينه ، فكلامه في ذلك صورة لعصره ، وليس أثرا لمطالعاته في
 الكتب القديمة التي تصف عيوب الناس + وفي مقدور الباحث أن
 يستخرج من كتاب الأخياء صورة واضحة للعلماء والزهاد في عهد
 الغزالي + ولا أقول الحكماء والأمراء ، لأنه تكلم عن الحكومة لعهد
 بضعف وفتور ، ولم يقاس السلاطين شيئا من لسانه الحديد !!

الباب التاسع

في العلوم والفنون والتربية

نذكر في هذا الباب خلاصة لأراء الغزالي في العلم والعمل والفرق بين علم الدنيا وعلم الآخرة ، وكيف يفهم علم الفقه ، وعلم التوحيد ، ثم نذكر بالايجاز فهمه للفنون الجميلة ، ثم نبين المنهج الذي وضعه لتربية الاطفال ، وما يراه من آداب المعلمين والمتعلمين ، وذي ف اهمل تربية البنات .

الفصل الاول العلوم

تكلم الغزالي عن العلم والعمل ، وايهما أفضل للمريد ، في مواطن كثيرة من مؤلفاته في الأخلاق .
وقد لاحظت أنه لم يكن موحد الرأي في هذا البحث ، فتارة يقدم العلم على العمل ، وأخرى يقدم العمل على العلم . ويخيل الى أن نزعتة الصوفية كانت سبب هذا التردد ، بل وأحسب أيضا أنه كان يداري أهل عصره ، ويسايرهم في كثير من الشئون . فقد أراه يهتم بالكشف عن المقصود من العلم المفضل عن العمل ثم يتراجع . ولو جرو قليلا لين لنا أن العلم النافع لا يقتصر على معرفة العبادات ، وما اليها من دقائق التصوف والتوحيد ، بل هنالك البحث في طبائع الأشياء ، والتنقيب عن السر في أن الله سخر لنا ما في الأرض جميعا .

غير أنه لم يكذب يذكر قوله عليه السلام : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر » ، حتى اندفع يقول « ذلك العلم المقدم على العمل لا يخلو : إما أن يكون هو العلم بكيفية العمل ، وهو الفقه وعلم العبادات ، وإما أن يكون علماً سواه . وباطل أن يكون الأول لوجهين : أحدهما أنه فضل العالم على العابد ، والعابد هو الذي له العلم بالعبادة ، والا فهو عابث فاسق ، والثاني أن العلم بالعمل لا يدون أشرف من العمل ، لأن العلم بالعمل لا يراد لنفسه ، وإنما يراد للعمل ، وما يراد لغيره يستحيل أن يكون أشرف منه » .

وكان المطنون بعد هذه المقدمة أن يعطى العلوم ما تستحق من التفضيل . ولأنه قسمها الى قسمين : عملي ونظري . أما العملي فقد قدم انه ليس افضل من العمل ، وأما النظري فقد زيفه جميعه ، ولم يستبق منه الا ما يرجع « الى العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وملكوته السموات والأرض وعجائب النفوس الانسانية والحيوانية من حيث انها مرتبطة بقدرة الله عز وجل لا من حيث ذواتها » .

مناقشة قصيرة

من هنا يتبين أن واجب العابد لا يخرج عن العبادة والتفكير في المعبود ، وما الى ذلك من معرفة الملائكة والكتب والرسل وملكوته السموات والأرض الى آخر ما قال .

ونسأل الغزالي : ما رأيه اذا توقف فهم الكتب السماوية على ادراك روح التشريع ، بفهم أصول القوانين ؟

وما رأيه اذا توقف فهم « عجائب النفوس الانسانية والحيوانية » على علم النفس ، وعلم وظائف الأعضاء ؟

وما رأيه اذا اقتضت معرفة الرسل درس التاريخ القديم والحديث ،

نفهم ما قد يضطر اليه المشرعون من الرسل والأنبياء فى مختلف العصور ؟

وما رأيه اذا توقف ادراك ما فى الكتب السماوية من سياسة الناس على علم الاجتماع ؟

لم ينكر الغزالى أهمية العلوم العقلية ، والنقلية ؛ ولكنه جعل بعضها وسيلة للعلوم النظرية ، والوسيلة بالطبع دون الغاية فى الرتبة . وجعل بعضها علوما عملية ، وهى أيضا وسيلة للعمل ، فلا يعقل أن تكون أشرف منه !

فلم يبق من العلم المقدم على العمل الا العلم بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ؛ وهو فى ذاته علم شريف .

ولكنى أحب أن أضع هذا السؤال : أياكون من يشغل نفسه بهذا النوع من المعرفة أفضل أمام العقل والشرع ممن أفنى عمره فى درس الطب حتى استطاع أن يعرف كيف تغزى الديدان التى تحدث البول الدموى ، والذى تهلك فى كل عام ما يعد بالملايين ؟ وهل يقدم مجيى الدين بن عربى يوم القيامة ، على من يقضى حياته لا فى التفكير فى ملكوت الله ، بل فى غزو السل والسرطان ؟

الشك عن طريق اليقين

وبمناسبة العلم ثبت قول الغزالى فى نهاية الميزان « ولو لم يكن فى مجارى هذه الكلمات الا ما يشكك فى اعتقادك الموروث لتتدب للطلب ، فناهيك به نفعاً . اذ الشكوك هى الموصلة للحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى فى العمى والضلال » .

غير أن الغزالى لم يبين لنا مصير المرء اذا بقى فى شكه ، ولم يهتد

الى اليقين • وما نحسب عصر الغزالي كان يسمح له بتحرير هذه المسألة ، وان كانت غاية في الوضوح فمتى كان المرء حراً في أن لا يثق بعقيدة قديمة مهما أجمع عليها الناس لاحتمال أن تكون باطلة ، فهو بالضرورة غير مسئول عن الوصول الى نتيجة معينة ، وانما يسأل عن اعتقاد ما اداه اليه الدليل •

ولا يفوتنا أن نلفت النظر الى أن الغزالي نبه في عدة مواطن من كتبه الى أنه يجب على المعلم ان يتجنب كل ما يثير الشك في نفوس الضعفاء ، وحض المرشد على الاختصار مع العامة على المتداول المألوف • ومعنى هذا أن الشك وان كان سبيل اليقين ، الا أنه لا يستعمل الا بمقدار • وهذا المنهج يبين لنا أن الغزالي يحرص على وحدة الهيئة الاجتماعية ، وينفر من كل ما يقربها من الانحلال • فللعلماء أن يشكوا وأن يختلفوا ، ولكن عليهم أن يجنبوا العامة مواطن الشك والخلاف ، ومن هنا نفهم كيف يرى ان الاجابة على بعض الاسئلة حرام • وسنعود الى هذا البحث عند الموازنة بينه وبين الفلاسفة المحدثين •

علم الفقه

ولقد بلغ من اغراب الغزالي في التصوف أن جعل الفقه من علوم الدنيا ، وألحق الفقهاء بعلماء الدنيا • وأنت تعلم قيمة الدنيا عنده ! ولكن أليس الفقه هو معرفة القوانين التي يُساس بها الناس ؟ ليكن كذلك ! اذ ما قيمة هؤلاء الناس ؟ أليس الله أخرج آدم من التراب ، وأخرج ذريته من سلالة من طين ، ومن ماء دافق ، فأخرجهم من الأصلاب الى الأرحام ، ومنها الى الدنيا ثم الى القبر ، ثم الى العرض ، ثم الى الجنة أو النار ؟ واذا كان هذا مبدأهم ، وهذه غايتهم ، وكانت الدنيا زادهم ، فما قيمة الفقه ، وما هي أقدار الفقهاء ؟ أليسوا يفصلون في خصومات لو عدلنا ما احتجنا الى أن يفصلوا فيها ، ولما كان لهم قيمة في هذا الوجود ؟

هذا هو منطق الغزالي !

والحمد لله الذى رحم الشرق وأهله من علم الفقه ، ومن عليهم
بالقوانين الأجنبية التى يقدم اليها اصحابها آيات التقديس ، عند الشروق
وعند الغروب !

الفقه لا قيمة له فى نظر الغزالي ، لأنه يتعلق بسياسة هؤلاء الناس
المناكيد الذين اضطرونا بشرهم الى الفقه والفقهاء ، والذين لو عدلوا لما
احتجنا الى قاض ولا الى فقيه !

صدقت يا مولانا الأستاذ ! ولكن اسمح لنا بأن نذكرك بأن النبي
كان فقيها ، وكانت شريعته فقهها ، وهل الفقه شئ آخر غير قواعد الفصل
فى الخصومات ؟

وهل بلغ من هوان الدنيا عندك أن تحقر لأجلها الفقه والتشريع ؟
انركوا الدنيا لأصحابها يا جماعة الصوفية ! اتركوا الدنيا للمسلمين
فان الله لم يبعث محمدا الا ليتمكن للمؤمنين فى الأرض ويجعلهم أئمة ،
ويجعلهم الوارثين •

علم التوحيد

وأما التوحيد فهو عند الغزالي وقف فى جوهرة على علماء
المكاشفة •

وما هو علم المكاشفة ؟

هو علم لا نعرفه ، ولكن يقال ان سوء الخاتمة مُعدٌ لمن ليس له منه
نصيب !!

ويقال ان أدنى نصيب من هذا العلم هو التصديق به ، وتسليمه
لأهله ! ويقال كذلك ان أقل عقوبة من ينكره ألا يذوق منه شيئا !

وما هي غاية هذا العلم ؟

غايته أن تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله وبصفاته الباقيات
التامات !

وأنا لا أدري سبب هذه الشهوة الغريبة التي تحمل علماء الدين
على البحث عن ذات الله وصفاته ، ولا أعلم كيف عميت قلوبهم حتى
اندفعوا يذكرون عن ذات الله وصفاته ما يجب أن يتورع عنه المؤمنون !
يطمع الغزالي في معرفة ذات الله معرفة حقيقية ، وهذا والله عين
الجهل ، ونفس الضلال ! ويطمع كذلك في معرفة صفاته التامات ، وهو
الذي بلغ به الأدب مع الأشاعرة والمعتزلة إلى الاختلاف في صفات الله ،
وفي كلامه ، وفي أفعاله ، وفي رؤيته بالابصار يوم القيامة ، إلى غير ذلك
من المباحث التي لا يقدم عليها غير غمى القلوب !

وانظر ان الغزالي ومن على شاكلته لم يشهدوا المعركة القائمة
بين الهدى والضلال ، ولم يروا يوما واحدا كيف تتصاول العقول ؟ فان
البحث عن ذات الله وصفاته حمق وسفه ، وانما سبيل المؤمنين أن يتأملوا
ما يحيط بهم من جلال الوجود ، وأن يبحثوا في المراد من أن الله سخر
لهم ما في الأرض جميعا ، فانه ليس للعاقل أن يترك الانتفاع بما تلمس
يده ، وترى عينه ، ليغيب في مجاهل من الظنون ، يسميها سفها علم
التوحيد .

وما أسفت لشيء أسفى لانحصار الأفكار الاسلامية « في معرفة
معنى النبوة والنبي ومعنى الوحي ومعنى الشيطان ومعنى لفظ الملائكة
والشياطين وكيفية معاداة الشياطين للانسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ،
وكيفية وصول الوحي اليهم ، والمعرفة بملكوت السموات والارض ،
ومعرفة القلب وكيفية تصادم الملائكة والشياطين ومعرفة الفرق بين لمة
الملك ولمة الشيطان ، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراط

والميزان والحساب ، ومعنى لقاء الله والنظر الى وجهه ، ومعنى القرب منه والتزول فى جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملائة الأعلى ، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الدرى فى جوف السماء ، *

فان هذه فى الأصل أكثرها رموز ظنها المسلمون حقائق ، فوضعوا لها ضروباً من التفسير والتأويل *

والذى يطالع الكتب القديمة يرى جمهور الفقهاء أعلم بخريطة الآخرة منهم بخريطة الدنيا : فهم يعرفون من أنهار الجنة ما لا يعرفون من أنهار هذا العالم ، ويعلمون من أبواب جهنم ما لا يعلمون من أسباب انحطاط الأمم وضعف الشعوب ، ويدركون من نعيم الآخرة ما لا يدركون من معنى الملك والقوة فى هذا الوجود ، وفى مقدور المرء أن يجد مئات الكتب فى وصف الحشر والنشر ، ولا يجد كتاباً واحداً فى تحديد المراد من الخلافة الإسلامية ، التى قامت بسببها آلاف الفتن ، ومئات الحروب *

والغزالي من الذين ساعدوا على بقاء هذه العماليمة ، فقد وضع الكتب المطولة فى يئفيه العزلة ، ولما اراد أن ينقد الشئون الاجتماعية ، وضع كتابه « التبر المسبوك فى نصيحة الملوك » ، فكان آية فى السخف والاضطراب *

والى من نقاضى هؤلاء العلماء ؟

نقاضهم الى القرآن : ففيه الدعوة الى الملك ، والى أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين * وهل الاخلاق شىء آخر غير حرب الذلة والقللة : فى الافراد ، والجماعات ، والشعوب ؟

نقول هذا ونطالب كل مسلم بالحذر البالغ عند مطالعة كتب المتقدمين ، فان أكثرهم لم يعرف السياسة ، ولا شئون الاجتماع * والا

فاين غرر المؤلفات فى الأمور السياسية والاجتماعية ؟ وأين البصر النافذ الى أعماق الحياة الدولية ؟ بل واين الخبرة بالسريرة الانسانية ، التى حسبوها لا تعدو طلاب الجنة من الزهاد ، والعباد ، من كل راض بالفقر ، قانع بالسؤال ؟

الفصل الثانى الفنون

أباح الغزالى أن يحب المرء لجماله ، فكان ذلك منه اعترافا بالحاسة الفنية ، التى يدرك بها الأديب ، والفنان ، والفيلسوف ، ما فى العالم من دقائق الجمال •

وتجد فى حقوق الأخوة من هذا الكتاب أن الغزالى ضرب المثل بالنظر الى الفواكه ، والأنوار ، والأزهار ، والتفاح المشرب بالحمرة ، وإلى الماء الجارى والخضرة • ومعنى هذا أن الانسان متى جاز له ، وبعبارة أدق ، متى أمكن له أن يحب هذه الأشياء بلا نية سيئة ، فقد يمكن له أن يحب الرجل الجميل بلا غرض خبيث •

وشاهدنا فى هذه الفكرة ، هو أن الغزالى يؤمن بأن للروح شيئا من السلطان ، وله بعض الحقوق • فانه متى جاز أن يحب الرجل لجماله ، والجمال فى الرجال كثير ، فقد أصبح للروح الحق فى أن يتمتع بكل جميل ، متى استطاع أن يتحلى بالعفاف • وهذا فيما أرى اعتراف من الغزالى بضرورة وجود الفنون الجميلة لتتمتع بها الأرواح ، كما يجب أن تملأ الخزائن والأسواق ، لتجد الأجسام ما تحتاجه من الغذاء •

ويحسن أن نذكر ما لاحظناه على الغزالى حين تكلم عن التشريح : فقد قرر أنه يسير بفريق من العلماء الى أن النفس تموت ؟ فانا سألناه .

هل يقضى ذلك بتحريم التشريح ؟ وبالطبع ليس عند الغزالي جواب على هذا السؤال !

وكذلك نسأله الآن : يجوز أن يحب الشخص الجميل ، ولكننا لاحظنا أن مثل هذا الحب قد يجر إلى الفسوق ، فهل يحرم لذلك حب كل شخص جميل ؟ وليس للغزالي أيضا على هذا السؤال جواب !

وانما قدمنا هذه الكلمة أمام رأيه عن الفنون الجميلة ، ليعرف القارئ أنه لم يذكر أصلا من أصول الأخلاق يبرر رأيه في الفنون فقد أتى عليها جميعا بالنقد والتجريح ، وإن لم ينكر « ان لله سرا في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح » وأحسب أنه لو تروى قليلا لعرف أن لله سرا فيما تحدث الفنون ، من أنواع الفنون .

الشعر

رأى الغزالي في الشعر رأى عجيب ، فهو يرى أن مقصوده المدح والذم والتشبيب . وعلى فرض أن الشعر لا يقصد منه غير ذلك فهو مقصود لحمد ، وإن قبح في بعض الاحوال .

وقد رأى الغزالي نفسه أمام أمر واقع : وهو أن الشعر أنشد بين يدي رسول الله ، ولكنه اعتذر عن هذا بأن المبالغات التي وردت في ذلك الشعر ، لم يقصد بها الكذب ، وانما هي من صنعة الشعر . فلا يقصد بها اعتقاد الصورة التي وضعها الشعراء .

ولا أدل على هوان الشعر في نظر الغزالي من قوله : « وأما الشعر فكلام حسنه حسن ، وقيحه قبيح ، إلا أن التجرد له مذموم » ص ١٣١ ج ٣ .

والتجرد للشعر هو صنعة الشاعر الفنان ، الذي يريد ان يمثل

عصره ، وقطره ؛ في صحيفة التاريخ • ومتى كان من المذموم أن يتجرد المرء للشعر ، فمعنى ذلك أن الشعر لا يصح أن تخصص له حياة فرد من الأفراد • وإن جاز للناس أن ينشدوا أو ينشئوا ما حسن منه ، لأنه ككل كلام : حسنه حسن ، وقيحه قبيح !!

ولا يفوتنا أن نلفت النظر الى ان الاحاديث التي رواها الغزالي في ذم الشعر اقتضتها ظروف خاصة ، بدليل ما روى الغزالي نفسه ، مما يناقضها كل المناقضة ، فكان عليه أن يراعى تلك الظروف •

الموسيقى

تكلم الغزالي عن الموسيقى باحتياط يدل على مبلغ رأيه في هذا الفن الجميل ، وهو يقسم الاصوات الموزونة باعتبار مخرجها الى ثلاثة : ما يخرج من جماد : كصوت المزامير ، والاولتار ، وضرب القضيب ، والطلل وغيره • وما يخرج من خنجره حيوان ، وذلك الحيوان اما انسان ، أو غيره : كصوت العنادل ، والقمارى ، وذوات السجج من الطيور • ثم يحكم بان سماع هذه الاصوات يستحيل ان يحرم لدونها طيبة أو موزونة ، اذ لا ذاهب الى تحريم صوت العنديل ، وسائر الطيور ، ولا فرق بين خنجره وخنجره ، ولا بين جماد وحيوان ، فينبغى أن يقاس على صوت العنديل الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدمى كالذى يخرج من حلقه ، أو من القضيب والطلل والدف •

الى هنا لا تجد شيئاً يفض من الموسيقى باعتبار أنها فن جميل ، ولكنك تجده يقول بعد ذلك : « ولا يستثنى من هذا الا الملاهى والاولتار والمزامير التي ورد الشرع بالمنع منها ، لا لذتها ، اذ لو كان للذة لقيس عليها كل ما يلتذ به الانسان ، وانما حرمت لعل ثلاث : احداها أنها

تدعو الى شرب الخمر ، فان اللذة الحاصلة بها انما تتم بالخمر ، ومثل هذه العلة حرم قليل الخمر • الثانية : أنها فى حق قريب العهد بشرب الخمر تذكر بمجالس الانس بالشرب ، فهى سبب الذكر ، والذکر سبب انبعاث الشوق ، وانبعاث الشوق اذا قوى فهو سبب الاقدام • والثالثة : الاجتماع عليها ، وهو من عادة أهل الفسق « ونجده بعد هذه الفقرة ينص على تحريم المزمار العراقى ، والأوتار كلها ، كالعود والصنج والرباب والبربط ^(١) وكل ما يذكر بالخمر ، ومجالس الخمر ، فاما ما عدا ذلك فهو على الاباحة ، قياسا على أصوات الطيور •

وما نريد أن تناقش هذا الرأى ، ولا أن نبحت فى الأساس الذى وضع عليه ، ولكن ننبه على أن فيه دلالة على دفته فى وقاية الجبهة الخلقية ، وحرصه على أن يظل المرء بعيدا عن مثار الشهوات •

ونضيف الى ما سلف من رايه فى الموسيقى ، انه عد بيع الملاحى من المنكرات التى يجب دسرها ، حين تكلم عن منكرات الأسواق ، وعد من منكرات الضيافة سماع الأوتار وسماع القيان ، وعد اعطاء المال للمطرب اسرافا يجب على المحتسب انكاره ، ولم يعين مهنة المطرب ، فصلح لأن يطلق على المغنى والموسيقار • ونص فى ص ٣٢٧ ج ٣ احياء على ان أصوات المزامير والأوتار اذا ارتفعت فى دار بحيث تجاوزت الحيطان ، فلمن سمعها دخول الدار وكسر الملاحى ، ونص كذلك على أن للمرء الحق فى أن يكسر العود اذا رأى شخصا يحمله •

ومما سلف نعلم أنه لا يحرم الموسيقى مرة واحدة ، ولكننا نعرف كذلك أنه لا يقيم لها وزنا باعتبار أنها فن جميل ، فمن الواضح أن لكل فن سيئات وحسنات ، وأن السيئات لا تقل قيمة فى نظر الفنان عن الحسنات ، اذ كان جمال الفنون يرجع أكثره الى ما تحدث فى عشاقها من الجرأة على المؤلف ، وهو ما يخافه الغزالي ويتوقاه •

(١) البربط : كجففر هو العود معرب بربط أى صدر الاوز لانه يشبهه .

وهذا الذى يوجب كسر العود ، لا يبيح فيما نظن أن تبني دار
للموسيقى ، وأن يختار للتعليم فيها حسان الأصوات ، وصباح الوجوه !
ولا ننس أنه لم يحرم الأوتار والمزامير الا لأنها تذكر بمجالس
الخمير ، فلنذكر أنه يحرم من أجل الخمر هذه اللذة الروحية البديعة .
فهى عنده « أم الخبائث » ، وأصل المنكرات . ♦

الغناء

لم يفرد الغزالي بابا للموسيقى ، ولا للغناء ، وانما تأخذ رأييه فى
هذين الفنين مما جاء فى كتاب السماع والوجد ، وهو الكتاب الثامن من
ربع العادات من كتب الاحياء ♦

وأول ما يلفت النظر الى رأييه فى الغناء ، موافقته للشافعى فى أن
الرجل الذى يتخذ الغناء صناعة لا تجوز شهادته ، لأن الغناء فيما يرون
من اللهو المكروه ، الذى يشبه الباطل ، ومن اتخذه صناعة كان منسوباً
الى السفاهة ، وسقوط المروءة !

ومتى كان الغزالي يرى أن محترف الغناء مردود الشهادة ، فانه
لا يرى للغناء قيمة ، وما ظنك بفن يهبط بصاحبه الى الحضيض ، ويسقط
عدالته بين الناس ♦

ونحن متى ذكرنا كلمة فن ، فانا نذكر بجانبها ما يجب على الأفراد
والحكومات من تشجيعه ، لأن الفن ليس ضرباً من اللهو المكروه ، وانما
هو لهو مفروض ، تحتاجه الأرواح والأجسام ، فيما تحتاجه من صنوف
الغناء ، وليس محترف الغناء هو المردود الشهادة فقط فيما يرى الغزالي .
بل المغرم بالسماع والمفرط فيه هو أيضاً سفيه ، ترد شهادته ، لأن المواظبة
على اللهو جناية !

والفن - لما تعلم - لا حياة له الا بوجود الهواة ، فلن يحسن الغناء الا اذا وجد هواة الانشاد والسماع ، ومتى كان الاثار من الانشاد ، والافراط فى السماع ، جناية ، وكان من واجب كل فرد ان يحارب هذه الجناية ما استطاع ، فقد اصبح ما نسميه فن الغناء ، عرضة للانقراض ، ولا عبرة بما يفوله الغزالي من اباحته اذا لم يوجد موجب التحريم ، فحسب الفن ضياعا ان تقول انه مباح !

غناء المرأة والأمرد الجميل

ولا يجوز الغزالي ان يسمع الغناء من امرأة لا يحل النظر اليها ، وتخشى الفتنة من سماعها ، وفى معناها الصبى الأمرد الذى تخشى فتته . وقد توقع الغزالي ان يسأل سائل : هل ذلك حرام فى كل حال ، حسما للباب ، او لا يحرم الا حيث تخاف الفتنة فى حق من يخاف العنت ؟ واجاب بان هذه المسألة يتجاذبها اصلاان : أحدهما ان الخلوة بالاجنيب ، والنظر الى وجهها حرام ، سواء خيف الفتنة او لم تخف ، لانها مظنة الفتنة على الجملة . والثانى ان النظر الى الصبيان مباح ما لم تخف الفتنة ، فلا يلحق الصبيان بالنساء فى عموم الحسم ، بل يتبع فيه الحال ، وصوت المرأة دائر بين هذين الاصلين . فان فسناه على النظر اليها وجب حسم الباب ، وهو قياس قريب ، ولئن بينهما فرق ، اذ الشهوة تدعو الى النظر فى اول هيجانها ، ولا تدعو الى سماع الصوت ، وليس تحريك النظر لشهوة المماسه لتحريك السماع ، بل هو اشد ، وصوت المرأة فى غير الغناء ليس بعورة ، ولئن للغناء مزيد اثر فى تحريك الشهوة ، فقياس هذا على النظر الى الصبيان اولى لانهم لم يؤمروا بالاحتجاب ، كما لم تؤمر النساء بستر الاصوات ، فينبغى ان يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه ^(١) .

(١) أنظر ص ٢٨٠ ج ٢ أحياء

موضوع الغناء

ولا مانع فيما يرى الغزالي من أن يكون في الغناء تشييب بوصف
الخدود ، والأصداع ، وحسن القد ، والقامة ، وسائر أوصاف النساء ،
بشرط أن لا يكون في امرأة معينة ، فانه لا يجوز وصف المرأة بين يدي
الرجال ، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة الا أن تكون زوجته
أو جاريته ، فان نزله على أجنبية فهو من العصاة • ويحرم على من كان
في غرة الشباب أن يستمع ، اذا كانت الشهوة غالبة عليه ، سواء غلب
على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب (٩) •

ما يباح من الغناء

واليك جملة ما يباح فيه الغناء كما يرى الغزالي :

(١) غناء الحجيح ، اذ يدورون في البلاد بالطبل والشاهين والغناء •

(٢) ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو •

(٣) الزجريات التي يستعملها الشجعان في وقت اللقاء • وهذا
مباح في كل قتال مباح ، ومندوب في كل قتال مندوب ، ومحظور في
قتال المسلمين وأهل الذمة •

(٤) أصوات النياحة في البكاء على الخطايا والذنوب •

(٥) السماع في أوقات السرور المباح ، كالغناء في أيام العيد ، وفي
العرس ، وفي وقت الوليمة والعقيقة ، وعند ولادة المولود ، وعند ختانه ،
وعند حفظه القرآن ، وعند قدوم الغائب •

(٦) سماع العشاق ، تحريكا للشوق ، وتهيجا للعشق ، وتبسية
للنفس • وهذا حلال ان كان المشتاق اليه ممن يباح وصاله ، كمن

يعشق زوجته ، أو سريره ، فيصنئ الى غنائها لتضاعف لذته ، وكذلك ان غضبت منه جاريته ، او حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب ، فله أن يحرك بالسماع شوقه ، وأن يستثير به رجاء لذة الوصال • فان باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده ، اذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء •

(٧) سماع من أحب الله وعشقه واشتاق الى لقائه ، فلا ينظر الى شيء الا راه فيه • وقد أطل الغزالي في هذه النقطة ، ثم قرر ان اطلاق العشق على حب غير الله مجاز لا حقيقة ، لأن كل محبوب سواء يتصور له نظير ، اما في الوجود واما في الامكان ، أما جمال الله فلا ثاني له ، لا في الامكان ، ولا في الوجود (٩)

آداب السماع

لا يعتد الغزالي بسماع من يطرب للغناء بمجرد الطبع ، ولاحظ له في السماع الا استلذاذ الألحان والنغمات ، اذ كان هذا الذوق لا يتطلب لوجود غيره الحياة ، فلكل حيوان نوع تلذذ بالأصوات الطيبة • ويسخر الغزالي ممن ينزلون المسموع على حسب شهواتهم ، ومقتضى أحوالهم ، ويرى حالتهم هذه أخس من أن تفرد بالبيان • ويعتد فقط بمن ينزل ما يسمعه على أحوال نفسه في معاملته لله ، أو من عزب عن فهم ما سوى الله حتى عزب عن نفسه ، وأحوالها ، ومعاملاتها ، وكان كالمدهوش الغائص في عين الشهود ، الذي يضاهي حاله حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف عليه السلام (٩!) •

واذا سمع أحد هؤلاء « الموفقين » ذكر عتاب أو خطاب ، أو قبول أو رد ، أو وصل أو هجر ، أو قرب أو بعد ، أو تلهف على فائت ، أو

تعطش الى منتظر ، أو شوق الى ورد ، أو طمع أو يأس ، أو وحشة
أو أسس ، أو وفاء بالوعد ، أو تقصص للعهد ، أو خوف من فراق ، أو
فرح بوصول ، أو ذكر ملاحظة الحبيب ، ومدافعة الرقيب ، الى غير ذلك
مما تشتمل عليه الأشعار ، فلا بد أن يوافق بعضها حالاً في نفسه ،
فيورى زناد قلبه •

ولهؤلاء وضع الغزالي الآداب الآتية :

(١) مراعاة الزمان ، والمكان ، والاخوان : فليس له أن يسمع
وقت تغل القلب ولا في شارع مطروق ، أو موضع كريبه ، أو مع قوم
من أهل الدنيا يحتاج الى مراقبتهم ، ومراعاتهم •

(٢) أن يكون مصفياً الى ما يقول القائل ، حاضر القلب ، قليل
الالتفات الى الجوانب ، منحرجاً عن النظر الى وجوه المستمعين ، وما يظهر
عليهم من أحوال الوجه مشتغلاً بنفسه ومراعاة قلبه •

(٣) أن لا يقوم ، ولا يرفع صوته بالبكاء ، وهو يقدر على ضبط
نفسه • ولكن ان رقص أو تباكى بغير قصد الرياء فهو مباح •

(٤) موافقة القيام في القيام ، اذا قام واحد منهم في وجد صادق
من غير رياء وتكلف ، أو قام باختياره من غير وجد ، وقامت له الجماعة
فلا بد من الموافقة ، رعاية لأدب الصلحة •

وهناك أدب خامس وضعه الغزالي خاصاً بالشيخ المرشد ، وهو
ملاحظة المريدين ، فينبغي أن لا يسمع في حضورهم ، اذا كان فيهم من
لم يدرك من الطريق الا الاعمال الظاهرة ، ولم يكن له ذوق السماع ،
أو رزق ذوق السماع ، ولكن فيه بقية من الحفظ والالتفات الى
الشهوات ، والصفات البشرية ، أو كسرت شهوته ، وأمنت غائلته ،
وانفتحت بصيرته ، واستولى على قلبه حب الله ، ولكنه لم ينجحكم ظاهر
العلم ، ولم يعرف أسماء الله وصفاته ، وما يجوز عليه وما يستحيل •

الرقص

وقد رأينا الغزالي يبيح الرقص ، ولكن أى رقص ؟ هو مايجرى
فى مجالس الغناء الذى قصد به الحث على العمل للأخرة ، وما نحسبه
يمنع أن يرفص الرجل فى مجلس تغنيه فيه امرأته أو جاريتة • وعلى
كل حال فلننسجل هنا ان الرقص والغناء يجب فيما يرى الغزالي أن
يكونا بعيدين كل البعد عن مثار الشهوات • وما نريد أن نفصل اتر هذا
التحرّج فى حياة الامم ، وانما نبه فقط على أن الغزالي يضع حول
الشهوة أسوارا من حديد ، ولا تُخرج الاخلاق عنده الا رجلا مملوئين
بالحيطة ، قد بغضت اليهم بسمات الحياة ، وفلما ينبجج هؤلاء فى ميدان
الحياة لأن التنسك باب الخمود •

النقش والتصوير

أراد الغزالي أن يذم (الطب ، والحساب ، واللغة ، والشعر ،
والنحو ، وفصل الخصومات ، وطرق المجادلات) بسبب ما تورث من
الكبر ، فلم يزد على أن قال : « وهذه بأن تسمى صناعات أولى من أن
تسمى علوما ^(١) » •

اذن الصناعات دون العلوم ، وانما كان الطب والحساب الخ من
الصناعات ؟ لأن العلم فيما يرى الغزالي هو ما يوصل الى الاخرة ، وما
يخص الدنيا فهو صناعة • وقد نص على أن من الصناعات ما هى مهمة ،
ومنها ما يهتغنى عنها لرجوعها الى طلب التنعيم والترين فى الدنيا من
أجل ذلك حض المسلم على أن يشتغل بصناعة مهمة ، ليكون بقيامه بها
كافيا عن المسلمين مهما فى الدين • ثم قال :

(١) انظر ص ٣٥٢ ج ٣

« وليجتنب صناعة النقش والصياغة ، وتشديد البنيان بالجص ،
وجميع ما تزخرف به الدنيا ، فكل ذلك كرهه ذوو الدين ^(١) » ، *

وقد عد بيع أشكال الحيوانات المصورة في أيام العيد لأجل الأطفال
منكرا تجب ازالته « والصور التي تكون على باب الحمام أو داخل الحمام
تجب ازالتها على كل من يدخله ان قدر ، فان كان الموضع مرتفعا لاتصل
اليه يده فلا يجوز له الدخول الا لضرورة ، وليعدل الى حمام آخر ،
فان مشاهدة المنكر غير جائزة * ويكفيه أن يشوه وجهها ويبتل به
صورتها ^(٢) » ، *

« ولا يمنع من صور الأشجار وسائر النقوش سوى صورة الحيوان
... وأما الصور التي على النمارق ، والزرابي المفروشة ، فليس منكرا .
وكذا على الأطباق والقصاصع ، لا الأواني المتخذة على شكل الصور ، فقد
تكون رهوس بعض المجامر على شكل طير فذلك حرام يجب كسر مقدار
الصورة منه ^(٣) » ، *

على أن كلمة الغزالي لم تكن واحدة فيما يخص البناء والزخرفة ،
فقد رايت كيف بين أن تشديد البنيان ، ودل ما تزخرف به الدنيا كرهه
ذو الدين ، ومع هذا قال بعد : « وفعل ذلك ممن له مال كثير ليس
بحرام ، لان التزيين من الاغراض الصحيحة * ولم تزل المساجد تزين
وتنقش أبوابها وسقوفها مع أن نقش الباب والسقف لا فائدة فيه الا مجرد
الزينة فكذا الدور » ، *

(١) ٧٩ ج ٢

(٢) - وضع فضيلة الاستاذ الشيخ النجار بهامش نسخته ما يأتي : لعل الشيخ محمد صائم
الدهر الذي شوه وجه أبي الهول وغيره من الصور وجعل أكبر همه ذلك قد سرى اليه
هذا الفكر من احياء الغزالي وقد رايت في بخلبك صورا في الرواق المحمول على الأعمدة
وهي مشوهة ، وقيل لنا انها شوهت من أيام دخول العرب ذلك البلد * وشاهدت
كذلك صورة البغل وهو معبود أهل ذلك البلد قديما مشوهة ، وهو وجه انسان
بصورة أسند *

وإذا كان التزيين من الأغراض الصحيحة ، فكيف تكون صناعته
غير مهمة (١) •

خلاصة هذا البحث

نرى مما سلف أن النقش مكروه وأنه لا يجوز تصوير الحيوان ،
ولا حرج في استعمال النمارق والزرابى المصورة ، بصورة الحيوانات
طبعاً ، لأنها موضوع الاستثناء • ويظهر أنها استثيت لأن الصور فيها
ستصير ممتنة بالاستعمال ، وعلى الأخص الأطباق والقصاص • وهو يتبع
فى هذا الرأى جمهور الفقهاء ، إذ يرون التصوير داعياً الى الوتية •
وقد نهوا عما يذكر بعبادة الاوثان •

ولا يفوتنا فى ختام هذا الباب أن ننبه اجمالاً على أن الغزالي لم
يعن بتربية الأذواق وهذه الآراء التى قدمناها له فى الفنون الجميلة تدل
على اهماله هذا الجانب من بناء الأخلاق •

ومما يلاحظ أنه يغشى بعض النظرات الدقيقة فى كتبه بأخبار
وأقاصيص تحمل القارىء حملاً على ازدراء الزهادة ، والاخلاد الى
الخمول • وأكرر ما قلته غير مرة من أن فى هذا الشطط شيئاً من الحق ،
وهو الحرص البالغ على السلامة ، والنفرة المطلقة من مواطن التشبهات •
ولهذا القصد محاسن ، وفيه كذلك كثير من العيوب •

(١) كانى بالرجل ينظر الى الشئ نظرة علمية فيقضى بعدم الضرر فيه إذا كان على حد
الاعتدال وينظر اليه نظرة صوفية فيكرمه وهذا منشأ الاضطراب الظاهرى لأن الكلام
فى موضوعين •

الفصل الثالث

تربية الأطفال

يسمى الغزالي رياضة الصبيان ، وكانت كلمة صبي في التعابير القديمة تقابل كلمة طفل في التعبير الحديث ، وكذلك كلمة صبية تقابل كلمة طفلة أو فتاة ، فكانوا يقولون دخلت عليه صبية حسنة كما نقول فتاة حسنة ♦

وقد سبقت كلمتنا في وراثة الأخلاق عن فطرة الأطفال ، فلا نعود إليها الآن ، وإنما نذكر المنهج الذي وضعه الغزالي لتربية الطفل ، وهو سصيل ما أجملته في واجبات الآباء ♦

فيجب على الوالد فيما يرى :

(١) أن يؤدب ابنه ، ويهذبه ، ويعلمه مخاسن الأخلاق ، ويحفظه من قرناء السوء ♦

(٢) وأن لا يجتّب إليه الزينة ، وأسباب الرفاهية ، لئلا يتعود التعم : فيعسر تقويمه بعد ذلك ♦

(٣) وإذا رأى فيه مخائل التمييز ، وبوادر الحياء ، فليعلم أن عقله مشرق ، وأن تنمية هذه الباكورة من عزم الأمور ، وأحسن ما تنمي به أن تستعان في تأديبه وتهذيبه ♦

(٤) وليعلم أن أول ما يغلب على الطفل شره الطعام ، فينبغي أن يؤدب في ذلك ، وأن يعود أخذ الطعام بيمينه ، والبدء باسم الله ، والاختد مما يليه ، وعدم السبق إلى الطعام ، وعدم تحديق النظر إليه ، وإلى من يأكل معه ، والتمهل في الأكل واجادة المضغ ، وعدم الموالاة بين اللقم ،

والحذر من تلطيخ اليد والثوب ، وتعود الخبز القفار في بعض الأوقات ، حتى لا يرى الادم حتما^(١) .

(٥) وينبغي أن يقيح عنده كثرة الأكل ، بذم الطفل الشره ومدح المتأدب القليل الاكل ، وان يجيب اليه الايتار بالطعام وقلة المبالة به ، والقناعة باى طعام كان .

(٦) وأن يجيب اليه الابيض من الثياب ، دون الملون ، وأن يفهمه أن تلوين الثياب ليس عادة الرجال ، وانما هو عادة النساء والمختئين . وان يحفظه من مخالطة الاطفال الذين عودوا التعم ولبس الثياب الفاخرة ، ومن مخالطة كل من يسمع منه ما يرغب في ذلك .

(٧) واذا ظهر من الطفل فعل محمود ، فينبغي أن يجازى عليه بما يفرح به ، وان يمدح امام الناس ، فان أساء مرة فيجمل بالوالد ان يتغافل عنه ، ولا يكشفه ، ولا سيما اذا تستر الطفل واجتهد في الاخفاء ، فان مكاشفته قد تزيده جسارة وعدم مبالة . فان عاد فليعاب سرا وليحذر عواقب الافتضاح ، وليكن العتب قليلا لئلا يهون على الطفل وفع الملام ، وسماع التأنيب ، وركوب القبيح .

(٨) وينبغي أن يمنع من النوم نهارا ، فان ذلك يورث الكسل ولا يمنع منه ليلا ، ولكن يمنع الفراش الوثير ، لتصلب أعضاؤه ويعود خشونة الفراش .

(٩) وينجب أن يمنع من كل ما يفعله خفية ، فانه لا يخفى الا ما يعتقد أنه قبيح .

(١٠) وليعود المشى في بعض النهار ، لتجيب اليه الحركة والرياضة .

(١) الخبز القفار هو الذي لا آدم فيه .

(١١) ولينمى من كشف أطرافه *

(١٢) وينبغى أن يمتنع من الافتخار على أقرانه بشيء مما يملكه والداه ، أو بشيء من مطاعمه وملابسه ، أو لوحه ودواته ، بل يعود التواضع ، وطيب الحديث *

(١٣) ويجب أن يعلم أن الرفعة فى الاعطاء لا فى الاخذ وأن الاخذ لؤم ، وخسة ، ودناءة ، ان كان غنيا ؛ وذلة ، ومهانة ، ان كان فقيرا : فلا يصح ان ياخذ شيئا من الاطفال *

(١٤) وينبغى أن يعود أن لا يبصق فى مجلسه ، ولا يمتخط ، ولا يتعاب بحضرة غيره ، ولا يستدبر سواء ، ولا يضع رجلا على رجل ، ولا يضع نعله تحت ذفنه ، ولا يسند رأسه بساعده ويعلم كيفيه الجلوس ، وينمى كثرة الكلام *

(١٥) ويجب أن يمتنع القسم ، صادقا كان أو كاذبا ، لئلا يعتاد ذلك *

(١٦) وليعود أن لا يتكلم الا مجيبا ، وبقدر السؤال ، وأن يحسن الاستماع اذا تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا ، وان يقوم لمن فوه ، ويفسح له المكان *

(١٧) ويجب أن يمتنع من لغو الكلام ، ومن اللعن ، والسب *

(١٨) وليعود الصبر اذا ضربه المعلم ، فلا يكثر الصراخ ، ولا يستشفع بأحد ، وليذكر له أن الصبر دأب الشجعان والرجال وأن كثرة الصراخ دأب الممالك والنساء *

(١٩) وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من المكتب باللعب الجميل يستريح به : فان منع الصبي من اللعب يمت قلبه ، ويخمد ذكاه ، ويحمله على الاحتيال للخلاص من الكتاب *

(٢٠) وينبغي أن يعلم طاعة والديه ، ومعلمه ، ومؤدبه ، وكل من هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبي .

(٢١) وإذا بلغ سن التمييز ، فينبغي أن لا يسمح في ترك الطهارة ، والصلاة ، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ، ويعلم كل ما يحتاج اليه من أمور الشرع .

(٢٢) وليخوف من السرفة ، وأكل الحرام ، ومن الخيانة ، والكذب ، والفحش ، وكل ما يغلب على الأطفال .

هذه خلاصة ما وضع الغزالي في التربية . وما أنكر أن فيها شيئاً من التكرار وارى انه في مثل هذه المواطن جميل .

وانما ألاحظ أنه لا معنى لان تجب الى الطفل الثياب البيض بنوع خاص . ويظهر أن هذه كانت سنة حسنة اذ ذاك ' ' . وألاحظ كذلك انه لا يصح ان يعلم الصبي ان هناك فئة مخنثة تميل الى الملون من الثياب ، فقد يحسن أن لا تطرق اذان الصبي بمثل هذا الهجر ، بل يجب ان لا يعرف ان الطفل قد يتخلق باخلاق النساء . ولا افهم معنى لان يدعى الطفل الى عدم ارتداء يديه ، بل يضمهما الى صدره حين يمشي ! ويضحكني ان ينصح الطفل بالصبر والاحتمال حين يضربه المعلم ، وكان أولى له أن ينهى عن هذه العادة الشنعاء ، التي لا تجمل بالمعلمين ' ' .

ومن أدق ماتنبه له الغزالي تلميحه الى أن يعلم الطفل أسرار البلوغ حين يصل اليه .

(١) يرى الاستاذ عبده بك خير الدين أن لبس الثياب البيض فيه دعوة ضمنية الى النظافة لان الثوب الأبيض يعلن عن نفسه حين يحتاج الى التطهير .

(٢) وضع فضيلة الاستاذ الشيخ النجار بهامش النسخة التي كانت بيده ماياتي : ان أطفال أهل السودان فيهم هذه العادة على أنهم فائهم يهودون عدم البكاء والصراخ مهما حل بالواحد منهم من الألم . ومن فعل ذلك عير . بل كثيراً ما تجد الطفل يأخذ جمره النار فيضعها على ساعده ويذهب الى أمه ليربها صبره على بقاء النار تأكل في جسمه دون اظهار تألم قائلا : ابشرى يا أمي أنا أخو البنات .

والغزالي يسمي المدرسة بالمكتب والكتاب ، وليس له في هذا الباب غير برنامج ضئيل ، يمثل ما كان يفهم في عصره من المدارس الأولية والابتدائية • ويتلخص هذا البرنامج (في تعلم القرآن ، وأحاديث الأخيار ، وحكايات الأبرار) ولم تخطر له الرياضة ببال • ولم يتعرض للغة والأدب ، ولكنه نبه على أن الطفل يجب أن « يحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع ، فان ذلك يغرس في نفوس الصبيان بذور الفساد » •

والغزالي يُعد الطفل في الواقع لأن يكون جندياً في الحياة اذ يحرم عليه كل مظاهر اللين • وان كان لم يغفل عن غايته الأخلاقية حين أوصى بأن يعلم أن الموت منتظره في كل ساعة ، وأن العقل من تزود من دنياه لأخراه • وأرى هذه الوصية خطيرة ، اذ تضعف العزم في نفوس الأحياء ، ولا تترك للاسلام نفسه جيشاً يحفظ به ثغر ، أو يفتح به قطر ، وما كان للاسلام الا دين الغزاة الفاتحين •

تربية البنات

لم يتكلم الغزالي عن تربية البنات ، وكان عليه أن يهين نصيباً من عنايته • ولكن الرجل تأثر بعصره ، ويقومه ، فقد كانت تربية البنات مما لا يهتم به الأولون •

وسترى حين تتكلم عن حقوق المرأة أنه يحتم على الرجل أن يعلم زوجه ، فان لم يعرف ناب عنها في سؤال العلماء ، ولكنك ستري كذلك أن هذا العلم الواجب على الرجل لامراته لا يزيد عن معرفة الفرائض من صلاة وصيام • ومعرفة الفرائض هذه لا تفيد المرأة شيئاً في الحياة المنزلية ، وهي الغيب الملقى على عواتق النساء •

الفصل الرابع

آداب المعلمين

قد رأيت المنهج الذى وضعه الغزالي لتربية الطفل ، ورأيت ماخطه لبرنامج التدريس فى المكاتب الصغيرة ؛ والان نقفك على رأيه فى تربية الطلاب ، ونريد بهم من رأوا الاستزادة من العلم بعد انقضاء ذلك الامد القصير ، الذى أعد للأطفال ♦

والغزالي كان أستاذا فى المدرسة النظامية، وكان يختلف الى درسه ثلثمائة من التلاميذ ، وكان له بالطبع زملاء ، وكان لهؤلاء الزملاء تلاميذهم فمن البعيد أن لا تكون هذه الحرثة ألهمته البحث فى التعليم من حيث انه مهنة ، وهو قد ابتلى بمهنة التعليم !

ولقد تكلم الغزالي عن التعليم ، وأطال فى كتاب الاحياء ، وتكلم عنه فى الاملاء على ما أشكل من الاحياء ، وذكر أنه (أفضل من سائر الحرف والصناعات) وبين وجه هذه الأفضلية بالتفصيل ♦

وكل ما تقيده به هذه الحرفة فيما يرى أنه يجب أن يقصد بها وجه الله ، ويقول فى ذلك : (وانما المعلم هو المفيد للحياة الآخروية الدائمة، أعنى معلم علوم الآخرة ، أو علوم الدنيا على قصد الآخرة ، لا على قصد الدنيا ♦ فاما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك واهلاك نعوذ بالله منه) (١) ♦

وعلوم الدنيا هى فى رأيه ما يشمل الطب والحساب والهندسة وتقويم البلدان ، وعلى الجملة كل ما عدا العلم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ♦ فالذى يعلم علوم الدنيا هذه هو بلا شك محترف ♦ ويكفى أن يقصد بتعليمه الآخرة ، ليكون من الناجين ♦

(١) ص ٦٠ ج ١ .

اضف الى هذا أن الغزالي - لورعه - يشبه العلم بالمال ، فكما أن صاحب المال حال استفادة ، وحال ادخار ، وحال انفاق على نفسه ، وحال بذل لغيره ، وهو أشرف أحواله ، فكذلك لصاحب العلم حال طلب ، وحال تحصيل ، وحال استبصار ، وحال تبصير ، وهو أشرف الأحوال •

والتبصير هو التعليم • والغزالي لا ينكر أن يكون المرء معلما ، فقد كان من المعلمين ، وإنما يطالب المعلم بتعليم علوم الآخرة • أو علوم الدنيا على فصد الآخرة ، وسترى فيما يذكر من آداب المعلم عدم أخذ الأجر ، ولكن هذا لا يقدح في نظره الى التعليم كمهنة ، فانه يكفيننا أن يدرك أن التعليم صناعة ، تحتل الاجادة ، كما تحتل القصور ، وأنه يجب على المعلم كيت وكيت ، ليحسن أداء مهمته ، على وجه نافع مقبول •

وقد وضع للمعلم الآداب الآتية :

(١) أن يشفق على المتعلمين ، ويجريهم مجرى بنيه • ويقول الغزالي في توابع هذه البنية : وكما أن حق ابناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد ، التحاب والتواد •

(٢) أن يقتدى بصاحب الشرع ، صلوات الله عليه وسلامه ، فلا يطلب أجرا على افادة العلم ، ولا يقصد به جزاء ولا شكورا •

(٣) أن لا يدع من نصيح المتعلم شيئا ، وذلك بأن يمنعه من التصدى لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفى قبل الفراغ من العلم الجلى •

(٤) أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق ، بطريق التلميح والرحمة ، لا بطريق التوبيخ ، فان التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجراءة على الهجوم بالخلاف ، ويهيج الحرص على الاصرار •

(٥) أن لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراء علمه : فليس

للمعلم اللغة أن يقبح في نفس المتعلم علم الفقه مثلاً ، بل ينبغي أن يوسع عليه طريق التعليم في غيره • وإن كان متكفلاً بعدة علوم فينبغي أن يراعى التدريج في ترقية المتعلم من رتبة الى رتبة •

(٦) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، ولا يلقي اليه ما لا يبلغه عقله •

(٧) أن يلقي للمتعلم القاصر الجلي اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا الجلي تدقيقاً يدخره عنه •

(٨) أن يعمل بعلمه : فلا يكذب قوله فعله • وهذا الأدب الأخير غير خاص بالمعلمين ، ولكنهم أحوج الناس اليه ، وأولاهم به ، إذ كانوا مرشدين ، ومن حسن السياسة على الأقل أن يعمل المرشد بما يقول •

(٩) أن يجمل نفسه كي يعظم في نفوس طلبته فلا يستصغروه ، ولم يذكر الغزالي هذا في آداب المعلم • ولكن ذكره استطراداً في باب النظافة حيث قال : « كان رسول الله مأموراً بالدعوة ، وكان من وظائفه أن يسعى في تعظيم أمر نفسه في قلوبهم كيلا تزدريه نفوسهم • ويحسن صورته في أعينهم كيلا تستصغره عيونهم • وهذا القصد واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق الى الله : وهو أن يرعى من ظاهره ما لا يوجب نفرة الناس عنه » •

(١٠) أن ينظر في نية المتعلم : فإن رآها حسنة علمه ، وإن رآها سيئة أعرض عنه • فلا يجوز فيما يرى الغزالي أن نعلم من نرى في أقواله ، أو أفعاله ، أو مطعمه ، أو ملبسه ، أو مسكنه ، ما يدل على فساد نيته ، وسوء قصده • ولا يكفي فيما يرى الغزالي أن يقول المعلم : إنما أريد نشر العلم ، وللمتعلم بعد ذلك الخيار ، إن شاء أحسن وإن شاء أساء ، بل يشبهه بمن يهب سيفاً لقاطع الطريق ، ثم يقول : إنما أريد

السخاء والتخلق بأخلاق الله الجميلة ، وأن أعينه على الجهاد ، فان استعمل
السيف فى الأذى فهو وحده المسئول ♦
وربما كان يحسن بالغزالى أن ينصح المعلم ببذل الجهد فى غزو
الغرائز السيئة التى يراها فى تلميذه ، فاما الضن عليه بالعلم فهو فيما ارى
هروب من الواجب ، وعمل سلبى لا يبنى ولا يفيد ♦

الفصل الخامس

آداب المتعلمين

وعلى المتعلم ما يأتى من الواجبات :

- (١) أن يقدم طهارة النفس من رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف.
- (٢) أن يقلل علاقته من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن
فانه مهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ♦
- (٣) أن يذعن لنصيحة المعلم اذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق
الحاذق ♦
- (٤) أن يحترز فى مبدأ أمره عن الاصغاء الى اختلاف الناس فان
ذلك يحير ذهنه ويفتر رأيه ، بل عليه أن يتقن أولا طريقة أستاذه ، ثم
يصغى بعد ذلك الى الشبه والمذاهب ♦
- (٥) أن لا يدع فناً من الفنون المحموده الا وينظر فيه نظرا يطلع
به على مقصده وغايته ، ثم ان ساعده العمر طلب التبحر فيه ، والا اشتغل
بالأهم واستوفاه ، وتطرق من البقية ♦
- (٦) أن لا يخوض فى فن من الفنون دفعة ، بل يراعى الترتيب ♦
- (٧) أن لا يخوض فى فن حتى يستوفى الفن الذى قبله ، فان العلوم

مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق الى بعض • وهذه الطريقة فيما أرى
انما تصلح في الفنون التي كان يعرفها الغزالي اذ ذاك ، فمن الواضح ان
الفقه مثلاً طريق للأصول ، ولكن هل يصح لدينا الآن أن المنطق طريق
الحساب ، أو أن النحو طريق الجغرافيا ، ووصف الشعوب ؟

(٨) أن يعرف أن شرف العلم انما يرجع الى شرف الثمرة أو قوة
الدليل فعلم الدين فيما يرى الغزالي أشرف من علم الطب ، لأن ثمرة
الأول السعادة الأخروية ، وثمرته الثاني السعادة الدنيوية والآخرة خير
من الأولى • وعلم الحساب أشرف من علم النجوم لقوة أدلته • وعلم
الطب أشرف من علم الحساب ، لأن الثمرة أولى من قوة الدليل •

وربما كان يحسن أن يتنبه الغزالي الى أن للحساب ثمرة لا تقل
شأناً عن وثاقه دليله ، ولكن عذره أنه عاش في عصر قد غاب عن انسانيته
أنه خلق لتعمير الوجود •

الباب العاشر في الحقوق والواجبات

الحق هو ما لك ، والواجب هو ما عليك • فتقول : من حقى أن
أتعلم ، ومن واجبى أن أعمل بما أعلم •
ولكن الغزالي يضع كلمة حق ، موضع كلمة واجب • وربما
استغنى عنهما جميعا بكلمة أدب •
وقد فصل الغزالي حقوق المرء نحو نفسه ، ونحو ربه ، ونحو
أخيه ، ونحو جاره ، ونحو والديه ، ونحو أبنائه ، وبين آداب التاجر ،
والصانع ، والمسافر ، وكاد يستوعب ما للمرء ، وما عليه •
ونحن ذاكرون خلاصة تمثل وجهة نظره في الحقوق والواجبات ،
ليعرف القارئ اتجاه الفكر الاسلامى فى ذلك الحين •

- ١ -

واجب المرء نحو نفسه

يجب على المرء فيما يرى الغزالى أن يجتهد فى أن لا يراه موله
حيث نهاه ، وأن لا يفقده حيث أمره ، ولن يقدر على ذلك الا بتوزيع
أوقاته ، وترتيب أوراده ، من صباحه الى مساءه •
ويحسن فيما يرى الغزالى أن يستيقظ المرء قبل طلوع الفجر ،
وأن يكون أول ما يجرى على لسانه ذكر الله ، وأن لا يترك السواك :
غانه مطهرة للفم ، ومرضاة للرب ، ومسحطة للشيطان •

ولا يفوتنا أن نقرر أن عناية الغزالي بالحث على ما تدعو اليه الشريعة الإسلامية من الوضوء والغسل وما اليهما من انواع الطهارة ، انما هو دعوة صريحة الى الحياة • فان الاسلام بفرضه الوضوء عند كل صلاة ، والغسل عند الاحتلام والوقاع ، انما يرفع عن الناس اصار البطالة والخمول •

ولا يعلم الا الله ما كانت تصل اليه حالة الشرق لو لم ينتشر فيه الاسلام ، فانه يعوض على أهله ما فات أكثرهم من سلامة الذوق ، اذ لا يعرفون للنظافة قيمة ، ولا يقيمون للطهارة وزنا • حتى لتجد من العلماء من ينص على أن نية النظافة تقلل من قيمة الوضوء ، لان الطهارة في نظرهم عبادة الية ، لا تتعلق بها الاغراض ، وسبجان من وهب للعقول !!

غير أننا لا نوافق الغزالي فيما ذكر من آداب النوم ، اذ يحض المرء على أن ينام على يمينه كما يضطجع الميت في لحده ، وأن يتذكر أن النوم مثل الموت ، واليقظة مثل البعث ولعل الله يقبض روحه في ليلته ، وان ينام على طهارة ، وأن تكون وصيته مكتوبة تحت رأسه ••• الخ •

وما كنت لأوافق الغزالي على ذلك ، لأنه يجب اقضاء فكرة الموت عن الأحياء فإن التفكير في الموت مدعاة الى الزهادة والجمود • وهو كذلك نقص في الغزائم ، وخمود في القرائح •

وهناك سبل أخرى غير الموت للحض على الطيبات ، فلماذا لا نزين الخير للناس ، ببيان ما يفعل الخير في رفعة الأقدار ، وسمو النفوس ؟ وقد فصل الغزالي آداب المرء نحو نفسه في أكثر كتبه في الأخلاق • ولا عيب عليه غير الإفراط في تحقير الدنيا ، وهو عيب فطيع ، فان الدنيا أجل وأعظم مما يتصور هو وأمثاله ممن يرون الموت من جملة الارزاق وهل كان الله عابثا يوم خلق هذه الدنيا الجميلة ، التي رميم عشاقها بالاثم والفسوق ؟

- ٢ -

واجب المرء نحو اخوانه في الدين

وضع الغزالي عدة آداب للرجل مع أخيه في الدين ، بعضها خاص بكيفية المعاملة ، والآخر خاص بتقية النفس من الضغائن وجزء منها يتعلق بتربية المرء على كف الأذى واسداء المعروف .

ويخطر بالبال هذا السؤال : ألا يرى الغزالي وجودا لغير المسلم ؟ والا فما رأيه في معاملة من ليسوا بمسلمين ؟

وفي جواب هذا السؤال نذكر ما جاء في إحدى فتاويه^(١) من أن الذمي كالمسلم فيما يرجع الى الايذاء . لأن الشرع عصم دمهم وأموالهم . فيفهم من هذا أن الذمي والمسلم يعاملان معاملة تكاد تكون واحدة ، وإن لم ينص على ذلك في الاحياء .

والى القارىء خلاصة ما على المسلم لأخيه من الواجبات :

- (١) أن لا يؤذى أحدا منهم بفعل أو قول .
- (٢) أن يتواضع لكل منهم ، ولا يتكبر عليه .
- (٣) أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام ، مهما غضب عليه .
- (٤) أن يحسن الى كل من قدر على الاحسان اليه منهم ، بلا تمييز .
- (٥) أن لا يدخل على أحد منهم الا باذنه ، بل يستأذن ثلاثا فان لم يؤذن له انصرف .
- (٦) أن يخالق الجميع بخلق حسن ، ويعامل كل امرئ بحسب .

(١) انظر ص ١٥ ج ١ من شرح الزبيدي .

طريقته : فانه ان أراد لقاء الجاهل بالعلم ، والأمى بالفقه ، والعيى بالبيان ، آذى وتأذى •

- (٧) أن يوقر المشايخ ، ويرحم الصبيان •
- (٨) أن يكون مع الدافه مستبشرا طلق الوجه رقيقا •
- (٩) أن لا يعد مسلما بوعده الا ويفى به •
- (١٠) أن ينصف الناس من نفسه ، فلا يعاملهم الا كما يحب أن يعاملوه •

- (١١) أن يزيد فى توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته •
- (١٢) أن يصلح ذات البين مهما وجد الى ذلك سبيلا •
- (١٣) أن يستر عورات المسلمين كلهم • وقد استشهد الغزالي بهذا الحديث البديع : (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه ! لا تغتابوا الناس ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان فى جوف بيته) •

- (١٤) أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين الى من له عنده منزلة ، ويسعى فى قضاء حاجته بما يقدر •
- (١٥) أن يصون عرض أخيه المسلم ، ونفسه ، وماله ، عن ظلم غيره ، مهما قدر • ويرد عنه ، ويناضل دونه ، وينصره ، قياما بأخوة الاسلام •

- (١٦) أن يتقى مواضع التهم ، صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ، ولألسنتهم عن الغيبة •

- (١٧) أن يجامل أخاه ويواسيه اذا بلى بشر •
- (١٨) أن يجتنب مخالطة الأغنياء ، ويختلط بالفقراء والمساكين • ويرى القارىء فى هذه الحقوق شيئا من التكرار • وهذا أيضا

يمثل وجهة الغزالي في الأخلاق : فهو كثير الحذر ، شديد الحيطه ، ولا يزال بالمعنى يردده في كتبه ، بل في الكتاب الواحد حتى يرسخ في نفس المستفيد .

- ٣ -

حقوق الجوار

ويرى الغزالي أن الجوار يقتضى حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الاسلام ، فيستحق الجار المسلم ، ما يستحقه المسلم وزيادة ، ويرى قوله عليه السلام : (الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق . فالجار الذي له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم : فله حق الجوار ، وحق الاسلام ، وحق الرحم ؛ وأما الذي له حقان فالجار المسلم : له حق الجوار ، وحق الاسلام ؛ وأما الذي له حق واحد فالجار (المشرك) .

ويقول تعليقا على هذا الحديث : فانظر كيف أثبت للمشرك حقاً بمجرد الجوار !

وقد وضع للعجار ما يأتي من الواجبات :

- (١) أن يبدأ جاره بالسلام .
- (٢) وأن لا يطيل معه الكلام .
- (٣) وأن لا يكثر عنه السؤال . ولا يتبعه النظر فيما يحمل الى داره .
- (٤) وأن يعود في المرض .
- (٥) وأن يعزيه في المصيبة ، ويقوم معه في العزاء .

- (٦) وأن يهنته في الفرح ، ويظهر الشركة في السرور معه •
 - (٧) وأن يصفح عن زلاته ، ولا يسمع فيه كلاما •
 - (٨) وأن لا يطلع من السطح على عوراته ، بل يستر ما ينكشف له •
 - (٩) وأن لا يضايقه بوضع الجذع على جداره •
 - (١٠) وأن لا يصب الماء في ميزابه ، ولا يطرح التراب في فئانه •
 - (١١) وأن لا يضيق طريقه الى الدار •
 - (١٢) وأن ينعشه من صرخته اذا نابتة نائبة •
 - (١٣) وأن لا يغفل عن ملاحظة داره في غيبته •
 - (١٤) وأن يفض بصره عن حرمة ، ولا يديم النظر الى خادمته •
 - (١٥) وأن يتلطف لولده في كلمته •
 - (١٦) وأن يرشده الى ما يجهله من أمر دينه ودنياه •
- يقول الغزالي : هذا الى جملة الحقوق التي ذكرناها للمسلمين «
ولم يستثن المشرك في جملة هذه الحقوق ، ولكنك رأيت أنه خص
الذمين بهذه المساواة ، اذ كان ايداء الحربى عنده غير حرام •

- ٤ -

حقوق الأقارب

ثبت حق المشرك بالجوار • وكذلك يثبت حقه بالقرباة • ويروى
الغزالي في هذا أن أسماء بنت أبي بكر قالت : « قدمت على أمي ، فقلت
يا رسول الله : ان أمي قدمت على وهي مشركة ، أفأصلها ؟ قال نعم • وفي
رواية : أفأعطيها ؟ قال : نعم ، صليها » •

ومن الواضح أن القريب المسلم أو الجار يثبت له فوق حق القرباة
ما يثبت بأخوة الاسلام وبالجوار من الحقوق •

- ٥ -

حقوق الوالدين

يقول الغزالي : كيفية القيام بحق الوالدين تُعرف مما ذكرنا في حق الاخوة ، فان هذه الرابطة أكد من الاخوة ، بل أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة في الشبهات ، وان لم تجب في الحرام المحض ، لأن ترك الشبهة ورع ، ورضاء الوالدين حتم ♦

ويرى الغزالي ان ليس للانسان أن يبادر بالحج وهو فرض الا باذن والديه ، لأن المبادرة نفل ♦ وكذلك ليس له أن يخرج لطلب العلم الا باذنهما ، ويستثنى علم الفرائض من الصلاة والصوم اذ لم يكن في البلد من يعلمه ♦ وليته عم هذا الحكم في جميع العلوم الضرورية في الحياة ♦

وينقل الغزالي عن رسول الله أن لزوم الوالدة أفضل من الجهاد وهو يقدم الوالدة في البر على الوالد ♦

- ٦ -

حقوق الأبناء

يجب على الوالد :

- (١) أن يسمى ابنه اسماً حسناً ♦
- (٢) وأن يؤدبه اذا بلغ ست سنين ، فاذا بلغ تسع سنين عزل فراشه ، فاذا بلغ ثلاث عشرة سنة ضربه على الصلاة ، فاذا بلغ ست عشرة سنة تزوجه ♦
- (٣) وأن يعينه على بره ، فلا يحمله على العقوق بسوء عمله ♦
- (٤) وأن يسوى بين أولاده ♦
- (٥) وأن يبدأ بالاناث اذا حمل لأولاده طرفة من السوق ♦

- ٧ -

واجب التاجر

وعلى التاجر فيما يرى الغزالي ما يأتي من الواجبات :

(١) ان لا يحتكر ، فيدخر الطعام ينتظر به علاء الاسعار وهذا مظهر في اجناس الافوات • أما ما ليس بقوت ، ولا هو معين على البقوت كالادوية ، والعقاقير ، والزعفران وامثاله ، فلا يتعدى النهى اليه وان كان مطعوما • وأما ما يعين على القوت كاللحم والفواكه وما يسد مسد القوت في بعض الاحيان وان كان لا يمكن المداومة عليه ففيه نظر • ومن العلماء من طرد التحريم في السمن والعسل والشيرج والجبن والزيت وما يجري مجراه ؛ على أن احتكار الأطعمة جائز اذا استغنى الناس عنها ولم يخش من احتكارها قحط • وبقدر درجات الاضرار تتفاوت درجات الكراهة والتحريم •

وكان على الغزالي أن يبين حكم احتكار الأدوية اذا وجد وباء ، أو انتشر مرض من الامراض • فقد تصبح الأدوية أهم من الاطعمة ، ويمسى احتكارها من عظام الأمور ^(١) •

(٢) أن لا يثنى على السلعة بما ليس فيها •

(٣) أن لا يكتن من عيوبها وخفايا صفاتها شيئاً •

(٤) أن لا يكتن في وزنها ومقدارها شيئاً •

(٥) أن لا يكتن من سعرها ما لو عرفه المعامل لامتنع عنه •

(٦) أن لا يروج الزيف من الدراهم أثناء النقد ، اذ يستضر به

(١) ليس بمستعص على الانسان ان يفهم ذلك من كلام الغزالي • اذ هو يدبر كلامه على محور واحد هو الفرق بالناس ورفع الحرج عنهم وعدم ارهاقهم بما يكون فيه مشقة عليهم •

للمعامل ان لم يعرف ، وان عرف فسيروجه على غيره • وهكذا دواليك ، ومن هنا وجب على التاجر تعلم النقد ، لا ليستقصى لنفسه فحسب ، ولكن لئلا يسلم الى مسلم زيفا وهو لا يدري فيكون آثما بتقصيره فى تعلم ذلك العلم •

(٧) أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به فى العادة ، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه ، لأن البيع للربح ، ولا يمكن الا بغبن ما ، ولكن يراعى فيه التقريب •

(٨) أن يحسن نيته فى ابتداء التجارة • فينوى بها الاستعفاف عن السؤال ، وكف الطمع عن الناس ، والقيام بكفاية الأولاد •

(٩) أن يقصد القيام فى تجارته أو صنعته بفرض من فروض الكفايات ، فان الصناعات والتجارات لو تركت لهلك أكثر الناس •

(١٠) أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة ، بأن يكون أول داخل فى السوق وآخر خارج منه ، وبأن يركب البحر فى التجارة ، ففى الخبر : « لا يركب البحر الا بحج أو عمرة أو غزو » •

هكذا يرى الغزالي • وهذه نزعة صوفية لا تأتلف مع واجب الرجل الاخلاقي فى الحياة الاجتماعية • فللتاجر أن يكون أول داخل فى السوق وآخر خارج منه ، بل عليه ذلك ، وعليه أن يركب البحر فى التجارة ، وأن يسلك الى الربح كل سبيل • والحج والعمرة ، والغزو ، كل أولئك من وسائل الحياة • ولكن أكثر الناس لا يفقهون •

(١١) أن لا يقتصر على اجتناب الحرام ، بل يتقى مواضع الشبهات ، ومظان الريب ، ولا ينظر الى الفتاوى ، بل يستفتى قلبه • واذا حملت اليه سلعة رابه أمرها سأل عنها حتى يعرف والا أكل الشبهة •

(١٢) أن يراقب جميع مجارى معاملته مع كل واحد من معامليه ويُعِدّ جوابه ليوم الحساب والعقاب •

(١٣) أن يقلل من يستقيه ، فانه لا يستقبل الا متندم مستضر بالبيع ، ولا ينبغي أن يكون سبب استضرار أخيه •

(١٤) أن يخص في معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة ، وهو في الحال عازم على ألا يطالبهم ان لم تظهر لهم ميسرة •

(١٥) أن يحسن في استيفاء الثمن ، وسائر الديون ، فيتسامح مرة ، ويمهل مرة ، ويحط البعض مرة •

وبعد سرد هذه الآداب ، لا يفوتنا أن ننوه بعناية الغزالي بصالح الهيئة الاجتماعية ، فان التاجر الذي يتأدب بهذه الآداب تمسى تجارته ولا شك ربحا عاما للناس ، ويصبح خادما لأهل بلده من حيث لا يعلمون •

هذا وجه الجمال في هذه الآداب التي خص بها التجار وما أنكر أن فيها جانبا من الضعف بائقال التاجر بكثير من التكاليف الظاهرة ، والمستورة ، في حين أنه يجب تمرينه على المخاطرة في سبيل الحياة ، ولكن الغزالي لا يعدل بالسلامة شيئا والسعيد عنده من نجا بدينه ، وان خسر دنياه •

- ٨ -

آداب المسافرين

وضع الغزالي فصولا مطولة عن السفر ، وفوائده ، وآفاته ، وعدّه نوعا من الحركة والمحافظة • وبين الباعث عليه من هرب أو طلب ، وأطال في ذلك وأجاد •

نحن ذاكرون هنا طائفة مما وضع للمسافر من الآداب :

(١) أن يبدأ برد المظالم ، وقضاء الديون ، واعداد النفقة لمن تلزمه تفقته وبرد ما عنده من الودائع ، ولا يأخذ لزماده الا الحلال الطيب ، وليأخذ قدرا يوسع به على رفقائه •

- (٢) أن يختار رفيقا ، فلا يخرج وحده ، وليكن رفيقه من أهل الدين ، فإن المرء على دين خليله ♦
- (٣) أن يودّع رفقاء الحضر ، والأهل ، والأصدقاء ♦
- (٤) أن يرحل من المنزل بكرةً فإن الخير في البكور ♦
- (٥) أن يجعل أكثر سيره بالليل ، فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار ♦
- (٦) أن يحتاط بالنهار ، فلا يمشى منفردا خارج القافلة ، فربما ينقطع ، أو يفتال ، وأن يتحفظ عند النوم بالليل ♦
- (٧) أن يرفق بالدابة فلا يحملها ما لا تطيق ، ولا يضربها في وجهها ، وأن يروّحها بالنزول عنها غدوةً وعشية ♦
- (٨) أن يحمل معه امرأة ، ومكحلة ومقراضا ، ومسواكا ومشطا ، وقارورة ، وركوة ، وجبلا ♦
- (٩) أن ينوى في دخول كل بلدة أن يرى شيوخها ، ويبحثهم في أن يسمع من كل واحد كلمة ، أو أدبا ينتفع به ♦
- (١٠) أن لا يزيد على ثلاثة أيام في زيارة أخ له ، وإذا زار أحد أساتذته في سفره ، فلا يقم عنده أكثر من يوم وليلة ♦
- (١١) أن يرجع من سفره إذا رأى في نفسه نقصانا عما كان عليه في الحضر ♦
- وأحب أن ينتبه القارئ الى دقة هذا الادب الأخير ♦

- ٨ -

حقوق المرأة

- لا يرى الغزالي أن المرأة تساوى الرجل ، بل يرى أن الرجل سيد المرأة ♦ ويقول فيمن أطاع زوجه ، وملكها نفسه « أنه عكس القضية ♦

وأطاع الشيطان لما قال : « ولأمرتهم فليغيرن خلق الله » • اذ حق الرجل أن يكون متبوعا لا تابعا • وقد سمي الله « الرجال قوامون على النساء » ، وسمى الزوج سيدا فقال : « وألفيا سيدها لدى الباب » • فاذا انقلب السيد مسخرا فقد بدل نعمة الله كفرا (١) •

ولم يقتصر الغزالي على ذلك ، بل حذم على طبعه المرأة حذما أقسى من الصخر ، فقد قال في معرض الحديث عن ادب النساء (والغالب عليهن سوء الخلق وركاكة العقل) واستدل بحديث لا اعلم مبلغه من الصحة ، وهو قوله عليه السلام : (مثل المرأة الصالحة كمثل الغراب الأعصم بين مائة غراب) •

واليك جملة ما وضع الغزالي للمرأة من الحقوق :

اولا - على الرجل ان يحسن الخلق معها ، وان يجتمل الاذى منها ، ترحما عليها لقصور عقلها • ويقول الغزالي : « واعلم انه ليس حسن الخلق مع المرأة نف الاذى عنها ، بل احتمال الاذى منها ، والحلم عند طيشها وعضبها » •

ثانيا - أن يزيد على احتمال الاذى بالمداينة ، والمزاح ، والملاعبة ، فهي التي تطيب قلوب النساء • ويقول الغزالي : « وقد كان رسول الله يمزح معهن ، وينزل الى درجات عقولهن في الاعمال والاخلاق » وهذا تأكيد لرأيه في طبيعة المرأة •

ثالثا - الاعتدال في الغيرة ، فلا يتغافل الرجل عن مبادئ الأمور

(١) ان النساء يغلب عليهن المزاج العصبى • فهن يتأثرن بالتافه من الأمور ويجعلن من الهفوة الصغيرة امرا خطيرا ويصيرن الحبة من مخالفتهن قبة وبينين عللى الشقاق على آهون أساس • وهذا أمر لا يعرفه الا مجرب ممارس لأحوال الزوجات وبخاصة من كان لهن فى البيت نظائر ومنافسات كزوجة أخى الزوج وأخته ونحو ذلك من أم زوج • وهكذا فهناك الشقاق الدائم والحصام الذى لا ينتفى • ولا دواء لذلك سوى ان يكون الزوج قاهر الحكم ، نافذ الكلمة ، مطاع الامر ، فاذا ضعف او وهن فلا انقضاء لشقاق البيت •

عبد الوهاب النجار

التي تخشى غوائلها ، ولا يبالغ في اساءة الظن ، والتعنت وتجسس
البواطن •

رابعا - الاعتدال في النفقة ، فلا ينبغي أن يقتصر عليها في الانفاق ،
ولا ينبغي أن يسرف ، ولا ينبغي ترك الحلوى بالكلية ، وينبغي أن يأمر
الرجل اهله بالتصدق ببقايا الطعام ، وما يفسد لو ترك • وللمرأة ان
تفعل ذلك بحكم الحال من غير اذن الزوج • ولا ينبغي ان يستأثر الرجل
عن أهله بما كُول طيب ، فان ذلك ينافي المعاشرة بالمعروف •

خامسا - على الرجل أن يعلم زوجه أحكام الصلاة ، فان لم يعرف
ناب عنها في سؤال العلماء ، وليس لها أن تخرج لطلب العلم ما دام الزوج
لم يقصر في تعليمها الفرائض - فان قصر فلها الخروج للاستفادة ، بل
عليها ذلك ، ويعصى الرجل بمنعها • ومتى تعلمت الفرائض فليس لها أن
تخرج لتعلم فضل الا برضاء • وللرجل الحق في أن لا يدخل عليها
الرجال ، وان يمنعها من الخروج الى المساجد والاسواق •

وهنا نلفت النظر الى أن الغزالي يقرر ويلح في تحريم خلوة الرجل
بالمرأة الاجنبية ، ولم يفرق بين العلماء وغير العلماء ، والمرأة العجوز فقط
حي التي يجوز لها عنده زيارة المساجد وان خالف ذلك بعض الشيء
ما كان على عهد رسول الله • ويكاد يجزم بأن النبي لو شاهد أهل عصره
لشد في التضييق على المرأة •

سادسا - اذا كان له نسوة فينبغي أن يعدل ، فاذا خرج الى سفر
وأراد استصحاب واحدة أقرع بينهما ، والعدل واجب في العطاء والمبيت،
وأما في الحب والوقاع فهو تكليف بما لا يطاق •

سابعا - اذا وقع بين الزوجين خصام ولم يلتئم أمرهما ، فان كان من
جانبهما جميعا ، أو من الرجل فلا بد من حكيمين : أحدهما من أهله
والآخر من أهلها ، لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما ، وليس للمرأة أن

تتولى تأديب الرجل حين يكون الخصام من جانبه لئلا تسلط فلا يقدر على اصلاحها كما يقول الغزالي •

وأما اذا كان الشوز من المرأة خاصة ، فللرجل أن يؤدبها ، ويحملها على الطاعة قهراً ، ولكن ينبغي أن يتدرج فى تأديبها • فيقدم أولاً الوعظ ، والتحذير ، والتخويف ، فان لم ينجح أولاها ظهره فى المضجع ، وانفرد عنها بالفراش ، وهجرها وهو فى البيت معها من ليلة الى ثلاث ليال ، فان لم ينجح ذلك ضربها ضرباً غير مبرح بحيث يؤلمها ، ولا يكسر لها عظما ، ولا يدمى لها جسما ، ولا يضرب وجهها فان ذلك منهى عنه •

ثامنا - أن ينظر الرجل فى حاجة امرأته الى التحصين ، فان تحصينها واجب عليه • وللغزالي فى هذا الموضوع كلام كله سداجة : اذ تراه يضع طائفة من الأدعية يقوم بها الرجل عند الوفاق ، حتى ليذكر أن بعض أصحاب الحديث كان يكبر حتى يسمع أهل الدار صوته !! وما أدري كيف تصلح هذه اللحظة للأدعية والاوراد ، وما الى ذلك مما يضعف الشهوة ، ويبعث على الخمود !

تاسعا - الطلاق مباح ، ولكنه ايذاء • ولا يباح للرجل ايذاء المرأة الا بجناية من جانبها أو ضرورة من جانبه • ومهما آذت زوجها أو بدأت على أهله فهى جانية ، وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين • ويرى الغزالي أن حق الوالد مقدم على حق الزوجة ، فاذا كرهها الوالد لغرض غير فاسد فقد جاز الطلاق • وان كان الأذى من الزوج فلها أن أن تقتدى بمال ، ويكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى ، فان ذلك اجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع • وعلى الزوج أن يتلطف فى التعلل بتطليق زوجته من غير تعنيف واستخفاف • وأن يطيب قلبها بهدية على سبيل الجبر والامتناع ، وأن لا يفشى سرها لا فى الطلاق ولا عند النكاح •

ومما سلف بيانه ، نعرف أن الغزالي لم يفكر فى المرأة الا من حيث
هى زوجة ، فلم يذكر شيئا عن حقوقها الاجتماعية ، ولم يتكلم عن تعليمها
قبل الزواج ، ولم يسمح للمتزوجة بشيء من العلم أكثر من الفرائض ،
وهى غاية بسيطة بالطبع ، لان تعلم الفرائض لم يكن موضع خلاف •
وكل هذا نتيجة محتومة لرأيه فى طبيعة المرأة ، اذ كانت عنده فى مقام
التابع ، ومن طاعة الشيطان أن تصبح فى مقام المتبوع !

- ٩ -

الرفق بالمرأة

ولم يكتف الغزالي بهذه الحقوق فى صيانة المرأة ، بل حض الرجل
على الرفق بها فى كل حال ، فذكر فى ص ١٢١ من كتابه «التبر المسبوك»
أن من أحب أن يكون مشفقا على زوجته رحيما بها ، فليذكر أن المرأة
لا تقدر أن تطلقه ، وهو قادر على طلاقها متى شاء ، وأنها لا تقدر أن
تأخذ شيئا بغير اذنه ، وهو قادر على ذلك وأنها ما دامت فى حباله لا تقدر
على زوج سواه ، وهو قادر على أن يتزوج عليها ، وأنه لا يخافها وهى
تخافه ، وأنها تقنع منه بطلاقة وجهه ، وبالكلام اللين ، وهو لا يرضى
بجميع أفعالها ، وأنها تفارق أمها وأباها وجميع أقاربها لأجله ، وهو
لا يفارق لأجلها أحدا ، وأنه يقدر أن يتسرى ويختص بالجوارى دونها ،
وأنها تخدمه دائما وهو لا يخدمها ، وأنها تتلف نفسها اذا كان مريضا
وهو لا يغتم لها ولو ماتت •

والأحظ أن هذه النصيحة الشعرية تفترض أن يكون الرجل
مسيطرا على المرأة ، وأنها كالحمل الوديع • ومن الواضح أن الرجل
لا يكون دائما على هذه السيطرة ، والمرأة لن تكون دائما بهذه الوداعة :
ولكن عذر الغزالي فى اطلاق هذا النصح ، أن الغالب وقوع هذه الحال ،

قال رجل فى الغالب يأمر وينهى ، والمرأة تسمع وتطيع ، وما عدا ذلك
شذوذ ، وهم لا يضعون القواعد للشواذ !

والذى لا شك فيه ، من بين ما قال الغزالى ، أن الرجل يملك رقبة
المرأة ، ويستطيع أن يتزوج من غيرها ان شاء ، ويتصرف فى البيت بلا
رقيب ولا حسيب ، وأن المرأة تركت من أجله أمها وأباها وأقاربها ، وهو
لم يفارق لأجلها أحدا من العالمين •

- ١ -

واجبات المرأة

النكاح نوع رق - كما يقول الغزالى - فالزوجة رقيقة الزوج ،
وعليها طاعته فى كل ما يطلب ، مما لا معصية فيه • واليك خلاصة ما عليها
من الواجبات :

(١) أن تكون قاعدة فى قعر بيتها ، ملازمة لمغزلها ، لا يكثر صعودها
واطلاعها على سطوح الجيران •

(٢) وأن تكون قليلة الكلام لجيرانها ، ولا تدخل عليهم الا فى حال
يوجب الدخول •

(٣) وأن تحفظ بعلمها فى غيبته وحضرته ، وتطلب مسرته فى جميع
أمورها ، ولا تخونه ، لا فى نفسها ولا فى ماله •

(٤) وأن لا تخرج من بيتها الا باذنه ، فان خرجت باذنه فمختفية
فى هيئة رثة ، تطلب المواضع الخالية ، دون الشوارع والأسواق ، محتترزة
من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها •

(٥) وأن لا تتعرف الى صديق بعلمها فى حاجاتها ، بل تشكر على
من تظن أنه يعرفها أو تعرفه •

(٦) وإذا استأذن صديق لبعليها على الباب ، وليس البعل حاضرا ، لم تستفهم ولم تعاوده في الكلام ، غيرةً على نفسها وبعليها وأن تقنع من زوجها بما رزقه الله •

(٧) وأن تقدم حقه على حقها وحقوق سائر أقاربها •

(٨) وأن تكون مننظفة في نفسها مستعدة في جميع الأحوال ليتمتع بها ان شاء •

(٩) وأن تشفق على أولادها •

(١٠) وأن تكون قصيرة اللسان عن مراجعة الزوج وسب الأولاد •

(١١) وأن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها •

(١٢) وأن لا تذهب الى الحمام ، الا اذا لم يكن في البيت مستحجم ، وكانت نفسها أو مريضة ، وان دخلت فلا تدخل الا بمئزر سابغ •

- ١١ -

آداب الكتاب

ومما يوضح بعض الجوانب في تصور الغزالي للحياة ، وحرصه على النظام ، ما وضعه من آداب الكتاب ، فقد نئين بذلك وجهة نظره فيما ينبغي أن يكون عليه الكاتب من الخبرة والكفاية ، ولم تنشأ الا لمثل ذلك كليات الصحافة في العهد الحديث •

ويرى الغزالي أن الكاتب يجب عليه :

(١) أن يعرف بُعد الماء وقربه تحت الأرض •

(٢) وأن يعرف زيادة الليل والنهار ، ونقصانهما ، في الصيف والشتاء ، ومسير الشمس ، والقمر ، والنجوم •

- (٣) وأن يعرف الحساب ، والهندسة ، والتقويم .
- (٤) وأن يعرف اختيارات الأيام ، وما يصلح للمزارعين .
- (٥) وأن يعرف الطب والأدوية .
- (٦) وأن يعرف ريح الشمال والجنوب .
- (٧) وأن يعرف الشعر والقوافي .
- (٨) وأن يكون خفيف الروح ، طيب اللقاء .
- (٩) وأن يحسن برى القلم وقطه ، ورفع وحطه ، كما قال !
- (١٠) وأن يحرس نفسه من طغيان قلمه .
- (١١) وأن يظهر بشبا قلمه ما يجول في نفسه .
- (١٢) وأن يعرف ما يمد من الحروف .
- (١٣) وأن يبين الخط ، ويعطى كل حرف حقه .

وقد وضع الغزالي فوق ما تقدم صورة لما يمد أو يقصر من الحروف ، ووضع طريقة لبرى الأقلام العربية ، والفارسية ، والعبرية ، وما يجب أن يكون عليه المقط من الصلابة ، وما ينبغي أن يمتاز به القرطاس من التساوى والصقالة ، وما يحسن من تشابه صورة الأحرف ، ليقترب الخط من الجمال . وكل ما تقدم هو بالطبع صورة لرأيهم اذ ذاك فيما ينبغي أن يكون عليه الكتاب .

- ١٢ -

واجبات الملوك

يتكلم الغزالي كثيرا عن « الأمراء والسلاطين » ويذكر ما لهم وما عليهم ، وتجد في حقوق المحتسب من هذا الكتاب ما وضعه من الفرق بين ارشاد العامة ، وارشاد الأمراء والسلاطين كما يقول ، وقد وضع لهم

كتابا خاصا سماه « التبر المسبوك فى نصيحة الملوك » ، وهو الذى قدمه للسلطان محمد بن ملك شاه ، وقد فصلنا رأينا فيه ، فلا نعود اليه الآن .

ويستحسن الغزالي أن يقسم الملك نهاره الى أربعة أقسام : قسم لعبادة الله وطاعته • وقسم للنظر فى أمور السلطنة ، وانصاف المظلومين ، والجلوس مع العلماء والعقلاء لتدبير الأمور ، وسياسة الجمهور ، وتنفيذ الأوامر ، والمراسيم ، والكتابة ، وانفاذ الرسل ، وقسم للأكل والنوم ، والتزود من الدنيا ، واخذ الحظوظ من الفرح والسرور • وقسم للصيد ولعب الكرة والصولجان وما أشبه ذلك •

وينصح الغزالي للملك بأن لا يشتغل دائما بلعب الشطرنج ، والترد ، وشرب الخمر وضرب الكرة والصيد ، لأن هذه تمنعه عن الأعمال ، ولكل عمل وقت ، فاذا فات عاد الربيع خسرانا •

وفهم من هذا أن الملك يجوز له شرب الخمر مع الاقلال ، ولكن هذا ينافى حرص الغزالي واصراره على حرب المسكرات ، فلا يبعد أن تكون هذه الكلمة دست أو وقعت سهوا فى كتب « التبر المسبوك » •

ويجب فيما يرى الغزالي أن يراعى الملك ما يأتى من الأصول :

(١) أن يعرف قدر الولاية وخطرها ، وما يكون من سعاده اذا أحسن ، ومن شقائه اذا أساء •

(٢) أن لا يقنع برفع يده عن الظلم • بل يهذب غلمانه ، وأصحابه وعماله ، ونوابه ، فانه عن ظلمهم مسئول •

(٣) أن لا يتكبر ، فان التكبر داعية الغضب والانتقام •

(٤) أن يفرض نفسه واحداً من الرعية فى كل ما يعرض عليه . فما لا يرضاه لنفسه لا ينبغى أن يرضاه لأحد من المسلمين •

(٥) أن لا يشغل بنوافل العبادة ، وببابه أحد من أرباب الحوائج •

(٦) أن لا يعود نفسه الاشتغال بالشهوات : من لبس الثياب الفاخرة ، وأكل الأطعمة الطيبة ؛ بل يتعود القناعة في جميع الأشياء ، فلا عدل بلا قناعة •

(٧) أن يتجنب الشدة ، والعنف كلما أمكنه الرفق •

(٨) أن يجتهد في أن ترضى عنه الرعية بموافقة الشرع •

(٩) أن لا يطلب رضا أحد من الناس بمخالفة الشرع •

(١٠) أن يعين رعيته اذا وقعت في ضائقة ، وأن ينفق عليها من خزائنه ، اذا وقعت في قحط أو غلاء ، لأن في ذلك استبقاء لطاعتهم ودرءا لمطامع المحتكرين •

والغزالي لا يستنكر قسوة الملك ، اذا لؤمت الرعية ، بل يدعو الى أن تهابه الرعية وهو بعيد ، ويقول : « وسلطان هذا الزمان يجب أن تكون له أوفى سياسة ، وأتم هيبة ، لأن أناس هذا الزمان ليسوا كالمقدمين ، فان زماننا هذا زمان ذوى الوقاحة والسفهاء ، وأهل القساوة والشحناء • واذا كان السلطان والعاذ بالله بينهم ضعيفا أو كان غير ذى سياسة فلا شك أن ذلك يكون سبب خراب البلاد ، وأن الخلل يعود على الدنيا والدين » (١) •

والسياسة في كلامه هذا معناها الحزم في شدة وقسوة ، لينتهى المفسدون •

- ١٣ -

حقوق الوزراء

وعلى الملك أن يعامل الوزير بثلاثة أشياء :

الأول - اذا ظهرت منه زلة ، أو وجدت منه هفوة ، فلا يعاجله

بالعقوبة •

(١) س ٥٥ « التعبير المسبوك »

الثاني - اذا اتسعت حاله فى خدمته واستغنى ، فلا يطمع فى ماله
وثروته ♦

الثالث - اذا سألته حاجة فلا يتوقف فى قضائها ♦
وينبغى أن يمنحه ثلاثة أشياء :

الأول - أن لا يمتنع عن رؤيته متى اختار أن يراه ♦
الثاني - أن لا يسمع فى حقه كلام مفسد ♦
الثالث - أن لا يكتم عنه شيئاً من سره ، لأنه مدبر الدخل وبه عمارة.
الخزائن والولايات ♦

ويجب على الوزير :

أولاً - أن يكون محباً للخير ، مبغضاً للشر ♦
ثانياً - أن يعين الملك على الشفقة بالرعية اذا رأى منه الميل لذلك ♦
ثالثاً - أن يرشده باللطف اذا رأى منه ميلاً للظلم ♦

ويقول الغزالي فى نصيح الملك الذى أهداه كتابه : « وينبغى أن تعلم
أن دوام الملك بالوزير ، وأن دوام الدنيا بالملك ، وينبغى أن تعلم أنه
لا يجوز له أن يهتم بغير الخير » ص ٧٩ ♦

وهذه الواجبات التى وضعها للملوك والوزراء تعتبر فى الواقع مجملة
بالنسبة لما يحتاجون اليه من شتى الآداب فى معاملة الرعية ، ومعاملة
جيرانهم من الدول ، ولكن يلاحظ كذلك أنه حكم الشرع فى جملة
هذه الآداب ، وقد وضع الفقهاء عدة أحكام تخص الخلفاء والولاة ، ومما
أحسبه يخالفهم فى هذا الباب ♦

- ١٤ -

معاملة الملوك الظالمين

ومما يوضح جانباً من جوانب الأخلاق عند الغزالي رأيه فى معاملة
الظلمة من الأمراء والسلطين ، فقد حتم على من يأخذ مالا منهم أن ينظر

كيف وصل اليهم ، وأن يتأمل الصفة التي استحق بها الأخذ ، والمقدار الذي يأخذه ، وهل يستحقه اذا أضيف الى حاله وحال شركائه في الاستحقاق ، وبين أنه اذا لم يعرف للسلطان دخل الا من الحرام ، فالأخذ منه سحت محض • وأن واجب الورع يقضى بأن لا يأخذ المرء شيئاً من مال الظالم على الاطلاق ، فان لم يستطع فيأخذ ما يتأكد أنه حلال •

أما الدخول على الظلمة وغشيان مجالسهم فهو محظور • ولا تجوز زيارة الملك الجائر الا بعذرين : الأول - أن يكون من جهتهم أمر الزام ، لا أمر اكرام ، ويعلم الرجل أنه ان امتنع أودى ، أو فسدت طاعة الرعية : فتجب عليه الاجابة ، لا طاعة لهم بل مراعاة لمصلحة الخلق ، حتى لا تضرب الولاية •

الثاني - أن يدخل عليهم في دفع ظلم عن مسلم سواء • أو عن نفسه ، بطريق الحسبة ، أو بطريق التظلم •

واذا دخل عليك السلطان الظالم زائراً فجواب السلام لا بد منه ، والقيام له غير حرام ، والأولى تركه ان لم يكن معه أحد • ثم تأخذ في تعريفه ما يجهله ، وتخويفه فيما هو مستجرب عليه • وارشاده الى ما هو غافل عنه •

والأفضل فيما يرى الغزالي أن يعتزلهم المرء فلا يراهم ولا يرونه ! والأمر كذلك في معاملة قضاتهم ، وعمالهم ، وخدامهم •

وللغزالي في هذا الباب تفاصيل عجيبة فيما يتعلق بما يقيمون من القناطر والطرق والمساجد والسقايات والأسواق • وأخص ما يلاحظ أنه انما يدعو الى أن يخلص المرء ذمته ، مع البعد كل البعد عما يفضي الى فتنه أو اضطراب •

- ١٥ -

حقوق الأخوة

المراد بالأخوة الصحبة والصدقة ، الى غير ذلك مما تثمر الألفة- والألفة - كما نص الغزالي - ثمرة حسن الخلق ، اذ يوجب التحاب والتآلف والتوافق ، كما أن سوء الخلق يثمر التباغض ، والتحاسد . والتدابير •

ويجب فيما يرى الغزالي أن يكون للرجل أعداء يبغضهم في الله ، كما يجب ان يكون له أصدقاء يحبهم في الله •

ولكن الحب في الله ، والبغض في الله غامض ، وكشف الغطاء عنه ، قسم الصحبة الى : ما يقع بالاتفاق ، كالصحبة بسبب الجوار ، أو بسبب الاجتماع في المكتب ، وفي المدرسة ، أو في السوق ، أو على باب السلطان ، أو في الاسفار ، والى ما ينشأ اختيارا ويقصد ، وهو المراد • اذ لا ثواب ولا عقاب الا على الأفعال الاختيارية • والصحبة عبارة عن المجالسة ، والمخالطة ، والمجاورة • وهذه الأمور لا يقصد بها الانسان غيره الا اذا أحبه • والذي يحب : اما أن يحب لذاته ، واما أن يحب للتوصل به الى مقصود ، وذلك المقصود : اما أن يكون مقصورا على الدنيا وحفظها • واما أن يكون متعلقا بالآخرة ، واما أن يكون متعلقا بالله تعالى •

حب المرء لذاته وجماله

يرى الغزالي أن الانسان قد يحب لذاته ، لا لفائدة تنال منه في حال أو مآل ، بل لمجرد المجانسة ، والمناسبة في الطباع الباطنة والأخلاق الخفية ، ويدخل في هذا القسم ، فيما يرى ، الحب للجمال اذا لم يكن للمحب غرض خيى ، فان الجمال مستمليح لذاته ، وان قدر فقد أصل

الشهوة • والغزالي يضرب المثل لهذا بالنظر الى الفواكه ، والأنوار ، والازهار ، والتفاح المشرب بالحمرة ، والى الماء الجارى ، والخضرة من غير غرض مذموم اذ تحب لعينها • وهذا الحب كم . يقول الغزالي لا يدخل فيه الحب لله ، بل هو حب الطبع ، وشهوة النفس ، وهو مباح لا بوصف بمدح ولا بدم .

الحب للمنافع الدنيوية

وقد يحب الانسان لينال من ذاته غير ذاته • كما يحب الرجل سلطانا لانتفاعه بماله ، أو جاهه ، ويحب خواصه لتحسينهم حاله عنده •

والمتموصل اليه - كما يقول الغزالي - ان كان مقصور الفائدة على الدنيا ، لم يحن حبه من جملة الحب فى الله ، وان لم يكن مقصور الفائدة على الدنيا ، ولكنه لا يقصد به الا الدنيا كحب التلميذ لاستاذة ، فهو أيضا خارج عن الحب لله ، فانه انما يحبه ليحصل منه العلم لنفسه ، فمحبوبه العلم •

وينقسم هذا الحب فيما يرى الغزالي الى مذموم ومباح ، فان كان يقصد به التوصل لأغراض مذمومة كقهر الافران ، وحيازة اموال اليتامى ، وظلم الرعية بولايه القضاء او غيره ، كان الحب مذموما • وان كان يقصد به التوصل الى مباح فهو مباح •

الحب للمنافع الأخروية

وقد يحب الانسان ، لا لذاته بل لغيره ، وذلك الغير ليس راجعا الى حظوظه فى الدنيا ، بل يرجع الى حظوظه فى الآخرة ، كمن يحب أستاذة لأنه يتوصل به الى تحصيل العلم وتحسين العمل ومقصوده من العلم والعمل الفوز فى الآخرة • وهذا من جملة المحبين فى الله • ومثله من أحب زوجته لأنها آلة الى مقاصد دينية ، كالتحصن والولد الصالح •

الحب لمنافع الدنيا والآخرة

ويقول الغزالي : ليس من شرط حب الله أن لا يحب في العاجلة حظاً آتية • ويقول : اذا اجتمع في قلبه محبتان : محبة الله ، ومحبة الدنيا • فاجتمع في شخص واحد المعيان جميعا حتى صلح لأن يتوسل به الى الله والى الدنيا ، فاذا أحبه لصلاحه للأميرين جميعا فهو من المحبين في الله ، كمن يحب أستاذه الذي يعلمه الدين ، ويكفيه مهمات الدنيا بالمواساة في المال •

الدنيا خليقة بالحب

ولا يفوتنا أن ننوه بما وفق اليه الغزالي حين قال : « وعلى الجملة ، فاذا لم يكن حب السعادة في الآخرة مناقضا لحب الله تعالى ، فحب السلامة ، والصحة والكفاية والكرامة في الدنيا ، كيف يكون مناقضا لحب الله ؟ »
واندنيا والآخرة عبارة عن حالتين احدهما أقرب من الأخرى • فكيف يتصور أن يحب الانسان حظوظ نفسه غداً ولا يحبها اليوم ؟ وانما يحبها غداً لأن الغد سيصير حالا راهنة • فالحالة الراهنة لا بد أن تكون مطلوبة • الا أن الحظوظ العاجلة منقسمة الى ما يضاد حظوظ الآخرة ويمنع منها ، وهو الذي احترز عنه الأنبياء ، وأمروا بالاحتراز عنه • والى مالا يضاد ، وهو الذي لم يمتنعوا عنه كالنكاح الصحيح وأكل الحلال •

« وليس بمستكر أن يشتد حبك لانسان لجملة أغراض لك ترتبط به ، ولا يستحيل اجتماع الأغراض الدنيوية والأخروية ، فهو داخل في جملة الحب لله » •

وانما نوهنا بهذه الفقرة لأنها في صوابها تناقض ما يردده الغزالي من احتقار الأغراض الدنيوية ، والاشادة بالحياة الأخروية مما يخيّل الى القارئ أن الدنيا عنده أحقر من أن تتعلق بها الأغراض !

الحب لله

وقد يحب الانسان في الله والله • دون أن ينال منه شيء ، أو يتوسل به الى أمر وراء ذاته ، وهذا أعلى الدرجات ، وهو غاية في الدقة والعموض •

ميزان الحب

بين الغزالي أن المرء قد يحب لذاته ، وقد يحب لمقصود دنيوي أو أخروي ينال منه ، وقد يحب لله ، لا لغرض يقصد في حال أو مآل • ولكن ما هي دلائل ذلك الحب ، حميداً كان أو غير حميد ؟ وبأي ميزان يوزن ذلك الميل ، حتى تعرف درجات المحبين ؟

لقد وضع الغزالي ميزانا هو أدق موازين الحب في هذا الوجود ، وهو المال ! وانظر قوله : « ومن أحب ملكاً أو شخصاً جميلاً أحب خواصه وخدمه ، وأحب من أحبه ، إلا أنه يمتحن الحب بالمقابلة بحظوظ النفس ، وقد يغلب بحيث لا يبقى للنفس حظاً إلا فيما هو حظ المحبوب ، وعنه عبر من قال :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

وقول من قال :

فما لجرح اذا أرضاكم ألم

وقد يكون الحب بحيث يترك به بعض الحظوظ دون بعض ، كما نسمح نفسه بأن يشاطر محبوبه في نصف ماله ، أو في ثلثه ، أو في عشره • فمقادير الأموال موازين المحبة ، إذ لا تعرف درجة المحبوب إلا بمحسوب يترك في مقابلته فمن استغرب الحب جميع قلبه لم يبق له محبوب سواء فلا يملك لنفسه شيئاً •

المال هو أدق موازين الحب في هذا الوجود ، وقد أفصح عن ذلك
الغزالي ، وإن سبقه قول جميل :

سلينى مالى يا بشين فانما يبين عند المال كل ضنين

من نالخ على أخيه

وبعد الميزان الذى وضعه الغزالي للمحبة • لا نرانا فى حاجه الى
اجمال ما فصله من حقوق الاخوة ، ويكفى أن نذكر انه يرى للاخ حقا
على أخيه : فى نفسه ، وماله ، وقلبه ، ولسانه ؛ ولكل حق من هذه
الحقوق درجات تتناسب مع ما تنطوى عليه الصدور من حب قوى او
ضعيف •

حقوق الاخ المذنب

على أنى أرى من الواجب أن أذكر رأى الغزالي فى حقوق الاخ
المذنب ، فانه فيما أعتقد رأى كله صواب ، وهو فى الوقت نفسه كثير
على عصر كالعصر الذى عاش فيه الغزالي ، فلسنا نجعل أن الناس كانوا اذ
ذاك قليلي التسامح ، وأنهم كانوا مملوئين بالريب والظنون •

يرى الغزالي أن الصداقة لحمة كلحمة النسب • والقريب لا ينبغي
أن يهجر بالمعصية • فقد قال تعالى للنبي فى عشيرته : « فان عصوك فقل
انى برىء مما تعملون » ولم يقل انى برىء منكم ، مراعاة لحق القرابة ،
ولحمة النسب • قال الغزالي « ومن حيث أن الاخوة عقد ينزل منزلة
القرابة ، فاذا انعقدت تأكد الحق ، ووجب الوفاء بموجب العقد • ومن
الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وفقره • وفقر الدين أشد من فقر المال •
وقد أصابته جائحة ، وألمت به آفة افتقر بسببها فى دينه ، فينبغى أن يراقب
ويراعى ، ولا يهمل ، بل لا يزال يتلطف به ليعان على الخلاص من تلك
الواقعة التى ألمت به ، فالأخوة عدة للناثبات ، وهذا من أشد النواصب •

وقد توقع الغزالي أن يقول قائل : ان مقارن المعصية لا تجوز مؤاخاته ابتداء فتجب مقاطعته انتهاء • لأن الحكم اذا ثبت بعلة فالقياس أن يزول بزوالها ، وعلة عقد الأخوة التعاون في الدين ، ولا يستمر ذلك مع مقارفة المعصية • وقد أجاب بأن المعصية انما منعت ابتداء المؤاخاة مع الفاسق لانه لم يتقدم له حق ، أما الأخ المذنب فقد ثبتت أخوته ، فلا تسقط بالمعصية ، لما لا تسقط القرابة ، ومتى بقيت فقد بقي ما كان لها من الحقوق •

ويزيد الغزالي أن مصاحبة الفاسق خير من مجانبته ، اذ كانت الصحبة داعية الرجوع الى الحق ، والاقلاع عن الباطل ، بخلاف المجافاة ، فقد تقوى فيه الاصرار والعناد •

وهذه عظة بالغة ، لاولئك الذين كلما رأوا مبطلا فروا منه باسم الدين ، وهم يفرون من الواجب لو يعلمون !

- ١٦ -

البغض في الله

يقول الغزالي : « كل من يحب في الله لا بد أن يبغض في الله ، فانك ان أحببت انسانا لأنه مطيع لله ، ومحجوب عند الله ، فان عصاه لا بد أن تبغضه ، لأنه عاص لله وممقوت عند الله ، ومن أحب لسبب بالضرورة يبغض لضده ، ولكن البغض كما رأيت لا يوجب المجافاة •

العصيان بالاعتقاد

والمخالف لأمر الله اما أن يكون مخالفا في عقده أو في عمله ، والمخالف في العقد اما مبتدع أو كافر ، والمبتدع اما داع الى بدعته أو ساكت ، اما بعجزه أو باختياره ، فأقسام الفساد في الاعتقاد ثلاثة : -

الاول - الكفر والكافر ان كان محاربا فهو يستحق القتل والارقاق ،
وان كان ذميا فلا يجوز ايذاؤه الا بالاعراض عنه والتحقيق له •

الثاني - المبتدع الذى يدعو الى بدعته • فان كانت البدعة بحيث
يكفر بها فامرہ اشد من الذمى • لانه لا يقر بجزية ، ولا يسمح بعقد
ذمه • وان كان مما لا يكفر به فامرہ بينه وبين الله أخف من أمر الكافر
لا محالة ، ولكن الامر فى الانكار عليه اشد منه على الكافر ، لان شر
الكافر غير متعد • أما المبتدع الذى يدعو الى البدعة ويزعم أن ما يدعو
اليه حق فهو سبب لغوايه الخلق وسره متعد ، فالاستحباب فى اظهار
بغضه ، ومعاداته ، والانتقاط عنه ، وتحقيقه ، والتشنيع عليه ، وتفسير
الناس منه ، أشد •

الثالث - المبتدع العامى ، الذى لا يقدر على الدعوة ، ولا يخاف
الاعتداء به ، فامرہ اهن • والاولى أن لا يفتح بالتغليظ والاهانة ، بل
يتلطف به فى النصيح ، فان فلوب العوام سريعة القلب •

العصيان بالفعل

أما العصيان بالفعل لا بالاعتقاد فانواعه ثلاثة :

الاول - وهو أشدها ، ما يتضرر به الناس فى دنياهم ، كالظلم
والفصب • وشهادة الزور ، والغيبة • والنميمة ؛ وهذه معاص شديدة ،
لأنها ترجع الى اىذاء الخلق • وأصحاب هذه المعاصى ينقسمون الى من
يظلم فى الدماء ، والى من يظلم فى الأموال ، والى من يظلم فى الأعراض ،
بعضها أشد من بعض ، والاستحباب فى اهانتهم ، والأعراض عنهم مؤكدة
جدا •

الثاني - ما يتضرر به الناس فى آخرهم لا فى دنياهم ، كعمل
صاحب الماخور الذى يهوى أسباب الفساد ويسهل طرقها على الخلق ،
وهو قريب من الأول ، ولكنه أخف منه •

وأنا لا أفهم كيف يرى الغزالي أن هذا العمل لا يضر الناس في دنياهم^(١) .

الثالث - عمل الذى يفسق فى نفسه ، بشرب خمر ، أو ترك واجب ، أو مقارفة محظور يخصه • والامر فيه أخف مما سبقه ، ولكنه ان صودف وقت مباشرة العمل يجب منعه بما يمتنع به منه ، ولو بالضرب والاستخفاف •

نتيجة

ويحسن بالقارىء أن يضم الحب فى الله ، والبغض فى الله ، الى ما قرره الغزالي من وجوب الاحتساب ، فان ضم هذه الأبواب بعضها الى بعض يعطينا صورة واضحة لما يجب أن يكون عليه المسلم أو المريد أو ذو الخلق الحسن فيما يرى الغزالي •

والرجل الذى أحاطه بالحسبة ، والحب فى الله ، والبغض فى الله ، هو رجل يعرف ما يجب عليه للهيئة الاجتماعية ، التى تصلح بصلاح الأفراد ، فيهدب نفسه أولاً ليفهم بالضبط ماله وما عليه ، ثم يدعو الناس الى حفظ أموالهم وأنفسهم ، وينهاهم عن اقتراف ما يضر بهم وباخوانهم فى الدين ، ثم يبغض بقلبه وبجوارحه من بغض من العقيدة ، أو يظلم الناس • وقد فصل الغزالي ذلك كله بأسلوب بالغ التأثير ، ودعج كلامه بكثير من الآيات والاحاديث والاخبار •

- ١٧ -

آداب الزواج

يسمىها الغزالي آداب النكاح ، وهو أصح فى التعبير ، لان النكاح

(١) لم يكن للزنا فى عهده من المضار الدنيوية من الأمراض الفتاكة كالزهري ونحوه ماله اليوم فلم يرتق بنظره الى أكثر من الضرر الدينى لأنه هو المائل أمامه عهد الوهاب النجار

في كتب التشريع لا يراد به الجماع ، وانما يقصد به العقد • ولكننا فلنا
آداب الزواج ، مجارة للعرف الحديث •

وقد وضع الغزالي عدة آداب للنكاح ، تعد في الواقع ترغيبا فيه ،
وهي في جملتها من الآداب العادية • ويهمني منها أدب واحد ، أصاب
الغزالي في الاهتمام به ، وهو تربية النفس بالزواج على احتمال أعباء
المعاش • فقد ذكر أن الفائدة الخامسة من فوائد النكاح « هي مجاهدة
النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على
أخلاقهم ، واحتمال الأذى منهم ، والسعي في إصلاحهم ، وإرشادهم إلى
طريق الدين ، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهم ، والقيام بتربيته
لأولاده : فكل هذه أعمال عظيمة الفضل ، فانها رعاية وولاية ، والأهل
والولد رعية ، وفضل الرعاية عظيم • وانما يحترز منها من يحترز خيفة
من القصور عن القيام بحقوقها • والا فقد قال عليه السلام : « يوم من والٍ
ء دل أفضل من عبادة سبعين سنة » • ثم قال : « ألا كلكم راعٍ ، وكلكم
مسئول عن رعيته » وليس من اشتغل بإصلاح نفسه وغيره لمن اشتغل
بإصلاح نفسه فقط ، ولا من صبر على الأذى كمن رفه نفسه وإراحها
فمقاساة الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله • ولذلك قال بشر :
فضل على أحمد بن حنبل بثلاث : أحداها أنه يطلب الحلال لنفسه ولغيره •
وقد قال عليه السلام : « ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة ، وإن الرجل
ليؤجر في اللقمة يرفعها إلى في امرأته » •

ويقرر الغزالي بعد هذا أن في الصبر على الأهل رياضة للنفس ،
وكسراً للغضب ، وتحسيناً للخلق • ويذكرني هذا الأدب بما يكرره
سيدى الأستاذ الدكتور منصور فهمى في رسائله من كلمة « غرم الحياة
وغنمها » ويريد بذلك الترحيب بما في الحياة من متاعب ، في سبيل ما فيها
من الطيبات • والحق أن احتمال الأهل والولد من عزائم الأمور •
والشبان الذين ينفرون من الزواج إثاراً للراحة ، انما هم جبناء ، ضعفاء ،
لا يصلحون للجلاد في ميدان الحياة •

- ١٨ -

الخروج من المظالم

ونريد أن نبين رأى الغزالي فيما يجب على التائب الذى ظلم الناس •
 لأن فى ذلك بيانا لرأيه فى احترام ما يلزم المرء من مختلف الحقوق •
 وقد بدأ الكلام فى هذا الموضوع بقوله عليه السلام : (من كانت له عند
 أخيه مظلمة فى عرض أو مال ، فليتحللها منه من قبل أن يأتى يوم ليس
 هناك دينار ولا درهم) •

مظلمة العرض

فان كانت المظلمة متعلقة بالعرض ، فواجب على المقتاب أن يسد
 ويتوب ، ويتأسف على ما فعله ، ليخرج من حق الله • ثم يستحل المقتاب
 ليحله ، فيخرج من مظلمته • وينبغى أن يستحله وهو حزين متأسف
 نادم على فعله • لئلا يقارف بريائه معصية جديدة •

مظلمة المال

وان كانت المظلمة فى المال فعليه أن يميز الحرام ، وأن ينظر فى
 مصرفه •

فان كان الحرام معلوم العين : من غصب ، أو ودعة ، أو غير ذلك ،
 فأمره سهل • وان كان متلبسا فلا يخلو أمره من أن يكون فى مال هو
 من ذوات الأمثال ، كالحبوب والنقود والأدهان ، أو أن يكون فى أعيان
 متمايزة : كالعييد والدور والثياب •

فان كان فى المتماثلات ، أو كان شائعا فى المال كله ، كمن اكتسب
 المال بتجارة يعلم أنه قد كذب فى بعضها بالمرابحة ، وصدق فى بعضها ،
 أو من غصب دهنا وخلطه بدهن نفسه ، وفعل ذلك فى الحبوب والدرهم

والدنانير ، فلا يخلو أمره من أن يكون معلوم القدر أو مجهولا • فان كان معلوم القدر : كأن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام ، فعليه تمييز النصف • وان أشكل فله طريقان : أحدهما الأخذ باليقين ، والآخر الأخذ بنائب الظن ، وكلاهما قال به العلماء •

وفى الأعيان التمايزة : كالدور والعبيد ، يوزع القاضي الثمن بقدر النسبة • وان كانت متفاوتة ، أخذ من طالب البيع قيمة أنفـس الدور مثلاً ، وصرف الى الممتنع منه مقدار قيمة الأقل ويقدر التفاوت بالعرف •

صرف المال الحرام

فاذا أخرج الحرام فلا يخلو أمره :

(أ) اما أن يكون له مالك معين ، فيجب الصرف اليه أو الى وارثه • وان كان غائبا فينتظر حضوره • وان كانت له زيادة ومنفعة فلتجتمع فوائده الى وقت حضوره •

(ب) واما أن يكون للمالك غير معين مئوس منه لا يدرى أمات عن وارث أم لا • فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك ، ويوقف حتى يتضح الأمر فيه • فان لم يعرف المالك تصدق بالمال ، وله أن ينقسه على نفسه وعلى أولاده ان كان فقيرا • ومثل ذلك ما لو تعذر الرد لكثرة الملاك ، كفسول الغنيمة ، فانه كيف يقدر على جمع الغزاة بعد تفرقهم ؟ وان قدر فكيف يفرق ديناراً واحداً على ألف أو ألفين •

(ح) واما أن يكون من مال الفيء والأموال المرصدة لمصالح المسلمين كافة ، فيصرف ذلك الى القناطر ، والمساجد ، والطرق ، وأمثال هذه الأمور التي يشترك في الانتفاع بها عامة المسلمين •

مظلمة النفس

وان كانت المظلمة في النفس ، كالقتل ، فينظر في نوعه ، فان كان خطأً فليسلم الدية ، وان كان عمداً موجبا للقصاص فبالقصاص وله أن

يتعرف الى ولى الدم ويحكمه فى روحه ، فان شاء عفا عنه وان شاء قتله •
 وقد تنبه الغزالي الى آن هناك ذنوبا يجب أن تستر ، فلا يصح أن يظهر
 فيها الاستحلال ، لأن فى اظهاره جناية جديدة • والخروج من مثل هذه
 المظالم يكون بالمجاهدة ، ورياضة النفس ، والاحسان الموصول الى من
 أساء المرء اليه ، فان فى الاحسان جبرا للاساءة ، وهو دل ما يستطيعه
 التائب فى مثل هذه الحال •

- ١٩ -

واجب الاحتساب

الحسبة والاحتساب فى عرف المسلمين عبارة عن الامر بالمعروف
 اذا ظهر ترده ، والنهى عن المنكر اذا ظهر فعله • لقوله تعالى : « ولتكن
 منكم امة يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر »
 والاحتساب واجب على كل مسلم قادر ، وهو فرض كفاية ، اذا قام به
 واحد من المسلمين سقط عن الجميع ، ويصير فرض عين على القادر الذى
 لم يقم به غيره • واذا كانت القدرة شرطا للحسبة فقد أصبحت على ذوى
 السلطان أوجب ، لانهم أقدر من غيرهم • ومتى أقامت الحكومة محتسبة
 كان عليه أن يبحث عن المنكر الظاهر ليصل الى انكاره ، والمعروف
 المتروك ليأمر باقامته ، وكان لكل مسلم الحق فى أن يستعديه فيما يجب
 انكاره •

ومن الفسوق بين الحسبة والقضاء ، أن المحتسب يجوز له أن
 يتعرض لتصفح ما يأمر به من المعروف ، وينهى عنه من المنكر ، وان لم
 يحضره خصم مستعد ، وليس للقاضى أن يتعرض لذلك الا بحضور
 خصم يجوز له سماع الدعوى منه • وأنه يجوز للمحتسب أن يستعمل
 القوة فيما يتعلق بالمنكرات ، وليس للقاضى غير فحص القضية بالأناة
 والوقار •

ويطول بنا القول لو أردنا سرد الفروق بين الحسبة ، وأحكام القضاء ، وأحكام المظالم ، في الحكومات الاسلامية ، فلنكتف بهذا القدر ، تمهيدا لرأى الغزالي في شروط الاحتساب *

شروط المحتسب

ولا يجب على امرئ فيما يرى الغزالي أن يأمر بخير ، أو ينهى عن شر ، الا بالشروط الآتية :

أولا - أن يكون مكلفا * فلا يجب على الصبي أمر بمعروف ، ولا نهى عن منكر بل يجوز له ذلك ، وليس لأحد أن يمنعه *

ثانيا - أن يكون مؤمنا * ومفهوم أن الغزالي لا يعترف للمجاهد بشيء حتى يصلح للارشاد *

ثالثا - أن يكون عدلا * ويناقش الغزالي هذا الشرط ، ويذكر أن الأنبياء قد اختلف في عصمتهم عن الخطايا ، والقرآن العزيز دال على نسبة آدم عليه السلام الى المعصية ، وكذا جماعة من الأنبياء ، فلو اشترطنا في الارشاد أن يكون متعاطيه معصوما عن المعاصي لأغلق هذا الباب *

رابعا - أن يكون مأذونا من الامام والوالى * وقد ناقش الغزالي هذا الشرط ، ورأى أن تخصيص الاحتساب باذن الوالى بعد اطلاقه في الأحاديث والآيات ، تحكم لا أصل له * وقرر أنه يجب على المرء زجر العاصي أينما رآه ، وكيفما رآه *

خامسا - أن يكون قادرا * فليس على العاجز حسبة الا بقلبه * ولا يقف سقوط الوجوب عند العجز الحسى ، بل يلتحق به ما يخاف منه مكروها يناله ، فذلك في معنى العجز ، وكذلك اذا لم يخف مكروها وعلم أن انكاره لا ينفع - وقد اختلفت كلمة الغزالي في هذه النقطة ففي ص ٣٢٢ ج ٣ من الاحياء ينص على سقوط وجوب الحسبة حين يعلم أنها

لا تفيد • وفي ص ١٥٣ ج ١ يقول في النهي عن كشف العورة في الحمام « فاما قوله : اعلم أن ذلك لا يفيد ولا يعمل به فهذا لا يكون عذرا ، بل لا بد من الذكر ، فلا يخلو قلب امرئ عن التأثير من سماع الانكار واستشعار الاحتراز عند التلبس بالمعاصي • وذلك يؤثر في تقبيح الامر في عينه وتغيير نفسه عنه فلا يجوز تركه » •

وقد توقع الغزالي أن يقول قائل : ان المكروه المتوقع ما حده الانسان • فان الانسان قد يكره كلمة ، وقد يكره ضربة ، وقد يكره طول لسان المحتسب عليه في حقه بالغيبة ، وما من شخص يؤمر بالمعروف الا ويتوقع منه نوع من الأذى • وقد يكون منه أن يسعى به الى سلطان ، أو بقدح فيه في مجلس يتضرر بقدحه فيه ، فما حد المكروه الذي يسقط الوجوب به ؟

وأجاب الغزالي بأن الحسبة لا تسقط الا بالمكروه الظاهر كمن يعلم أنه يضرب ضربا مؤلما يتأذى به ، أو يعلم بأنه تنهب داره ، ويخرب بيته ، وتسلب ثيابه (١) •

المنكر المنهى عنه

ولا ينهى عن شيء فيما يرى الغزالي الا بالشروط الآتية :

أولا - أن يكون منكرا ، أي محذور الوقوع في الشرع • قال الغزالي « وانما عدلنا عن لفظ المعصية الى هذا ، لأن المنكر أعم من المصيبة ، اذ من رأى صبيّا أو مجنونا يشرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه ، وكذا ان رأى مجنونا يزني بمجنونة أو بهيمة ، فعليه أن يمنعه • ثم قال : ولا تختص الحسبة بالكبائر ، بل كشف العورة في الحمام ، والخلو بالاجنية ، واتباع النظر للنسوة الأجنبية ، كل ذلك من الصفات ويجب النهي عنه » •

١٤١ النظر ص ٣٢٣ ج ٢ احياه •

ثانيا - أن يكون المنكر موجودا في الحال ، فلا حسبة على من فرغ
من شرب الخمر ، ولا على من يعلم من قرينة حاله أنه عازم على الشرب
في ليلته •

ثالثا - أن يكون المنكر ظاهرا • فكل من ستر معصية في داره
وأغلق بابه لا يجوز أن يتجسس عليه ، وقد أمرنا أن نستر ما ستر الله ،
وننكر على من أبدى لنا صفحته •

رابعا - أن يكون المنكر معلوما بغير اجتهاد ، فكل ما هو في محل
الاجتهاد فلا حسبة فيه ، وهذا الشرط الأخير يدل على قدر الغزالي
الحرية الرأي والتفكير ، وما أحوج المصلحين إلى تأمله والعمل بمقتضاه !

صفات المرشد

ويجب أن يتصف المرشد بالعلم ، والورع ، وحسن الخلق

أما العلم فيعلم مواقع الحسبة ، وحدودها ، ومجاريها ، وموانعها ،
ليقتصر على حد الشرع • وأما الورع فليردعه عن مخالفة معلومه ، وربما
يعلم أنه مسرف في الحسبة ، وزائد على الحد المأذون فيه شرعا ، ولكن
يحملة عليه غرض من الأغراض ، وأما حسن الخلق فليتمكن به من
اللطف والرفق ، وهو أصل هذا الباب •

قال الغزالي : « فهذه الصفات الثلاث بها تصير الحسبة من القربات
وبها تندفع المنكرات ، وإن فقدت لم يندفع المنكر ، بل ربما كانت الحسبة
أيضا منكرا لمجاوزة حد الشرع فيها » ^(١) •

وقد نص على أن اشتراط الورع ليس معناه أن الأمر بالمعروف
يصير ممنوعا بالفسق ، وإنما يسقط أثره من القلوب بظهوره للناس •

(١) ص ٣٣٧ ج ٣ احياء •

انواع المنكرات

قسم الغزالي المنكرات الى مكروهة ومحظورة ، وبين أن منع المكروه مستحب ، والسكوت عليه مكروه ، وليس بحرام الا اذا لم يعلم الفاعل أنه مكروه فيجب ذكره له ، لأن الكراهة حكم في الشرع يجب تبليغه الى من لا يعرفه ، وأن منع المحظور واجب والسكوت عليه حرام •

ثم ذكر طائفة من المنكرات التي تتجرب في المساجد ، والأسواق ، والشوارع ، والحمامات ، والضيافة • وآرائه في هذا الباب مسددة ، ترجع الى الحرص على سلامة الناس في دينهم ومعاشهم ، واصلاح ذات بينهم • فمنها دعوته الى منع ما يؤدي الى تضيق الطرق واستمرار المارة ، ودعوته الى منع الملاك من تحميل الدواب ما لا تطيقه ، وهو رفق بالحيوان • ودعوته الى منع الاسراف في الطعام والبناء • والذي يتأمل ما سرده الغزالي من المنكرات يدرك مبلغ حرصه على غرس الرجولة والشرف في نفوس الأفراد والجماعات •

درجات الاحتساب

للاحتساب درجات ، وهي :

(١) التعريف (٢) ثم النهي (٣) ثم الوعظ (٤) ثم النصح (٥) ثم السب والتعنيف (٦) ثم التغيير باليد (٧) ثم التهديد بالضرب (٨) ثم ايقاع الضرب وتحقيقه (٩) ثم شهر السلاح (١٠) ثم الاستظهار بالأعوان وجمع الجنود •

وفي الدرجة الأخيرة يقول الغزالي : « وربما يستمر الفاسق أيضا بأعوانه ، ويؤدي ذلك الى أن يتقابل الصفان ويتقاتلا • فهذا قد ظهر الاختلاف في احتياجه الى اذن الامام • فقال قائلون : لا يستقل آحاد الرعية بذلك ، لأنه يؤدي الى تحريك الفتن وهيجان الفساد وخراب

البلاد • وقال آخرون : لا يحتاج الى الاذن • وهو الأقيس ، لأنه جاز
للآحاد الامر بالمعروف ، وأوائل درجاته قد تجر الى ثوان وثوالث ، وقد
ينتهى لا محالة الى التضارب ، والتضارب يدعو الى التعاون • فلا ينبغي أن
يبالى بلوازم الأمر بالمعروف ، ومنتهاه تجنيد الجنود فى رضا الله ودفع
معاصيه « ص ٣٣٦ ج ٣ •

ارشاد الامراء

ولا يجوز من درجات الاحتساب مع الأمراء والسلاطين - فيما
يرى الغزالي - الا الرتبتان الاوليان وهما التعريف والوعظ • أما المنع
بالقهر فليس لآحاد الرعية مع السلطان ، فان ذلك يحرك الفتن ويهيج
الشر ، ويكون ما يتولد عنه من المحذور أكثر •

وأما التخشين فى القول ، كقوله : يا ظالم ، يا من لا يخاف الله «
وما يجرى مجراه ، فذلك ان كان يحرك فتنة يتعدى شرها الى غيره لم
يجز ، وان كان لا يخاف الا على نفسه ، فهو جائز ، بل مندوب اليه ،
ومن قتل فى هذا فهو شهيد •

الباب الحادى عشر **فى تأثير الغزالى فى عصره** **وما نلناه من العصور**

أثر الغزالى فى عصره أثرا غير قليل : فشطرت أهل العلم ، والولاء ،
شطرين : أحدهما ينصره ، والآخر يخذله ، وما زال الفريقان يختصمان
حتى طيرا شهرته فى جميع الآفاق •

وقد رأى الغزالى فى حياته من يقده ، ويقدمه على جميع العلماء :
ورأى فى الوقت نفسه كتبه تحرق فى بعض الاقطار الاسلامية ، رميا
لها بالدعوة الخفية الى الكفر والالحاد !

- ١ -

تجديده للقرن الخامس

وكان جمهور المسلمين فيما سلف يعتقد أن الله يبعث على رأس كل
مائة سنة من يجدد أمر الدين ، ولهم فى هذه العقيدة كلام طويل ، وفيها
يقول الجلال السيوطى فى أرجوزته :

والشرط فى ذلك أن تمضى المائة وهو على حياته بين الفساة
يشار بالعلم الى مقامه وينصر السنة فى كلامه
وأن يكون جامعا لكل فن وأن يعم علمه أهل الزمن

وأن يكون فى حديث قدروى من أهل بيت المصطفى وقد قوى
وكونه فردا هو المشهور قد نطق الحديث والجمهور
وهم يعتقدون أن مبعوث المائة الاولى عمر بن عبد العزيز ومبعوث
الثانية الشافعى ، والثالثة الأشعرى أو ابن سريج ، والرابعة الاسفراينى
أو الصعلوكى أو الباقلانى • ويتفقون على أن مبعوث المائة الخامسة هو
الغزالى ، ويقول السيوطى فى ذلك :

والخامس الجبر هو الغزالى وعده ما فيه من جدال (١)

وأنا لا أريد الآن تحقيق هذه الفكرة ، وبيان ما تركز عليه من
أساس قوى أو ضعيف ، فهمى فى ذاتها فكرة سخيفة ، ونظم السيوطى
فيها أسخف ، ويكفى أن يعلم القارىء أن الغزالى بذ معاصريه ، وأخلمهم ،
حتى جاء المتأخرون فعدوه مجدد المائة الخامسة ، وقد يكونون مخطئين !

- ٢ -

المنامات والاحلام

ومما يدل على أن الغزالى شغل الناس ، واحتل أفئدتهم ، وصار
موضع وساوسهم ، وهواجسهم ، وأحلامهم ، ما رأيناه لغير واحد من
المنامات المتشابهة فى تأييد الغزالى ، ونشر فضله •
فهذا السبكي يذكر فى طبقاته أنه كان فى زمانه شخص يكره
الغزالى ويذمه ويعيبه فى الديار المصرية ، فرأى النبى صلى الله عليه
وسلم فى المنام ، وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما بجانبه ، والغزالى جالس
بين يديه وهو يقول : يا رسول الله هذا يتكلم فى ! وأن النبى صلى الله
عليه وسلم قال : هاتوا الشياطين ، وأمر به فضرِب لأجل الغزالى ، وقام
هذا الرجل من النوم وأثر الشياطين على ظهره ، ولم يزل ، وكان يبكى
ويحكيه للناس (! ؟) •

(١) راجع شرح الزبيدى ص ٢٦ ج ١ •

ويذكر السبكي أيضا أن أبا الحسن بن حرزهم لما وقف على الأحياء وتأمله ، قال هذا بدعة ، مخالف للسنة ، وكان شيخا مطاعا في بلاد المغرب ، فأمر باحضار كل ما فيها من نسخ الأحياء ، وطلب من السلطان أن يلزم الناس بذلك ، فكتب الى النواحي ، وشدد في ذلك ، وتوعد من يخفى شيئا منه ، فأحضر الناس ما عندهم واجتمع الفقهاء ، ونظروا فيه ، ثم أجمعوا على احراقه يوم الجمعة وكان ذلك يوم الخميس ، فلما كانت ليلة الجمعة رأى ابن حرزهم في المنام كأنه داخل من باب الجامع الذي تعود الدخول منه ، فرأى في ركن المسجد نورا ، وإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر رضى الله عنهما جلوس ، والامام أبو حامد قائم وبيده الأحياء فقال يا رسول الله : هذا خصمى ! ثم جثا على ركبتيه وزحف عليهما الى أن وصل الى النبي صلى الله عليه وسلم فنأوله كتاب الأحياء ، وقال : يا رسول الله انظر فيه ، فان كان بدعة مخالفا لستك كما زعم ، تبت الى الله تعالى ، وان كان شيئا تستحسنه حصل لى من بركتك ، فانصفنى من خصمى ! فنظر فيه رسول الله ورقة ورقة الى آخره ، ثم قال : ان هذا شيء حسن ، ثم نأوله أبا بكر فنظر فيه كذلك ، ثم قال : نعم ! والذي بعثك بالحق يا رسول الله انه حسن ! ثم نأوله عمر فنظر فيه كذلك ، ثم قال كما قال أبو بكر : فأمر رسول الله بتجريد أبى الحسن بن حرزهم من ثيابه : وضربه حد المفترى ، فجرد وضرب ، ثم شفع فيه أبو بكر بعد خمسة أسواط ، وقال يا رسول الله ، انما حصل ذلك منه اجتهدا فى سنتك وتعظيما * فعفا عنه أبو حامد عند ذلك ، فلما استيقظ من منامه ، وأصبح ، أعلم أصحابه بما جرى ، ومكث قريبا من الشهر متألما من الضرب ، ثم سكن عنه الالم ، ومكث الى أن مات ، وأثر السياط على ظهره (١٩) * .

وهناك المنام الذى رأى فيه أبو الفتح الساوى أنه تلا بين يدى رسول الله قواعد العقائد الذى صنفه الغزالي ، وهو منام طويل نقله السبكي

فى طبقاته • وقد كنت وضعت قائمة لأمثال هذه المنامات ، نم بدا لى أن
اقتصر على ما ذكرت رغبة فى الایجاز •

وأنا لا أتخذ من هذه الأحلام دلیلا على أن الغزالی من أصحاب
الكرامات ، كما نوّه بذلك مترجموه ، كلا ! وإنما اتخذها دلیلا على
ما وصلت الیه منزلة الرجل فى قلوب المسلمين ، فان لما یراه المرء فى
منامه صلة قوية بما یلهج به فى یقظته ؛ وهؤلاء الذین جلدوا فى منامهم ،
لا یبعد أن یكونوا استشعروا خوف الغزالی وهم أیقاظ ، وعلى الاخص اذا
لاحظنا ما شاع بین المسلمين فى تلك العصور الخوالى من سلطة الاولیاء ،
وتصرفهم المطلق فى عالم الاحیاء ، وسبحان من جلّ عن الشریك ! •

- ٣ -

تلامذة الغزالی وأصحابه

ومما یبین عن أثر العالم فى عصره ، تلامذته وأصحابه : فهم فى
علمهم ، وأدبهم ، أثر من آثاره • وقد أثر الغزالی تأثیرا حسنا فى جمهور
كثیر من تلامذته وأصحابه ، ذكرهم الزبیدی ، منهم القاضى أبو نصر
أحمد بن عبد الله الخمقرى (نسبة الى خمس قرى التى تعرف بسیخ
رية) ولد سنة ٤٦٦ هـ وتوفى سنة ٥٤٤ هـ ومنهم الامام أبو الفتح أحمد
ابن على بن محمد بن برهان - بفتح الباء - ولد سنة ٤٧٦ هـ وتوفى سنة
٥١٨ هـ ومنهم أبو منصور محمد بن اسماعیل بن القاسم الطوسى توفى سنة
٤٨٦ هـ ومنهم أبو سعید محمد بن أسعد بن محمد النوقانى قتل فى مشهد
على بن موسى الرضى سنة ٥٥٤ هـ فى واقعة النفر ومنهم أبو عبد الله محمد
ابن عبد الله بن تومرت المصمودى الملقب بالمهدى صاحب دعوة سلطان
المسلمین عبد المؤمن بن على ملك المغرب ، دخل الشرق وتفقه على
الغزالی • ومنهم أبو حامد محمد بن عبد الله بن محمد الجوزقانى

الاسفرايينى • ومنهم أبو سعيد محمد بن على الجاوانى الكردى حدث بكتاب « الجام العوام » للغزالى عنه • ومنهم الامام أبو سعيد محمد بن يحيى بن منصور ولد سنة ٤٧٦ وهو من أشهر تلامذة الغزالى ، تفقه عليه وشرح كتابه « البسيط » •

وما أريد أن أطيل فى هذا الباب ، وانما أنص هنا على أن تلامذة الغزالى أحدثوا أثرا كبيرا فى الحياة الاسلامية ، وأكثرهم ماتوا شهداء ، وليس اشتراك العلماء فى الحركات العامة ، الا أثرا لقوتهم المعنوية ، وايمانهم بما يدعون اليه • وأنص أيضا على أن تلامذة الغزالى لم يعرفوه غالبا الا بمؤلف الاحياء ، فهم لم يصحبوه لمؤلفاته فى الفقه أو المنطق أو الاصول ، وانما صحبوه على أنه داع الى الله ، ومرشد لمكارم الاخلاق •

- ٤ -

مؤلفاته وفتاواه

ومما يدل على مبلغ تأثير الغزالى فى الحياة الاسلامية ، عناية الناس بمؤلفاته وفتاواه • فانا نجد مثلا كتابه الوجيز فى الفقه وضع له نحو سبعين شرحا كما قال الزبيدى ، وقد قيل : لو كان الغزالى نبيا لكان معجزته الوجيز ! ومن شرح هذا الكتاب الفخر الرازى وأبو الثناء محمود ابن أبى بكر الأرموى • والعماد أبو حماد بن يونس الاربلى وأبو الفتوح العجلى ، وأبو القاسم عبد الكريم بن محمد القزوينى الرافعى ، وقد اختصر النووى من شرح الرافعى كتابا سماه الروضة ، وخرج أحاديثه ابن الملقن فى سبع مجلدات ، سماه البدر المنير ، ثم اختصره فى أربع مجلدات وسماه الخلاصة ، ثم لخصه فى جزء ، وسماه المنتقى • ولخصه أيضا الحافظ بن حجر ، وشرح الوجيز أيضا البدر الزركشى ، والبدر ابن جماعة ، والشهاب البوصيرى ، والجلال السيوطى • ونجد أيضا كتابه « الوسيط » فى الفقه ، شرحه تلميذه محمد بن

يحيى النيسابورى شرحا سماه « المحيط » فى ستة عشر مجلدا ، وشرحه
نجم الدين أحمد بن على بن الرفعة فى ستين مجلدا وسماه « المطلب »
وشرحه النجم القمولى وسماه « البحر المحيط » ، وشرحه عدد غير هؤلاء
ذكرهم الزبيدى فى ص ٤٣ ج ١ شرح الاحياء •

وقال عمر بن عبد العزيز بن يوسف الطرابلسى يمدح كتبه الأربعة
فى الفقه :

هذب المذهب حبر أحسن الله خلاصه
بسيط ووسيط ووجيز وخلاصه

ونجد كذلك كتابه « المستصفى » فى الأصول موضع عناية العلماء ،
فقد اختصره أبو العباس أحمد بن محمد الأشيلى المتوفى سنة ٦٥١ هـ •
وشرحه أبو على الحسن بن عبد العزيز الفهرى المتوفى سنة ٧٧٦ هـ ،
وعليه تعليقات لسليمان بن داود الغرناطى المتوفى سنة ٨٣٢ هـ •

ونجد كتابه « تهافت الفلاسفة » قد أحدث رجة عنيفة بين فلاسفة
المسلمين ، فقام ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ ، وألف كتابا فى نقده ،
ومقام ابن رشد فى عالم الفلسفة غير مجهول • ثم جاء خوجه زاده المتوفى
سنة ٨٩٣ هـ ، وألف كتابا فى التحكيم بين الغزالى وابن رشد بإشارة
السلطان محمد الفاتح العثمانى • ووضع علاء الدين بن على الطوسى كتابا
فى المحاكمة بين الغزالى وابن رشد سماه « الذخيرة » ومنه نسخة بدار
الكتب المصرية نمرة ١٧٤ •

ونجد كتابه « قواعد العقائد » شرحه ركن الدين الاسترابادى ومحمد
أمين بن صدر الدين الشروانى •

ونجد العلماء عنوا بتحقيق نسبة (المصنوعون به على غير أهله) الى
الغزالى • وممن بحث ذلك السبكى وصاحب « تحفة الارشاد » وصنف

أبو بكر محمد بن عبد الله المالقى المتوفى سنة ٢٧٥٠ هـ كتابا فى رده ، وهذا مظهر لعناية العلماء بنفى ما دس عليه •

وليست عناية العلماء بفتاواه بأقل من عنايتهم بكتبه ، فقد جيمعها غير واحد ، بل رأينا من كتب دروسه التى كان يعظ بها الناس فى بغداد ، ورأيناهم يحفظون ما نقل عنه من القصائد المتفرقة (انظر نمرة ٢٤٣ ، ١٢٨ ، ٥٦٢ ، ٢٧٦٢ من فهرست دار الكتب المصرية) •

ولو رجعنا الى ما ألف فى الوعظ والفقه فى العصر الأخيرة لرأينا أكثر المؤلفين يرجعون الى الغزالى فى أكثر الأبواب •

وقد أخبرنى صديقى عبد القوى أفندى الحلبي أن من النادر أن تنشأ مكتبة فى أى قطر من الأقطار الاسلامية ، ولا تشتمل قائمتها على طائفة من كتب الغزالى فى الفقه والأخلاق •

- ٥ -

علاقة الفقه بالأخلاق

وقد يبدو لأول نظرة ، أن لا صلة بين اهتمام العلماء بمؤلفاته فى الفقه وبين تأثرهم بما كتب فى الأخلاق ، ولكننا لو عرفنا أن الروح السائد فى ذلك العصر كان يجمع بين الفقه والتصوف ، لرأينا أن اهتمام المؤلفين بشرح مصنفات الغزالى إنما كان أثراً لايمانهم بصلاحه وتقواه ، وقد كانت الأوساط الفقهية ولا تزال تعتقد أن لصلاح المؤلف تأثيراً فى الانتفاع بمؤلفاته ، ولو كتب فى الحساب والنجوم •

أضف الى هذا أن الغزالى نفسه كان يعنى بالفقه والتوحيد فى مؤلفاته الأخلاقية ، فكأنه يرى هذين الفنين جزءاً أو مقدمة لعلم الأخلاق •

والذين عنوا بنقد كتبه انما التفتوا أيضا الى الوجهة الأخلاقية ؛
فالقضاة منهم كانوا يرونه خطرا على الأخلاق ، لأنه يجانب الشريعة ،
وهي فيما يرون أساس الأخلاق • والفلاسفة منهم كانوا يخافونه على
الأخلاق ، لأن لها قواعد متينة تلقوها عن معلمهم ، وصاحبنا هذا يريد
أن يأتي على تلك القواعد بأذاعته وسائوس المتصوفة ، وقد وقع ما كانوا
يحذرون •

- ٦ -

تأثير الاحياء

ولئن قالوا في « الوجيز » ما قالوا ، ووضعوا عليه ما شاءوا من
عشرات الشروح ، وفعلوا مثل ذلك أو قريبا منه في مؤلفاته في الفقه ،
والتوحيد ، والأصول ، فان أبعد كتبه أثرا ، وأسيرها ذكرا ، وأبقاها
على وجه الدهر ، هو كتابه « احياء علوم الدين » بلا جدال •

كتب الغزالي في الفقه ، ولكن لم يجدد مذهبه الا بمقدار ، فلم
يثر فتنة • وكتب في المنطق ، ولكنه لم يزد عن سواء غير الابانة
والايضاح • وكتب في الأصول ، ولكن بحيث لا يثير الخصومة ، ولا
يهيج اللدد • وكتب في الفلسفة • ولكنه لم يزد على أن تغني بليلى
معاصريه • وكتب في التوحيد ، فلم يخالف الأشاعرة الا قليلا ، فظل
مستور الحال •

وما كتب « الاحياء » حتى التفت الناس اليه من كل جانب ، وسار
اسمه مسير الشمس ، وشغلت به جميع القلوب ، شوقا اليه أو عتبا عليه ،
أو بغضا له ، أو رفقا به • وقد شهد هذه الضجة ، وسمع هذه الصيحة ،
وهو حي يرزق • وحاول أن يهدي ناقديه بكتاب يوضح فيه ما غمض
في الاحياء ، وهو « الاملاء على اشكالات الاحياء » ولكنه في الواقع لم

يزده الا اشكالا الى اشكال • فليج الناس فى المراء فوضع كتابه «المنهاج» على أن يكون موضع وفاق ، فكان فى الواقع أيضا ضعفاً على ابالة ، ثم مات الغزالى قبل أن يحسم هذا النزاع ، فلم تهدأ العاصفة بموته ، بل قامت قيامة الجدل بين تلامذته وبين خصومه ، ولا يزالون مختلفين !

ويمكن الحكم بأن الخصومة التى كانت بين أنصار الغزالى وبين خصومه كانت خصومة بين الشريعة والتصوف ، فان أنصار الغزالى جميعا صوفية ، أو شبه صوفية ، وخصومه جميعا من علماء الشريعة • وأبعدهم غورا فى النيل منه هم المتصدرون للفتيا والقضاء •

فيينا نجد ابن القيم يرميه (بالتخليط والبهذيان) نجد أبا الحسن الشاذلى يذكر أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه وقد باهى موسى وعيسى بالغزالى • وقال : أفى أمتيكما جبر كهذا ؟ فقالا • لا ! ونجد أبا العباس المرسى يشهد له بالصدقية العظمى ! وليت شعرى ماهيه ؟

والفرق كبير بين من يرميه بالتخليط والبهذيان وبين من يحلم بأن لا نظير له فى أمة موسى وعيسى عليهما السلام •

وقد قدمت لك شيئا من المنامات المتعلقة به ، وبينت مالها من أسباب ، وأزيد الآن أن كل هذه المنامات مسببة عن « الاحياء » فهى تارة تقع لناقدى ذاك الكتاب ، وتارة تقع للمتفيعين به من علماء الاسلام •

والذين أحرقوا « الاحياء » لم يحرقوه لأنه كتاب هين ؟ والذين ألفوا الكتب فى نقده ، لم يفعلوا ذلك لأنه كتاب هين ؟ وانما نقده هؤلاء ، وأحرقه أولئك ، لأنه فيما يرون كتاب خطر ، وليكن خطرا على الاسلام والمسلمين ، وليكن كتاب شر وفتنة ، وليكن كتلة زندقة والحاد ، فهو على كل حال كتاب رهيب خشيه أولئك الناس ، وهذا ما يعنينا الآن •

وأشهر من نقد « الاحياء » الامام أبو عبد الله المأزرى المالكى

المتوفى سنة ٥٣٦ هـ وقد ناقشه السبكي في طبقاته ، فليرجع اليه من شاء ،
ويتلخص نقد المازري في أن الغزالي غير ثقة فيما تعرض له من الفنون ،
وأن كتابه (متردد بين مذاهب الموحدين والفلاسفة وأصحاب الاشارات)
ويتلخص رد السبكي في رمي المازري بالحسد والكيد للصوفية في شخص
الغزالي ، وممن نقده أبو الوليد الطرشوشى وتجد جملة من نقده في
الجزء الأول من شرح « الاحياء » للزبيدي . فأما الذين كتبوا في فضل
الاحياء فهم كثير : منهم الشيخ عبد القادر العيدروس ، وضع كتابا سماه :
« تعريف الأحياء » ، بفضائل الاحياء « وفي أيدي الناس كتاب لبعض
الفضلاء اسمه : « بغية القاصدين لفضائل احياء علوم الدين » .

وأطال السبكي في مدحه حتى نقل عن بعض المحققين أنه قال :
« لو لم يكن للناس في الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم
بين النقل والنظر والفكر والأثر غيره لكفى » ثم قال : « وهو من الكتب
التي ينبغي للمسلمين الاعتناء بها واشاعتها ليهتدى بها كثير من الخلق ،
وقلما ينظر فيه ناظر الا ويتعظ به في الحال .

ويدل على مبلغ تأثير « الاحياء » عناية العلماء به ، فانا نجد الحافظ
العراقي خرج أحاديثه في كتابين : أحدهما كبير الحجم في مجلدين ،
وهو الذي صنفه في سنة ٧٥١ هـ ثم اختصره في مجلد وسماه « المغنى عن
حمل الاسفار » . ثم اتى تلميذه شهاب الدين بن حجر العسقلاني
فاستدرك عليه ما فات في مجلد . وصنف الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى
كتابا سماه : « تحفة الأحياء فيما فات من تخريج أحاديث الاحياء » وقد
سبقت كلمتنا فيما نقل السبكي من الأحاديث الموضوعة .

وممن اختصر « الاحياء » أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزالي
المتوفى بقزوين سنة ٥٢٠ هـ وسماه « لباب الاحياء » وأحمد هذا هو أخو
الغزالي . ثم اختصره أحمد بن موسى الموصلى المتوفى سنة ٥٦٢٢ هـ ثم
محمد بن سعيد اليمنى ، ويحيى بن أبى الخير اليمنى ، ومحمد بن عمر

ابن عثمان البلخي وسماه « عين العلم وزين الحلم » (انظر نمرة ١٠٩ من فهرست دار الكتب المصرية) واختصره عبد الوهاب بن علي الخطيب المراغى وسماه « لباب الاحياء » واختصره الشمس محمد بن علي بن جعفر العجلوني المشهور بالبلالى شيخ خانقاه سعيد السعداء بمصر المتوفى سنة

٨٢٠ هـ

واختصره ابن الجوزى فى كتاب سماه : « منهاج القاصدين » ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية نمرة ١٦٧ •

وللاحياء شرح مطول يقع فى عشر مجلدات ، وفيما شاء الله من الصفحات ، ألفه الزبيدى ، وقد اعتمدت على هذا الشرح فى تحقيق كثير من مواطن الخلاف •

ولم يقف الأمر عند شرح الاحياء ، واختصاره ، وتخريج أحاديثه ، بل وضعت الأبحاث المفردة ، لشرح كلمة وردت فى الاحياء ، وهى : « ليس فى الامكان أبدع مما كان » وممن شرح هذه الكلمة : عبد الوهاب الشعرانى ، وعبد الكريم الجبلى ، ومحمد المغربى شيخ الجلال السيوطى ، وأحمد بن مبارك السجلماسى ، وأبو بكر بن عربى • ووضع ناصر الدين بن المنير الاسكندرى رسالة فى هذه المسألة سماها : « الضياء المتلالى » فى تعقب الاحياء للغزالى ، وفى مناقضة هذه الرسالة ألف السيد السهمودى رسالة تقع فى سبعة كرايس كما قال الزبيدى • وألف البرهان البقاعى رسالة فى هذه المسألة سماها « تهديم الأركان » وألف الجلال السيوطى رسالة ناقض بها البقاعى سماها « تشييد الأركان » •

- ٧ -

الانتفاع بمؤلفات الغزالى

ولقد تتبعنا المصنوع التى تلت عصر الغزالى فوجدت الانتفاع بمؤلفاته ظاهرا كل الظهور فى حياة علماء الدين والتصوف والأخلاق •

ولقد رأيت من بينهم من هم يحفظ كتاب الاحياء عن ظهر قلب • ورأيت منهم من كان يتقرب الى الله بنسخ هذا الكتاب • وتجد في ص ٦٩ ج ٣ من « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر » مظهرا لأثر الغزالي في ذلك العصر ، اذ تجد من العلماء من يتخذ ورداً من الاحياء كما يتخذ ورداً من القرآن ولولا خوف الاطالة لضربت للقارئ عشرات الأمثال •

وفي العصر الحاضر يدرس كتاب الاحياء في الأزهر والمعاهد الدينية ، وكان الأستاذ الشيخ محمد عبده قرر أن يدرس معه كتاب ابن مسكويه في تهذيب الأخلاق ، ولكن رأى العلماء فيه آراء فلسفية ، فقرروا لذلك حذفه ، لئلا يفسد الطلاب •

والأستاذ الشيخ يوسف الدجوى ينصح لتلامذته دائماً بالانتفاع بكتاب الاحياء • وكنت ممن أوصاهم بذلك ، ولكن الله لم يشأ أن أكون كما أراد الأستاذ ، فقد رأيت كيف صورت الغزالي بصورة الرجل الذى قد يخطئ • وقد يصيب ، وهذا من مثلى كثير !

وأثر الغزالي ظاهر فى مؤلفات الشيخ الدجوى ، وهو أيضا سبب ضعف تلك المؤلفات : فان كتاب « سبيل السعادة » الذى وضعه الأستاذ منذ بضع سنين يشبه أن يكون خلاصة مشوهة للآراء الحديثة فى فهم أصول الأخلاق ، وفضيلة الشيخ معذور لأنه لا يعرف لغة أجنبية ، ولأنه يبغض المدنية الحديثة من أعماق صدره ، ويستبعد الاهتداء بآراء الفلاسفة المحدثين !

ويمكن الحكم بأن دراسة كتاب الاحياء فى الأزهر مجردا من آراء المفكرين فى نقده ، وتميز غثه من سمينه ، كانت السبب فى افساد العقلية الازهرية ، وجعلها غير صالحة لأن تسمو بأصحابها الى الطمع فى أن تكون العزة لله ولرسوله وللمؤمنين •

والأمل كبير فى أن يصل هذا الصوت الى من بيدهم الأمر فى

الازهر والمعاهد الدينية : فيغيروا ذلك المنهج القديم فى دراسة الأخلاق،
فان فى الأزهر ولواحقه نحو عشرين ألفاً من الطلبة تميتهم تلك المذاهب
البالية ، التى يعولون عليها فى فهم نزعات النفوس ، وخلجات القلوب •
وسبحان من لو شاء لهدانا واياهم سواء السبيل !

- ٨ -

عناية الأجانب بالغزالي

ومما يتصل بتأثير الغزالي فى الحياة العلمية ، عناية الأجانب به :
فقد كتبت عنه عدة مؤلفات : بالفرنسوية ، والانجليزية ، والألمانية •
ومنهم من يتعصب له فوق ما يفعل المسلمون • ويعده الدكتور زويمر
واحداً من أربعة ويقول : « كل باحث فى تاريخ الاسلام يلتقى بأربعة
من أولئك الفطاحل العظماء وهم محمد نبى المسلمين نفسه، والبخارى،
والأشعرى ، والغزالي » •

والدكتور زويمر من المستشرقين الانجليز الذين درسوا العقلية
الشرقية ، وكتابه عن الغزالي من الكتب القيمة ؛ وتجد فيه من مظهر
العناية بالغزالي ما كتبه عن قبره ، نقلاً عن خطاب وصله من القس
دونالدسن فى ١٧ يناير سنة ١٩١٧ ، وقد زار قبر الغزالي ووجد فى
احدى زوايا الحجر كلمة (غزالي) و (بوحا) وأصلها بالطبع أبوحامد •
وهذا هو الرسم الذى أرسله قس دونالدسن الى الدكتور زويمر عن قبر
الغزالي •

ومن أجود ما كتب بالفرنسوية عن الغزالي كتاب Carra de Vaux
والمسيو « كارادى فو » هذا رجل خبير بالحياة الاسلامية ، وله كتاب عن
ابن سينا أحب أن يطالع عليه من يود أن يعرف شيئاً عن المدارس
الفلسفية عند المسلمين ، وانى لآسف حين أقرر أن المستشرقين يفهمون

مذاهب أهل السنة والمعتزلة أكثر من علماء الأزهر الذين اذا عرض لهم ذكر المعتزلة لم يزدوا على أن يقولوا (قبحهم الله) وقد أخبرني حضرة الأستاذ الدكتور طه حسين أن المسيو كازانوف وضع كتابا عن الغزالي ، واني للموم في أن غفلت عن هذا الكتاب ، فان الطريقة التي جرى عليها المسيو كازانوف في كتابه « محمد ونهاية العالم » طريقة تغري الباحث بتعقب ما يكتب هذا الرجل الدقيق . وآسف أيضا على أن الظروف لا تسمح بأن أترجم شيئا من آراء هذا الرجل ، لأن البحث العلمي عنده فوق كل مقام . وانما أدعو من يجب الاطلاع الى مراجعة Mohamed et la fin du monde فان فيه من المباحث ما يواتي شهوات العقول ، وللعقول شهوات !! *

وهناك كتاب للمسيو Moher موضوعه :
Etudes sur la philosophie d'Averroës concernant son rapport avec celle d'Avicenne et Gazali

ويحسن الرجوع الى المقدمة التي وضعها المسيو Lucien Gautier حين نقل « الدرة الفاخرة » الى الفرنسية Traité d'eschatologie musulmane ويحسن الاطلاع على الجزء التاسع من المجموعة السابعة من Journal asiatique وفي مقدور القارئ أن يرجع الى Encyclopédie de l'Islam 20 Livre اذا أراد أن يعرف ما كتب عن الغزالي بالفرنسية والانجليزية والألمانية . وقد أخبرني حضرة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق أنه علم أن في اللغة التركية عدة مؤلفات عن الغزالي . وأحسب أن السبيل اليها ممهد لمن شاء .

وأحب أن يعفني القارئ من تفصيل ما أعرف عن نظر المستشرقين الى الغزالي ومذاهبه الصوفية ، فاني مضطر الى الاكتفاء بارشاده الى طريق الاطلاع .

الفوز للحياة

وبالرغم من تأثير الغزالي في الشرق والغرب ، وتغلغله في أعماق الحياة العلمية ، فإن الفوز فيما يظهر لن يكون لآرائه في الأخلاق . ولكن سيكون الفوز للحياة .

ألا ان الأخلاق كالشرائع . فكما تنهزم الشريعة أمام الحياة ، كما انهزمت المسيحية لخروجها على ما للحياة من قوانين ، كذلك تنهزم الأخلاق أمام الحياة ، حين تخلو عما في الحياة من عناصر وأصول .

وهكذا انهزم الغزالي حين نازل الحياة !

حرم النقش والتصوير ، ولكن النزعات البشرية مشّت في طريقها بقوة . ولم تصدف عن النقوش والتصاوير !

وحرم الغناء . ولكن مشّت الأذواق في سبيلها بقوة ، ولم تنزل ظامته الى الأنغام والألحان !

وليته حين حرم النقش والتصوير والغناء ، وضع لذلك عِللاً معقولة ! ولكنه حرم التصوير لأنه يدعو الى الوثنية ، وهذا كذب على الواقع ، فطالما أحيينا تهاويل الصور ، ولم نفكر في الوثنية . وحرم الغناء لأنه يدعو الى شرب الخمر . وهذا ظن مردود ، فطالمسا سمعنا عبد اللطيف أفندي البنا وابراهيم أفندي القباني والشيخ عبد السميع عيسى ، ولم نفكر في الخمر ، ولا في مجالس الخمر !!

ليست الأخلاق شيئاً آخر غير مناهج الحياة . والأخلاق التي تبنى بها الأمم ليست ما يعرفه الغزالي من التواضع ، والتوكل ، والخمول ، وإنما هي فهم قوانين الحياة وأحب أن أكرر كلمة الحياة : لأنها عند غاية الأخلاق .

والفضائل السلبية كالصبر ، والزهد ، والقناعة ، لن تكون فضائل

حتى تقضى الظروف باعتبارها أسلحة ماضية في سبيل الحياة • فقد يكون
الخمول من أسباب النباهة وذيوع الشهرة ، كما يكون الصيت أحيانا من
أسباب الخمول •

ولا قيمة للحياة بغير القوة • فيجب أن تكون الأخلاق بابا الى الحياة
القوية • وطالما شككت في قوله عليه السلام : « اللهم أحينى مسكينا ،
وأمتى مسكينا • واحشرنى فى زمرة المساكين » !

الباب الثاني عشر في أنصار الغزالي وخصومه

قدمنا أن الخصومة كان مشارها الفرق بين الفقه والتصوف ، وأن أنصار الغزالي كانوا في الأغلب صوفية ، وأن خصومه كانوا في الأكثر من الفقهاء . ونريد الآن أن نقفك على ترجمة طائفة من أنصار الغزالي وخصومه ، ونبين بجانب ذلك شيئا مما اختص به أولئك العلماء الذين حاربوا الغزالي أو أيّدوه ، لنمهد لك السبيل الى فهم الحركة العقلية التي أوجدتها مؤلفات الغزالي ، وسيلنا الايجاز في هذا الباب ، لأن المقام لا يسمح بالتطويل .

ابن رشد

ولد في قرطبة سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦ م . ودرس في صغره الفقه والتوحيد والأصول . ثم أقبل على دراسة الطب والفلسفة . وكان له بسبب علمه وفضله عدد من الحساد يقولون عليه الأقاويل . توفي رحمه الله بمراكش في أوائل سنة ٥٩٥ هـ بعد أن ذاق الأمرين من نفى واضطهاد ، جزاء ما قدمت يداه من شرح فلسفة القدماء !

والذي يقرأ حياة ابن رشد ، ويرى ما لقيه في زمانه ، يعلم أن العرب كانوا يُحتَضَرُون ، وأن دولتهم كانت تمشي الى الفناء ، لأن الذين يحاربون الفكر الحر ، ويضطهدون المفكرين الأحرار ، لا يصلحون مطلقا للحياة . وكذلك دالت دولة العرب بعد قليل .

وخصومة ابن رشد للغزالي تكاد تكون فلسفية ، فقد وضع الغزالي

كتاباً سماه « تهافت الفلاسفة » ، والغرض من الكتاب ظاهر من عنوانه ،
فعارضه ابن رشد بكتاب سماه « تهافت التهافت » ، والذي يهمنى من
معارضة ابن رشد للغزالي انما هو دفاعه عن ابن سينا والفارابى ، فقد
كان الغزالي يراهما من الكفار •

ويتلخص دفاع ابن رشد فى أن مسألة قدم العالم وحدوثه التى
كانت متار الخلاف ، انما كان الاختلاف فيما بين المتكلمين من الأشعرية وبين
الحكماء المتقدمين يكاد يكون راجعاً للاختلاف فى التسمية وبخاصه عند
بعض القدماء • فان هناك ثلاثة أصناف من الموجودات طرفان وواسطة
بين الطرفين • وقد انفقوا فى الطرفين واختلفوا فى الواسطة • اما الطرف
الاول فهو موجود وجد عن شئ ومن شئ ، اى عن سبب فاعل ومن
مادة ، والزمان متقدم على وجوده وهذه هى حال الاجسام التى يدرك
تكونها بالحس مثل الماء والهواء والأرض والحيوان والنبات • وهذا الصنف
اتفق الجميع على أنه محدث • وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم
يكن من شئ ولا عن شئ ولا تقدمه زمان • وهذا الصنف اتفق الجميع
على أنه فديم وهو الله • وأما الصنف الثالث فهو موجود لم يكن من شئ
ولا تقدمه زمان ، ولكنه موجود عن شئ أى عن فاعل ، وهذا هو العالم
باسره • والكل متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم ، فان المتكلمين
يسلمون بان الزمان غير متقدم عليه لأن الزمان عندهم شئ مقارن للحركات
والاجسام ، وهم أيضاً متفقون مع القدماء على ان الزمان المستقبل غير متناه
وكذلك الوجود المستقبل ، وانما يختلفون فى الزمان الماضى والوجود
الماضى فالتكلمون يرون أنه متناه ، وهذا هو مذهب أفلاطون وشيعته
وأرسطو وفرقه يرون أنه غير متناه كالحال فى المستقبل • يقول ابن
رشد : « فهذا الوجود الأخير الأمر فيه بين أنه قد أخذ شبيهاً من الوجود
الكائن الحقيقى ومن الوجود القديم • فمن غلب عليه ما فيه من شبه
القديم على ما فيه من شبه المحدث سماه قديماً • ومن غلب عليه ما فيه من

شبه المحدث سماء محدثا * وهو فى الحقيقة ليس محدثا حقيقيا ولا قديما حقيقيا * فالمذاهب فى العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها ولا يكفر ، فان الآراء التى شأنها هذا يجب أن تكون فى الغاية من التباعد ، أعنى أن تكون متقابلة كما ظن المتكلمون فى هذه المسألة » *

ولم يقف ابن رشد عند هذا الحد ، بل انتقل الى كلام هو فى الواقع صفع لأدعياء العلم الذين يحسبون قدم العالم وحدوثه من الأمور الهينة التى يصدرون عنها الفتوى كأنها مسألة طلاق !! واليك ما يقول فى ذلك :

« مع أن هذه الآراء فى العالم ليست على ظاهر الشرع ، فان ظاهر الشرع اذا تصفح ظهر فى الآيات الواردة فى الانباء عن ايجاد العالم أن صورته محدثة بالحقيقة * وأن نفس الوجود والزمان مستمر من الطرفين أعنى غير منقطع * وذلك أن قوله تعالى : (وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء) * يقتضى بظاهره وجوداً قبل هذا الوجود ، وهو العرش والماء ، وزمانا قبل هذا الزمان ، أعنى المقترن بصورة هذا الوجود ، الذى هو عدد حركة الفلك * وقوله تعالى : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) * يقتضى بظاهره وجودا ثانيا بعد هذا الوجود * وقوله تعالى : (ثم استوى الى السماء وهى دخان) * يقتضى بظاهره أن السموات خلقت من شئ » *

وهناك صفحة ثانية تفضل بها ابن رشد على علماء التوحيد * ذلك بأن هؤلاء القوم يخلطون من الأساليب والاصطلاحات مالا يعرفه الدين ، ثم يقولون : من تعدى هذه الحدود فهو كافر * «فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا » ١٩!

واليك مايقول ابن رشد فى ذلك :

« والمتكلمون ليسوا فى قولهم أيضا فى العالم على ظاهر الشرع ،

بل متأولون ، فانه ليس فى الشرع أن الله كان موجودا مع العدم المحض ، ولا يوجد هذا فيه نصاً أبداً ، فكيف يتصور فى تأويل المتكلمين فى هذه الآيات أن الاجماع انعقد عليه ؟ ثم قال : والظاهر الذى قلناه من الشرع فى وجود العالم قد قال به فرقة من الحكماء * ويشبه أن يكون المختلفون فى هذه المسائل العويصة اما مصيين مأجورين ، واما مخطئين معذورين فان التصديق بالشئ من قبل الدليل القائم فى النفس هو شئ اضطرارى لا اختيارى ، أعنى أنه ليس لنا أن نصدق أو لا نصدق ، كما لنا أن نقوم أو لا نقوم ، واذا كان من شرط التكليف الاختيار ، فالمصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له اذا كان من أهل العلم معذور ، ولذلك قال عليه السلام : « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وان أخطأ فله أجر » *

وبمناسبة كلام ابن رشد نقرر أن علماء التوحيد أسرفوا فى تكفير الفلاسفة بل أسرفوا فى تكفير بعضهم البعض ، بأسباب ضعيفة لا يعرفها الاسلام ، وما زالوا يسرفون حتى حفظ عنهم الرأى العام جملة تعابير هى مناط الكفر والايمان * وفى كتاب « فيصل التفرقة » للفرزلى مظهر لهذه الآراء الفاسدة التى ظننها الأولون حقائق ، وهى فى الواقع أباطيل *

والذى أراه أن مجازفة علماء التوحيد فى الحكم بحدوث العالم ، وفى وصف الله بصفات معينة محدودة ، وفى تعيين مصير العالم بشكل خاص ، كل أولئك يدل على أن هؤلاء الناس كانوا فى غاية السذاجة ، وأن نظرهم كان غير بعيد * وستسخر المقادير منهم يوم تطوى كتبهم وآراؤهم ، ويدخلون فيما يسمى قبل التاريخ ، كما دخل من قبلهم ألوف الألوف من أصحاب الشرائع والقوانين *

ابن تيمية

ولد بحرّان يوم الاثنين عاشر ربيع الأول سنة ٦٦١هـ * وقدم به والده الى دمشق فى سنة ٦٦٧هـ حين استولى التتار على حران * وقد تلقى

عن والده الفقه والأصول، ثم عن النظر في الحساب والجبر والفلسفة،
وتقدم للتدريس وسنه دون العشرين • وقد بلغت مصنفاته ثلثمائة
مصنف • منها تعارض العقل والنقل والجواب الصحيح في الرد على
النصارى وإثبات المعاد والرد على ابن سينا وإثبات الصفات والرد على
الامامية ••• الخ •

قال الحافظ ابن كثير : وفى رجب سنة ٧٠٤ هـ راح الشيخ تقي
الدين بن تيمية الى مسجد الفارنج وأمر أصحابه وتلاميذه بقطع صخرة
كانت تزار وينذر لها هناك • فقطعها وأراح المسلمين منها ومن الشرك
بها ، فأزال عن المسلمين شبهة كان شرها عظيما • وبهذا وأمثاله أبرزوا له
العداوة • وكذلك بكلامه فى ابن عربى وأتباعه ، فحسد وعودى ، ومع
هذا لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولم يبال بمن عاداه • ولم يصلوا اليه
بمكروه • وأكثر ما نالوا منه الحبس ، مع أنه لم ينقطع عن البحث
لا بمصر ولا بالشام •

وكان ابن تيمية كثيرا ما ينشد هذه الأبيات :

لو لم تكن لى فى القلوب مهابة^١ لم يطعن الأعداء فىّ ويقدحوا
كالليث لما هيب خط له الزبى^(١) وعوت لهيبته الكلاب النّبح
يرموننى شزر العيون لأننى غلست فى طلب العلاء وصبحوا

وقد توفي رحمه الله فى صباح الاثنين عاشر ذى القعدة سنة ٧٢٨ هـ
وهو فى السجن • فأخرج الى الجامع فى يوم مشهود لم يعهد فى دمشق
مثله ، وقد تبرك الناس بماء غسله ، واشتد الزحام على نعشه ، ودفن بمقابر
الصوفية بعد أن صلوا عليه مرارا ، وقدر من حضر جنازته من الرجال
بمائتى ألف ومن النساء بخمسة عشر ألفا • ورثاه كثير من العلماء منهم
ابن الوردى •

(١) الزبى : جمع زبية وهى الحفرة •

والذى يعود الى ترجمة ابن تيمية فى الكتب التى عنى مؤلفوها بترجمته يعرف كثيرا عن العقلية الاسلامية فى القرن الثامن ، ويكفى أن نلفت القارئ الى قولهم « ودفن بمقابر الصوفية » فان لذلك معانى لاتغرب عن ذهن اللبيب ، وما أريد أن أزيد •

وابن تيمية من كبار المفكرين فى الاسلام ، ولكنه لا يخلو من سذاجة • فانك بينما تراه يتوغل فى المدركات المعقولة ، تراه ينحدر فجأة فى هاوية الأوهام • من ذلك قوله « العلماء هم ورثة الأنبياء الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يهتدى بهم فى ظلمات البر والبحر • وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرائتهم ، اذ كل أمة قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فعلماؤها شرارها الا المسلمين فان علماءهم خيارهم ^(١) » وهذا بالطبع حكم لا سند له من معقول ، أو منقول •

ويعد ابن تيمية من خصوم الغزالى لأنه كتب فصولا كثيرة فى تناقضه ، وتسفيه بعض آرائه • ومن أعجب ما رأيت له ، حكمه بأن الغزالى هجر طريق الصوفية فى أخريات أيامه ، وفى ذلك يقول : « ولهذا تبين له فى آخر عمره أن طريق الصوفية لا تحصل مقصوده فطلب الهدى من طريق الآثار النبوية ، وأخذ يشتغل بالبخارى ومسلم ومات فى أثناء ذلك على أحسن أحواله ، وكان كارها ما وقع فى كتبه من نحو هذه الأمور مما أنكره الناس عليه •

وأنا لا أستبعد كلام ابن تيمية ، فان الغزالى كان متقلبا فى آرائه لا يستقر على حال • فهو تارة فقيه ، وتارة صوفى ، وتارة فيلسوف •

وسبب هجوم ابن تيمية على الصوفية أنه رأى منهم من يفضل الولي على النبي ، كما رأى من الفلاسفة من يفضل الفيلسوف على النبي • فانا نراه يمدح ابن سينا لأنه يفضل النبي على الفيلسوف ، ويسمى طريقه

(١) انظر مقدمة رفع الملام •

طريق العقلاء ، ويذم الفارابي لأنه يفضل الفيلسوف على النبي ، ويسمى طريقه طريق الغلاة • ويذم محيي الدين بن عربي لأنه كان يدعى أنه كان يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى النبي ، لأن الملك على أصلهم هو الحال الذي في نفس النبي ، والنبي في زعمهم يأخذ عن ذلك الحال ، والحال يأخذ عن العقل ، فهو على ذلك أفضل من النبي لأنه لا يحتاج إلى وسيط •

وأحب أن أنبه القارئ إلى أنني إنما أذكر تاريخ فكرة من الأفكار الإسلامية ، لا أكثر ولا أقل ، والمؤرخ غير مسئول •

ابن القيم

هو من تلامذة ابن تيمية • ولد في سنة ٥٧١ هـ وتوفي سنة ٦٩١ هـ لقي في حياته ضروبا من الشدة بسبب آرائه الحرة • فقد حبس مدة لانكاره أن تشد الرحال إلى قبر الخليل • وقد حبس مع ابن تيمية في المدة الأخيرة ، ولم يفرج عنه إلا بعد موت أستاذه • وله عدة تصانيف • منها «مدارج السالكين» ، و «شرح أسماء الكتاب العزيز» ، و «نقد المنقول» ، «والمحك المميز بين المردود والمقبول» ، و «أعلام الموقعين» • الخ • وابن القيم هذا من ألد خصوم الغزالي ، وقد نقلنا جملة من آرائه حين تكلمنا عن أغلاط الأحياء ، فلا نعود إليها الآن •

وأكرر ما قلته من أنني أوجز كل الإيجاز في هذا الباب • فلهؤلاء الذين أترجمهم آراء هي غاية في الخطورة ، من حيث ما فيها من الدقة ، ومن الجرأة ، مع أنهم فيما أرى كانوا يبالغون في الاحتياط ، لأن العالم الإسلامي كان يضطهد الفلاسفة إذ ذاك • ولو سمح لنا الدهر بوضع كتاب في الفلسفة الإسلامية لاستطعنا أن نرفع عن هؤلاء الأفاذا آصار الخمول •

السبكي

هو تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ • والسبكي هذا من كبار المؤلفين • وكتابه « جمع الجوامع » في الأصول يدل على دمه وكدحه في سبيل العلم ، وإن كان غاية في اللبس والغموض • وكتابه « طبقات الشافعية الكبرى » كتاب جيد ، من حيث ما فيه من عيون المسائل الفقهية ، ومن حيث الترتيب • وعيب السبكي يرجع الى ضعفه في النقد والتمييز ، ولو خلت كتبه من الآراء التي اعتمد فيها على ذاكرته فقط ، لكان لها شأن كبير •

ويعتبر السبكي من أنصار الغزالي ، وقد كتب عنه في الطبقات أكثر من ثمانين صفحة ، « ودافع عنه دفاع الأبطال » حين عرض لخصومه • وهو يعتقد بكل سذاجة أنه لو لم يكن لدى المسلمين غير كتاب الاحياء لكفى !! وما أريد أن أطيل في الكلام عن السبكي ، فقد عرضنا له عدة مرات •

الزبيدي

هو محمد بن محمد الحسيني الزبيدي • وهو من علماء القرن الثاني عشر ، وقد وضع شرحاً مطولاً للاحياء في عشر مجلدات ، انتهى من تأليف الجزء الأول منه في يوم الجمعة ٢٥ محرم سنة ١١٩٣ هـ • وفي هذا الجزء كتب دفاعه عن الغزالي •

وهو من أشد أنصار الغزالي ، ولكن دفاعه عنه دفاع سخي ، لا قيمة له ، لا في نظر الشرع ولا في نظر العقل • من ذلك قوله في تأييد ما يراه الغزالي من أن الزواج ميل الى الدنيا :

« وأما كون التزويج من جنلة الميل الى الدنيا فهو ظاهر ، لأنه في الغالب يطلب للاستمتاع : وذلك لا يحصل الا بالوقوع في الآفات التي كان

عنها بمعزل أيام عزوبته ، لا سيما ان كان متجردا عن القيام بالأسباب التي تجلب له أمر معاشه فانه يتلف بالكلية ، ويلزمه الرياء لكل من أحسن اليه بلقمة أو خرقة أو غيرهما فأبغض الخلق اليه من يذمه عنده خوفا من أن يتغير اعتقاده فيه فيقطع عنه بره فكان عبادة هذا كلها لأجل الذي أحسن اليه » •

وهذا كلام غير مفهوم في الواقع ، فضلا عن أن يكون دفاعا عن رأى يرى الناس أنه غير صواب •

الباب الثالث عشر

في الموازنة بين الغزالي وبين الفلاسفة المحدثين

هذا باب اذا أطلته طال ، لأن لآراء الغزالي أشباها كثيرة ، في الفلسفة الحديثة ، وتحملني الرغبة في الايجاز على الاكتفاء بأهم وجوه المقابلة بينه وبين الفلاسفة المحدثين . وحسبي أن أدل القارئ على كيفية السير في هذا الطريق .

- ١ -

Descartes الغزالي وديكارت

أقرب الفلاسفة شيها بالغزالي هو « ديكارت » ، لأنه ارتاب كما ارتاب الغزالي ، وبقي في شكه وارتبابه زمنا غير قليل .

ولد « ديكارت » في لاهاي سنة ١٥٩٦ م أي بعد الغزالي بنحو ٥٣٠ سنة . تلقى العلم في مدرسة يسوعية ، كأكثر الأطفال لعهد ، وحمله جده ونشاطه على دراسة اللغات القديمة ، والأساطير والتاريخ ، والبلاغة ، والشعر ، والرياضيات ، والأخلاق ، واللاهوت . ولم يقنع بذلك ، بل قرأ كل ما وقع في يده من نادر المؤلفات ، كما حدث عن نفسه . ورحل الى باريس في السادسة عشرة من عمره ، وتطوع في الجندية ، وعمل عدة سياحات في ألمانيا ، والسويد ، والدانيمارك ، ثم استقر في هولنده ، حيث رأى الإقامة فيها أنفع لنشر آرائه بحرية لم تسمح بها فرنسا اذ ذاك .

وبعد أن أقام في هولنده عشرين سنة ، مكبا على وضع مذهبه ، دعتة
كريستين ملكة السويد لتتلقى عنه العلم ، ولكنه لم يتحمل برد تلك
البلاد ، فقضى نحبه في سنة ١٦٥٠ بعد أن أمضى نحو سنة في ستوكهلم
ثم حملت جثته الى فرنسا في سنة ١٦٦٧ ودفن بكنيسة Saint-Etienne

مؤلفات ديكارت

يعتبر ديكارت في نظر مؤرخي الآداب الفرنسية أول رجل عبر
عن آرائه الفلسفية بلغة واضحة ، وجعل لغة الفرنسيين لغة فلسفية ، بعد
أن كان الفلاسفة من قبله يكتبون فلسفتهم باللغة اللاتينية ، وأهم مايعنينا
من مؤلفاته •

Règles pour la direction de l'esprit	أولاً -
Discours de la methode	ثانياً -
Méditations métaphysiques	ثالثاً -
Les principes de la philosophie	رابعاً -
Les passions de l'âme	خامساً -

ففي هذه المؤلفات بسط ديكارت آراءه الفلسفية • فليرجع إليها من
شاء ، فإنه لا يوجد عنه شيء مقنع بالعربية •

شكوك ديكارت

وكما ارتاب الغزالي حين رأى صبيان النصراني لا نشوء لهم الا على
التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم الا على التهود ، وصبيان المسلمين
لا نشوء لهم الا على الاسلام ، فقد ارتاب ديكارت حين رأى شيوع
التقليد ، ورأى الناس في الأكثر اما أن يكونوا ضعفاء لا يقدررون على تمييز
الحق من الباطل ، فيتبعوا آراء غيرهم بلا بصيرة ، واما أن يكونوا أقياء

فيسرعوا الى الحكم ثقة بقوتهم ، فاذا شكوا بعد ذلك ، فقد لا يهتدون الى
سواء السيل •

ومما حمل ديكارت على الشك ، ما رآه في أسفاره من اختلاف
العادات والآراء ، وتباين العقائد والمدركات ، وما تبينه من تأثير التربية ،
في التفرقة بين أخلاق الشعوب •

وأهم ما تنبه له في رحلاته ، الشك في قيمة الرأي العام ، والاستهانة
بكثرة الاصوات • لأن اجماع الامة على رأى ، لا يدل على أنه رأى
الامة ، فقد يكون رأى فرد واحد ، حملت عليه الامة لسبب من
الاسباب •

وآراء الفلاسفة كانت مما حمل « ديكارت » على الارتياب ، اذ قلما
يوجد رأى غريب بعيد التصديق الا وقد قال به فيلسوف •

ولكن ديكارت كان في ارتيابه أصرح من الغزالي • فبينما نجد
الغزالي يحدثنا بأنه دام قريبا من شهرين على مذهب السفسطة « بحكم
الحال ، لا يحكم النطق والمقال » أى أنه لم يكشف الناس بشكه الا حين
أجمعوا أو كادوا يجمعون على تقديسه ، نجد ديكارت يتطلب الأماكن
الصالحة لنشر شكوكه ، ونجده يحكم ببطلان الآراء التى بنى عليها آراءه
حين ظنها حقة ، وبوجوب التخلي مرة واحدة عن جميع آرائه ، ليضع بناء
جديدا على أساس جديد •

ونرى الغزالي شك في المحسوسات ، لأنه ينظر الى الظل فيراه واففا
لا يتحرك ، فيحكم بنفى الحركة ، ثم يعرف بالتجربة والمشاهدة ، انه
يتحرك ولكن بالتدريج • ثم نراه هم بالشك فى العقليات ، لأنه يعتقد فى
النوم أمورا ، ويتخيل أحوالا يعتقد لها ثباتا واستقرارا ، ثم يستيقظ فيعلم
أنه لم يكن لجميع متخيلاته ومعتقداته أصل ، فيسأل : بم تأمن أن يكون
جميع ما تعتقده فى يقطتك بحس أو عقل هو حق بالاضافة الى حالتك ،

وقد يمكن أن تطراً عليك حالة أخرى تكون نسبتها الى يقظتك كنسبة يقظتك الى منامك ؟

كذلك نجد ديكارت يقرر أن الاشياء التي سلم بأنها آتت من غيرها وأصح ، انما كان اعتمد في صحتها واثباتها على الحواس ، وقد تبين غير مرة ان الحواس خداعة – وهو كذلك يرى في نومه تصورات يعلم حين يستيقظ أنها باطلة ، فمن أين يعرف فضل اليقظة على المنام ، أو فضل المنام على اليقظة ، وهو في كليهما مضلل مخدوع ؟!

الفرق بين الغزالي وديكارت

الفرق عظيم جدا بين الغزالي وديكارت ، فان الغزالي خرج من شكه بطريقة لا تصل بأحد الى يقين ، خرج من شكه بنور الله ، ونور الله هذا لا يعرفه العلم ، حتى يضمه الى ما لديه من أصول • والغزالي نفسه يشعر بذلك ، فقد نراه يحكم بأن من ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة، فقد ضيق رحمة الله الواسعة ، وينقل أن رسول الله لما سئل عن «الشرح» ومعناه في قوله تعالى : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قال : نور يقذفه الله في القلب فيشرح به الصدر ، فقل وما علامته ؟ قال : التجافي عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود • يقول الغزالي : وهو الذي قال صلى الله عليه وسلم فيه (ان الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره) فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف ! ! •

وما دام الغزالي لم يرجع عن شكه « بنظم دليل وترتيب كلام » كما قال ، فمن العبث أن نستعين العقل والمنطق لنخرج من ظلمات الشكوك • وهذا يناقض كل المناقضة ما فعله ديكارت للخروج من شكوكه ، وكذلك كان الغزالي سببا لخمود الفلسفة في الشرق كما كان « ديكارت » سببا لهوضها في الغرب •

اسلوب ديكارت

لم ير ديكارت من الحكمة أن يخرج على ما فى بلاده من عادات وقوانين ، بل رأى من الخير أن يحافظ على الدين الذى نشأ عليه ، وأن يسير على أكثر الأمور قبولاً واعتدالاً عند أهل عصره ، حتى يتمكن من وضع مذهبه فى طمأنينة وسكون .

ويقول بول جانيه Paul Janet ان ديكارت حين اقتنع بعدم كفاية العلوم المعروفة لعصره ، لم يركن الى الارتياح كما فعل مونتيني Montaigne بل رأى من الواجب أن يبنى صرح العلم على أساس جديد . وكذلك يمكن أن نقول ان الغزالي انهزم أمام شكوكه ، ولكنه لم يركن الى الارتياح كما فعل مونتيني ، ولم يفكر فى وضع العلم على أساس جديد كما فعل ديكارت ، ولكنه انتظر هداية الله ، والله يهدى من يشاء !

وأول ما يبدأ به « ديكارت » هو الدعوة الى نبذ الكتب وتحكيم العقل ، لأنه يرى أن المؤلفات التى تنطوى على مختلف الآراء ، ليست أقرب الى الحقيقة من التعقيلات البسيطة التى يقوم بها رجل سليم الذوق ، وقد لمس الأشياء بيديه . والمهم عنده أن تحسن التفكير ، لا أن تعرف كيف فكر الناس . والبناء الذى قام به مهندس واحد ، خير عنده من البناء الذى يقوم به عدد من المهندسين ، فان وحدة الذوق من موجبات الجمال .

ويرى « ديكارت » أنه لوضع فلسفة جديدة ، يجب أن يوضع أسلوب جديد . والأسلوب المختار لديه هو الأسلوب الرياضى ، لأنه يعصم الفكر عن الخطأ والضلال .

وقد وضع لأسلوبه هذه القواعد الأربع :

أولاً - لا يصح قبول شئ على أنه حق ، ما لم يعرف (ما هو) بغاية الوضوح .

ثانيا - تقسم كل مسألة صعبة الى ما يمكن أن تشتمل عليه من الأجزاء ، ليكون ادراكها سهل المنال •

ثالثا - ترتيب التفكير ، والابتداء بالموضوعات السهلة البسيطة ، للوصول الى الموضوعات المركبة •

رابعا - فرض نظام في الموضوعات التي لا يسبق بعضها بعضا في الطبع •

يقول « بول جانيه » : « ولهذه القواعد الاربعة في ذهن ديكارت معنى جد محدود • والقاعدة الأولى تظهر كأنها عادية ، وليس كذلك ، فان اغفال كل سلطة ، وقرار الاستقلال المطلق للعقل ، كان في أوائل القرن السابع عشر جرأة وبدعة ^(١) •

ومن جانب آخر ينبغي أن نفهم كلمة (وضوح) فان كل ما نعتقده بقوة ليس واضحا ، ولأجل وضوحه ينبغي أن يخلص العقل من كل تأثير للحواس والخيال ، ليدرك الافكار بوضوح وتميز ، فان مدرجات الحواس مختلطة ، والآراء المعقولة هي التي تولد من أعماق العقل واضحة متميزة • وكذلك لا يوجد واضح محسوس ، اذ كل واضح معقول •

والجراحة التي تدرك الحقيقة مباشرة هي البصيرة intuition ولا يريد بها ديكارت ما يتغير من أحكام الحواس والخيال ، وانما يريد بها ادراك العقل السليم اليقظ : الادراك السهل الواضح الذي لا يتطرق اليه أى شك ، الادراك الحازم الذي يولد فقط من أضواء العقل •

وبموجب هذه البصيرة يستطيع كل انسان فيما يرى ديكارت أن يعلم أنه موجود ، وأنه يفكر • ويستطيع كذلك أن يعلم أن الواحد نصف الاثنين ، وأن $2 + 2 = 4$ كما أن $1 + 3 = 4$ لأن هذه الأحكام مدرجة بغاية الوضوح والجلال •

(١) بدعة : هي الكلمة التي اخترناها لترجمة كلمة (nouveauté) لأنها أقرب الى المراد •

وديكرات يبدأ بنفسه فيفرض أن جميع ما يراه باطل ، فماذا يمكن أن يعتبر صحيحا حينئذ ؟ قد لا يثبت الا عدم وجود شيء يقيني في العالم ، ولكن يبقى بالطبع أن هناك انسانا شك ، وأن هذا الانسان لا محالة موجود وهنا يقول ديكرات كلمته الماثورة Je pense, donc je suis أنا أفكر ، فأنا اذن موجود • ولا بأس فيما يرى ديكرات أن يُغشَّ الانسان ويخدع ، فإن هذا يدل فقط على أنه رأى الأشياء مرة على غير ما هي عليه ، ولا ينافي أنه كائن موجود • ويرى ديكرات أنه قد يرغب في أشياء لن تكون فالمرغوب فيه موهوم ، ولكن الرغبة نفسها حقيقة لا خيال •

وجملة القول في أسلوب ديكرات أنه لا شيء أوضح لديه من فكره ، فهو يؤمن أولا بوجوده ، ثم ينتقل الى الأشياء يقيس وجودها بقدر ما فيها من الوضوح ، لأن القاعدة عنده أنه لا يصح قبول شيء على أنه حق حتى يعرف « ما هو » بغاية الجلاء •

ولفلسفة « ديكرات » كثير من الخصوم والأنصار ، ولا يسمح لنا الوقت بتفصيل ما قيل في النيل منه ، والدفاع عنه ، وربما عدنا اليه في مؤلف خاص •

- ٣ -

الفزالي وبسكال Pascal

ولد بسكال في كليرمون في ١٨ يونيو سنة ١٦٢٣ وانتقل به أبوه الى باريس في سنة ١٦٣١ حيث اتصل بكثير من علماء ذلك العصر ، وكان أول أستاذ لبسكال هو والده الذي عنى بتربيته على قوة الفكر ، وحسن الاستنباط • وقد شغف بسكال بالرياضة ، وألف فيها وهو يافع • ثم مال الى الفلسفة ، ولكنه لم يعول على عقله ، بل أسلم نفسه لهواجس دينية ، حمل عليها بضعف صحته • واضطراره الى حياة العزلة والانفراد •

واشتهر بسكال بكتابه « الافكار » *Pensées* وهو مجموعة آراء جمعت وطبعت بعد وفاته ، وكتابه *Lettres provinciales* يمثل رأيه فى حياة :
نفسيين والرهبان •

ووجه الشبه بين الغزالى وبسكال هو أن كلا منهما ابتدأ حياته بقوة بهارة ، ثم انتهت به صحته الى الرضا بالخمول فى ظلال التسك والزهد ، فقد رأيت كيف أقبل الغزالى على كل علم ، وكيف درس كل النحل ، وعرف بواطن جميع الفرق ، ثم رأيت كيف رضى بوساوس الصوفية ، وعد كل ما سوى مذهبهم ضلالا فى ضلال !!

وكذلك ابتدأ بسكال حياته بتأييد مذهب ديكارت ، والتحمس لنصرة العقل ، ومحاربة الوسواس القديمة • حتى لنجده يدافع عن الشهوات الكبيرة التى توجد الاعمال العظيمة ، كالحب والطمع • وذلك فى رسالته *Discours sur les passions de l'amour* ولكن صحة بسكال أخذت تسوء يوما بعد يوم واضطر الى العزلة فى *Port-Royal* واختار الفلسفة الصوفية التى لخصها فى محادثته مع مسيو دى ساسى كما قال بول جانيه ، ثم عول أخيرا على الاكتفاء بالانجيل •

ومما يقرب بسكال من الغزالى شكه فى قوة الطبيعة الانسانية ، فهو يرى ان الانسان مملوء بالخطأ الغريزى الذى لا يزول الا بعناية الله • وليس هناك شئ يهدى الانسان الى الحقيقة ، بل كل شئ يخدعه • ومع أن العقل والحواس أصلان للحقائق فان كلا منهما يخدع صاحبه ، والناس يدعوا بعضهم بعضا الى الخداع : فهم يتبادلون المدح لعلمهم فيما بينهم بكرهه الحقيقة التى تنافى المديح ، وكذلك لا يتكلم امرؤ فى حضرتك كما يتكلم فى مغيبك ، فالانسان فى نظر بسكال مجموعة من الكذب والزور والنفاق •

وقد بالغ بسكال فى احتقار العقل • ثم تمنى لو أنه عرف جميع الأشياء بالوحى والشعور ولم يحتج أبدا الى العقل !! ويتهم بسكال عقله

باغرائه بالشك . ويعتقد أن الدين لا يأتي مطلقا من ناحية العقل ، وإنما يأتي من شعور القلب ، ومن هداية الله ؛ ويجوز أن يأتي الدين من طريق العقل ، ولكن مثل هذا الدين لا ينفع للنجاة ! وهذا بالطبع اسراف .

- ٣ -

الفزالي وهوبس Hobbes

ولد هوبس في انجلترا سنة ١٥٨٨ ورحل الى باريس في سن الأربعين حيث درس الرياضيات وعلوم الطبيعة . ثم زار فرنسا مرة ثانية وأقام فيها مدة طويلة ، واتصل صلة متينة بالفيلسوف «جسَّندي» صاحب الفضل على «مولير» و«فولتير» . ثم مات في انجلترا سنة ١٦٧٩ .

وأشهر مؤلفات هوبس هو كتابه La nature humaine

وكتابه Leviathan أو La matière, la forme et l'autorité du gouvernement

وفي هذا الكتاب الأخير دافع عن الأثرة ، والاستبداد ، فقد كان هوبس من غلاة الماديين ، والاحساس عنده ليس الا حركة من حركات المخ ، وهذه الحركة متى وافقت الوظائف الحيوية أنتجت اللذة ، واللذة تولد الرغبة ، والرغبة توجد الارادة . فليست الارادة اذاً الا رغبة مُسيطرَة . وهوبس لا يعرف باعنا للعمل غير طلب اللذة ، أو الهروب من الألم . والعواطف عنده ليست الا صورا لحيل الذات .

وهوبس من أصحاب نظرية العقد الاجتماعي Contrat social التي عني بها جان جاك روسو فيما بعد . ويرى هوبس أن الانسان مفطور على الأثرة والشر ، وأن جميع أعماله إنما هي سلم الى مطامعه . وهذه الفطرة جعلت الحياة الطبيعية مرة المذاق ، لطمع القوى في الضعيف . ويتخيل هوبس أن آباءنا الأولين لم يروا سبيلا الى السلامة من شر الأقوياء

غير الانضمام تحت لواء سلطة بشرية تدفع عنهم عادية المطامع ، وهذه السلطة تمثل في الملك ، ولهذا الملك جميع الحقوق التي كانت لجميع الأفراد قبل التعاقد ، وليس عليه الا واجب واحد هو : حفظ الأمن •

ويرى هوبس تأييدا لنظريته أن الدين الحق هو دين الدولة مهما كان جوهره ، وعلى كل فرد الخضوع له ، والخروج عليه كفر ومروق • ويظهر مما سلف أن هوبس يريد بنظرية العقد الاجتماعي تأييد الملكية ، ولا كذلك روسو حين يدافع عن هذه النظرية فانه يرى ان حياة الطبيعة كانت حياة نعيم ، وأن الناس لما أفسدوها بأنفسهم اضطروا الى ان يتنازل كل فرد منهم عن جزء من حريته ليتكون من مجموع هذه الاجزاء قوة مدنية تدافع عن الجميع ، وهذه القوة لا تمثل في الملك كما يرى هوبس ، وإنما تمثل في شخص هو مندوب الأمة ، ولها عزله حين تريد •

الى هنا لا يرى القارئ أى تناسب بين هوبس وبين الغزالي والواقع أن الجمع بينهما بعيد لأن الغزالي رجل تضحية وإيثار ، والخير عنده يرجع في الاكثر الى نفع الناس ، في حين أن هوبس يرى الخير في أن يعمل المرء لنفسه ، قبل أن يحلم بسواه • ولكني رأيت بعد البحث أنهما يتفقان في تكييف وجهة الطبيعة الانسانية ، وان اختلفا في غاية الأخلاق ، فإذا كان هوبس يرى أعمال المرء مظهرا للآخرة ، ويرى حب المرء لجاره ليس الا ضربا من حب النفس ، وأن طاعته للقوانين الاخلاقية ليست الا سعيًا في سبيل نفعه ، فكذلك الغزالي يتهم أكثر العاملين بالرياء ، ويرميهم بحب الذات •

والغزالي يسيء الظن بالطبيعة الانسانية ، ويرى العمل في الأغلب لا يراد به الا نيل الثواب ، أو الفرار من العقاب ، ولا يزال بالطبيعة الانسانية يفحصها ويسبر أغوارها بمسبر الشك والارتياب ، حتى يصل بعد الفحص الى أن هناك رياء « هو أخفى من ديب النمل » ومن كلامه : « رب عبد يخلص في عمله ، ولا يعتقد الرياء بل يكرهه ويرده ، ولكن

إذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له ، وهذا السرور يدل على رياء خفى ، فلولا التفات القلب الى الناس ما ظهر سروره عند اطلاع الناس » .

وانفرق بين الغزالي وهوبس ، يرجع الى ان هوبس يريد ان يجعل وجهة الطبيعة الانسانية اساسا للاخلاق ، فيكون الخير ما ينفع المرء ، والشر ما يضره . ولدن الغزالي يرى ان الخير لا يكون الا حيث ينتفع المرء ولا يضر غيره ، لان وجهة الغزالي وجهة اسلامية ، لا ضرر فيها ولا صرار .

- ٤ -

الغزالي وبوتلير Butler

« بوتلير » هو فيلسوف انجليزي ولد سنة ١٦٩٢ وتوفي سنة ١٧٥٢ وهو يعول أكثر من الغزالي على الفطرة الانسانية وعنده أن المرء يستطيع نفسه أن يدرك ما في عمله من الخطأ والصواب قبل أن يقدم عليه ، وان لم يعلم شيئاً من المباحث الاخلاقية . ويرى أنه لا شيء يدعونا الى طاعة قانون الاخلاق غير اعتماده على السريرة ، ولا يرى بوتلير فرقاً بين السريرة التي تحتم طاعة الأخلاق وبين حب النفس ما دمننا نفهم سعادتنا الحقيقية فان الواجب والمنفعة لا يختلفان عنده ، وهنا يتفق مع الغزالي بعض الاتفاق ، لأن وجهة نظر الغزالي اسلامية ، والاسلام يرى المنفعة في الواجب وان كان لا يرى الواجب في المنفعة ، فان هذا شيء قد يكون وقد لا يكون . الا ان أردنا ما هو نافع في الواقع . على أن بوتلير يقيد اتفاق المنفعة مع الواجب بالامور الاخروية ، ويرى اتفاقهما في الامور الدنيوية كثير الوقوع ، لا واجب الوجود .

وأجمل ما في بوتلير حكمه على الفضائل بأنها قانون الطبيعة في حين أن الغزالي يراها ضروريا من التكليف .

- ٥ -

الفزائى وكارليل Karlyle

ولد كارليل سنة ١٧٩٥ فى قرية اكلفكان بجنوب اسكوتلاندة من والد يشتغل بصناعة البناء • تلقى مبادئ العلم فى قريته • ثم دخل جامعة ادنبرج فى الثالثة عشرة من عمره • وفى التاسعة عشرة من عمره صار مدرسا للرياضة بمدرسة آنان ، وبعد ثلاث سنين صار رئيس مدرسة ببلدة كركالدى • وفى سنة ١٨١٨ ترك مهنة التعليم • وذهب الى ادنبرج ، وهو لا يدري ماذا يعمل ، ولكنه درس علم المعادن ، واضطر من أجله الى تعلم الالمانية التى كانت سببا لذبوح شهرته • وتوفى سنة ١٨٨١ •

وكارليل هذا من كبار الفلاسفة ، ومن أعظم المدافعين عن الديانات • حتى لنجده يدافع عن الوثنية ، لأنها فى رأيه ليست الا افراطا فى العجب من الشئ ، حتى ينقلب هذا العجب تقديسا وعبادة ، ولأنه يرى أن الأقدمين ما قدسوا شيئا الا لأنه اله ، أو رمزا الى اله • ومن آثار كارليل كتاب الأبطال الذى ترجمه الاستاذ محمد السباعى • وفى هذا الكتاب فصل ممتع عن النبى محمد صلوات الله عليه وسلامه • كان سببا فى تغيير وجهة أنظار الاجانب نحو الاسلام • ومن كلامه فى ذلك :

« لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد مهذب من أبناء هذا العصر أن يصغى الى ما يظن من أن دين الاسلام كذب ، وأن محمدا خداع مزور • وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة • فان الرسالة التى أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذى خلقنا • أفكان يظن أحدكم أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفاتية المحصر أكنوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبدا ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج •

ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول • فما الناس الا بله ومجانين ،
وما الحياة الا سخف وعبث وأضلولة ، كان الأولى بها أن لا تخلق •
فوا أسفاه ، ما أسوأ مثل هذا الزعم • وما أضعف أهله ، وأحقهم بالبراءة
والمرحمة ؟! » •

وقد دافع كارليل عن الاسلام خير دفاع ، فناقش من رموه بالقسوة ،
واستعمال السيف ، وبين ان المسيحية نفسها لجأت الى القوة حين لم ينفع
التسامح • ورد على من زعموا أن القرآن مملوء بالتعقيد ، وبين أن سبب
هذه التهمة هو عجز الترجمة عن نقل بلاغة القرآن وحلاوته • وعارض
من نسبوا الى رسول الله الهفوات ، وأكد أن طلب العصمة طلب سخيف ،
فان العصمة لله وحده ، وأكبر الهفوات عنده أن يحسب المرء أنه برىء
من هذه الهفوات •

الكفر والايمان

يتفق الغزالي وكارليل في أن كلاً منهما مؤمن ثابت اليقين ،
ويختلفان في فهم السريرة الانسانية ، وفي نتيجة التفكير • فالغزالي
لا يعترف للضمير بالصلاحيية للحكم ، وانما الشرع هو الفصل في الحسن
والقبح ، فما حسن الشرع فهو حسن ، وما قبحه فهو قبيح • ولكن
كارليل يرى أن الشعور بالواجب معنى أبدى ، وهو جزء من الطبيعة
الانسانية ، فهو قوة غريزية لا نحتاج في كسبها الى شرائع ولا قوانين •

ونتيجة التفكير محترمة عند كارليل ، وهو لا يصدق بأن الالحاد
والتفكير يجتمعان في قلب رجل واحد • والاخلاص عنده هو الأساس •
ومن كلامه : « يرجي لنا أن نفهم معنى الوثنية متى سلمنا أولاً أنها كانت
في حين من الاحيان دينا صحيحا في اعتقاد أهلها • فلنوقن كل اليقين أن
الناس كانوا يؤمنون بوثنتهم حق الايمان ولم يكن بهم من ذهول ولا
جنون ولا نوم ولا مرض ، بل كانوا مع ذلك أصحاء العقول والحواس ،

أيقاظا قد صورهم الله على صورنا ، وخلقهم كخلقنا ، لا فرق بيننا وبينهم
فى حال من الأحوال • ولنوقن كذلك أنا لو كنا وجدنا معهم ، لآمنا بما
كانوا يؤمنون به ، ولكنا وإياهم سواسية فى سائر الاشياء •

ويتلخص رأى كارليل فى أن كل دين فيه عنصر من الحق، والوثنية
عنده ليست الا رموزا شعرية ، وتمشيلا بالمرئيات لما جرى فى وجدان
الناس وأذهانهم عن الكون ومظاهره ، وكل دين فيما يرى انما هو رمز
 وتمثيل ، ولكن الاختلاف هو فى المشاعر والافكار • والفرق بيننا وبين
الوثنيين يرجع الى الشكل أكثر مما يرجع الى الجوهر ، لأن كلا منا يرى
التفكير فى ملكوت الله نوعا من العبادة ، ونحن لو أغرمنا بالكون كما أغرم
الوثنيون به لرأينا الله فى كل نجم ، بل فى كل زهرة •

رأى الغزالي فى الاجتهاد

لا يمكن لامرئ أن يكفر ، فى نظر كارليل ، ما دام مخلصا فى
عقيدته ، مهما كانت تلك العقيدة • ولكن الغزالي يرى أن الاجتهاد له حد
محدود والمختار عنده أن الاثم والخطأ متلازمان فكل مخطئ آثم وكل آثم
مخطئ ، ومن اتقى عنه الاثم اتقى عنه الخطأ ، وهو يقسم النظريات الى
ظنية وقطعية : ولا اثم فى الظنيات اذ لاخطأ فيها • والقطعات عنده ثلاثة
أقسام : كلامية ، وأصولية ، وفقهية • ويعنى بالكلامية العقليات المحضة ،
والحق فيها عنده واحد • ومن أخطأ الحق فيها فهو آثم • ويدخل فى
هذا القسم حدوث العالم ، واثبات المحدث ، وصفاته الواجبة والجائزة
والمستحيلة ، وبعثة الرسل وتصديقهم بالمعجزات ، وجواز الرؤية ، وخلق
الأعمال ، واردة الكائنات ، وجميع ما الكلام فيه مع المعتزلة والخوارج
والروافض والمبتدعة • فهذه المسائل الحق فيها عنده واحد ، ومن أخطأه
فهو آثم فان أخطأ فيما يرجع الى الايمان بالله ورسوله فهو كافر • وان
أخطأ فيما لا يمنعه من معرفة الله عز وجل ومعرفة رسوله ، كما فى مسألة

الرؤية وخلق الاعمال وارادة الكائنات ، فهو آثم من حيث عدل عن الحق
 وضل ، ومخطئ من حيث أخطا الحق المتيقن ، ومبتدع من حيث قال قولاً
 مخالفاً للمشهور بين السلف ، ولا يلزمه اللفر . ويعنى بالاصولية كون
 الأجماع حجة ، ولون القياس حجة ، ولون خبر الواحد حجة ...
 الخ . وهذه المسائل أدلتها عنده قطعية ، والمخالف فيها مخطئ آثم .
 والفقهيات بعضها يكفر المرء بانكاره ، وبعضها ياثم بجحوده ، فانكار تحريم
 الخمر والسرقة ووجوب الصلاة والصوم ، كفر . وانكار الفقهيات المعلومة
 بالاجماع خطأ واثم .

تحرير هذه المسألة

الاصل فى الحكم الاخلاقى أن يتبع غرض العامل من عمله : ان
 خيراً فخير ، وان شراً فشر . فالعمل الذى أريد به الخير ، هو خير :
 وان كان ضاراً فى ذاته . والعمل الذى أريد به الشر ، هو شر : وان كان
 نافعاً فى ذاته . ويطالب الرجل فقط بأن يتروى قبل أن يعمل ، ليعرف
 ما فى العمل من ضر ونفع ، وخطأ وصواب . ومتى أفرغ الجهد فى
 البحث فقد أمّن المسؤولية ، واستحق حسن الجزاء .

ولقد تتبع ما كتبه علماء المسلمين فى هذه المسألة فرأيتهم لا يكادون
 يهتمون . وسبب ضلالهم يرجع الى أنهم خلطوا بين الوجهة الاخلاقية :
 والوجهة القضائية ، وكان يجب عليهم أن يفصلوا بين الوجهتين . فالذى
 يقتل مسلماً خطأ مدين من الوجهة القضائية ولكنه برىء من الوجهة
 الاخلاقية ، لأنه لم يقصد القتل . والشرع محق فى اعتماده على الوجهة
 القضائية ، لأن فيها استئصالاً للجرائم ، ولأن القاضى متى عذر كل من ادعى
 الخطأ فقد يفلت منه كثير من المجرمين .

والذى يدلك على أن وجهة الشرع وجهة قضائية صرفة ، أنه يكتفى
 بإيمان المقلد . مع أن الايمان لا ينفع فيه التقليد . ويقول الباجورى فى

ص ٣٢ من حاشيته على الجوهرة ما نصه : « والخلاف في ايمان المقلد انما هو بالنظر لأحكام الآخرة وفيما عند الله وأما بالنظر الى أحكام الدنيا فيكفي فيها الاقرار فقط • فمن أقر جرت عليه الاحكام الاسلامية ، ولم يحكم عليه بالكفر ، الا ان اقترن بشيء يقتضى الكفر كالسجود لصنم » وهذا واضح الدلالة على أن النجاة لا تكون باتباع الشرع • ولكن بالايمان به • والايمان شيء آخر غير ظواهر الاعمال •

الخطأ والعناد

كان على الغزالي أن يفرق بين من يخطئ في العقليات بعد اجتهاده ، وبين من يعاند • فان الأقرب الى الحق أن ينبجو من نظر في الشريعة الاسلامية من الفلاسفة بنية حسنة وبقصد الاقتناع ، ولكنه بعد البحث لم يقتنع ، ولم يقف مع هذا في وجه المسلمين • ولو أن الغزالي نظر هذه النظرة ، لما كفر ابن سينا والفارابي ، الا ان أمكن أن يثبت عندهما العناد مع أنهما لم ينكرا الرسالة المحمدية ، ولكن الناس لعهد الغزالي كانوا فيما يظهر مصابين بداء الشك في عقائد الفلاسفة ، ورميهم بالروق •

وقد جرت بيني وبين فضيلة الاستاذ الشيخ الدجوى مناقشة في هذه المسألة منذ ثلاث سنين ، فكان فضيلة الاستاذ يرى أن الكفر يكفى فيه الجهل ، وكنت أرى أنه لا يتحقق الا بالعناد ثم رأيت فيما بعد أن الجاحظ يرى هذا الرأي • وقد نقل الغزالي في المستصفى « أنه ذهب الى ان يخالف ملة الاسلام ، من اليهود ، والنصارى ، والدةرية ، ان كان معاندا على خلاف اعتقاده فهو آثم ، وان نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم ، وان لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضا معذور • وانما الآثم المعذب هو المعاند فقط ، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً الا وسعها ، وهؤلاء قد عجزوا عن درك الحق ، ولزموا عقائدهم خوفاً من الله تعالى اذ استند عليهم طريق المعرفة » وينسب ابن الحاجب الى الجاحظ أنه

قال : « لا اثم على المجتهد مع أنه مخطيء » ، وتجري عليه أحكام الكفار ، بخلاف المعاند فإنه آثم » وهذا يدل على أن الجاحظ مع حكمه بنفى الاثم عن المجتهد المخطيء يرى معاملته كما يعامل الكفار ، وهذه بعينها الوجهة القضائية التي حدثت عنها منذ قليل •

ويظهر أنه كان لهذا الرأي أنصار فيما سلف ، فقد جاء في فصول البدائع ص ٤٢٤ ج ٢ ما نصه « وما نقل عن بعض السلف من تصويب كل مجتهد في المسائل الكلامية كخلق القرآن ، ونفى الرؤية ، وخلق الأفعال ، فمعناه نفي الاثم والمعدورية ، لأحقية القول والمأجورية » وجاء في إرشاد الفحول ص ٢٤١ ما نصه « مسألة الرؤية ، وخلق القرآن ، وخروج الموحدين من النار ، وما يشابه ذلك : الحق فيها واحد ، فمن أصابه فقد أصاب ، ومن أخطأه ففيل يكفر • ومن القائلين بذلك الشافعي فمن أصحابه من حمّله على ظاهره • ومنهم من حمّله على كفران النعم » •

وحكى ابن الحاجب في المختصر عن العنبري أن كل مجتهد مصيب • قال ابن دقيق العيد : « ما نقل عن العنبري والجاحظ ، ان أرادا أن كل واحد من المجتهدين مصيب لما في نفس الأمر ، فباطل ، وان أرادا أن من بذل الوسع ولم يقصر في الأصوليات يكون معذورا غير معاقب ، فهذا أقرب • لأنه قد يعتقد فيه أنه لو عوقب وكلف بعد است فراغه غاية الجهد لزم تكليفه بما لا يطاق » انظر الشوكاني ص ٢٤٢ •

ترجيح بلا مرجح

يرى الفزالي في كتاب « فيصل التفرقة » أن الرحمة تشمل كثيرا من الأمم السالفة ، وان كان أكثرهم يعرضون على النار ، اما عرصة خفيفة ، في لحظة أو في ساعة ، واما في مدة ، حتى يطلق عليها اسم بعث النار • ويرى أن أكثر نصارى الروم والترك لمعهده تشملهم الرحمة ، لأن منهم من لم يبلغه اسم محمد ، ومنهم من بلغه اسمه مقرونا بأكاذيب تصرف المرء

عن النظر • ويرى فى كتاب « الصحبة » أنه لا ثواب ولا عقاب الا على الافعال الاختيارية •

ونسأله : لماذا رجوت أن تشمل الرحمة كثيرا من الامم السالفة ؟
أليس ذلك لأنهم معذرون ؟ ولماذا حكمت بنجاة الترك ونصارى الروم ممن لم تبلغهم الدعوة ، أو بلفتهم محرفة مشوهة ؟ أليس ذلك لأنهم معذرون ؟
ولماذا قضيت بأنه لا ثواب ولا عقاب الا على ما يفعل المرء باختياره ؟ أليس ذلك لأن عقاب المرء على ما اضطر اليه ، أو أكره عليه ، ظلم وعدوان ؟

واذا كان ذلك كذلك ، كما يعبر الكتاب الاقدمون ، فلماذا تحكم بكفر من لم يعلم وجوب النظر ، أو علم بوجوب النظر ، ولكنه بعد البحث لم يقتنع ؛ ولماذا تحكم بنفى الاثم عمن يجتهد ويخطئ فى المسائل الفقهية ، وتحكم بالاثم والكفر على من يجتهد ويخطئ فى المسائل الكلامية ؟ ألا يسع العذر لجميع المفكرين على السواء ؟ فان لم يسعهم ، أفلا يكون هذا الفرق ترجيحا بلا مرجح ، وهو فى رأيكم غير معقول ؟

ظلم الأبرياء

وما عجبت لشيء كما عجبت من حكم الجاحظ بمعاملة المدورين كما يعامل الكفار • فانه اذا صح لديه أن مخالف ملة الاسلام من اليهود والنصارى والدينية ، ان نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم ، وان لم ينظر من حيث لم يعرف وجوب النظر فهو أيضا معذور ، وانما الآثم المعذب هو المعاند فقط ، أقول اذا صح عنده ذلك فكيف يحكم بأن يعامل هؤلاء معاملة الكفار ، وهم عند الله ناجون ؟ أفنكون نحن أغبر من الله على دينه الذى لم يكلف فيه نفسا الا وسعها ؟

ولقد أعلم ان الجاحظ لو كان حيا وسمع هذا السؤال ، لأجاب بأن فى هذا التشديد تقليلا للخوارج على الدين • وهذا جواب معقول ، ولكن يلاحظ أنه تأييد لما قلناه آنفا من أن علماء المسلمين نظروا الى هذه

المسائل من وجهة قضائية ، لا من وجهة أخلاقية • وكان عليهم أن يتسبها
الى الفرق بين القضاء والاخلاق ، فمن الواضح أن القتل الخطا معاقب عليه
من الوجهة القضائية ، مع أن الذى يقتل خطا برىء أمام نفسه ، وأمام ربه ،
وأمام الواقع •

وأحب أن أنبه القارئ الى أنى فى هذا الحكم لا أتكلم من وجهة
شرعية ، فقد يدعى المدعون ان الشرع لا يعرف ذلك • وانما أتكلم من
وجهة فلسفية ، وأفترض أن الشرع ان لم يتنبه لهذا الحكم ، فقد كان
يجب أن يتنبه له ، وأن يضع له الحدود ، فان المذنب برىء ، ومن
الظلم أن يقتل الأبرياء •

- ٦ -

الغزالي وسبينوزا Spinoza

ولد « سبينوزا » فى أمستردام سنة ١٦٣٢ من عائلة يهودية • وقد
اضطهده اليهود لشكه فى تعاليم اليهودية • وهم أحدهم بقتله • فاضطر
لذلك الى أن يعتزل فى لاهاي • وصار يكسب قوته بالعمل فى صقل زجاج
التلسكوب والميكروسكوب • وقد عرض عليه أصدقاؤه المساعدة عدة مرات ،
ولكنه رفض قبول المعونة بغزة واباء • وعرض عليه منصب أستاذ للفلسفة
بجامعة هيدلبرج ، ولكنه لم يقبل • حبا فى الاستقلال • وعاش عيش
الناسكين • وقد أصيب بمرض الصدر ، فاحتمله بلا شكاية • ثم مات سنة
١٦٧٧ بعد أن حكم أهل عصره بكفره •

وأهم مؤلفاته Traité théologico-politique وقد نشر فى حياته ،
وفيه أخضع الكتب المقدس للنقد وحرية الفكر • وكتابه Ethiqu ظهر
بعد موته ، وفيه بسط مذهبه عما وراء الطبيعة ، وتكلم عن النفس ،
والأهواء ، والشهوات •

وسينوزا من أشد أنصار مذهب الحلول : فهو يرى أن الله هو كل شيء • وإن كل شيء هو الله • وهو في ذلك يخالف الغزالي إذ يرى لله وجودا غير وجود العالم • والله في رايه هو المدبر لهذا الكون ، ولسن سينوزا يرى أن الله والعالم شيء واحد ، ويرى الله حالا في كل ذرة ، وفي كل حبة ، وفي كل نبتة ، وفي كل ورقة ، وفي كل دابة ، الى آخر ما في الوجود • وليس للانسان حرية ، وإن اعتقد أنه حر ، وإنما يحلم وأعينه مفتوحة !

ومن أجل هذا ثار رجال الدين على سينوزا ررموه بالزندقة ، قال الدكتور رابوبرت : « وما كان أبعد عن الالحاد ، فقد كان مملوءا بحب الله ، حبا جاءه عبر الطبيعة ، فمن كأس الطبيعة الطافحة قد شرب الالهية حتى ثمل ، وحتى أصبح لا يرى أمامه الا الله ^(١) » ، وهذا الاعتذار يشبه ما اعتذر به المسلمون عن البسطامي والحلاج ، ومن اليهم من القائلين بوحدة الوجود •

وغاية الاخلاق عند سينوزا هي كمال الطبيعة الانسانية ، فكل علم لا يفضي الى ذلك فهو في رأيه غير مفيد ، وهو يتفق مع الغزالي في هذا المعنى الأخير : أي في احتقار كل علم لا يوصل الى السعادة ، وإن اختلفت غايتهما بعض الاختلاف • فإن غاية الاخلاق عند الغزالي هي السعادة الأخرية •

ومع أن سينوزا يعمل لكمال الطبيعة الانسانية ، فإنه يرى أن التمييز بين النقص والكمال ، والخير والشر ، من الامور الاعتبارية ، إذ ليس هذا التمييز الا صورة نتزعها من الموازنة بين الأشياء • فإذا كان الغزالي يرى أن الخير هو ما أمر الله به ، والشر ما نهى الله عنه • فإن سينوزا يرى أن الخير هو النافع ، والشر هو البضار • وبعبارة أخرى : الخير هو ما يزيد

(١) مبادئ الفلسفة ص ١٦٦ •

- قوتنا ويعدها للعمل ، والشر هو ما يضعفها أو يضع في سبلها العوائق
- وينتج من ذلك أن الخير يحدث الفرح ، والشر يحدث الحزن

ويبقى بعد ما سلف أن السعادة كل السعادة في اكمال العقل لأنه في رأيه هو وجودنا الحق ، ثم يقرر أن السعادة في الواقع هي طمأنينة النفس ، التي تنشأ من معرفة الله ، فليس الجهل شرا إلا لأن صاحبه دائم القلق والاضطراب ، وليس للحكمة فضل أكثر مما تورث صاحبها من الامن والسكينة ، وهو يتفق مع الغزالي في هذه النقطة الأخيرة •

ومن أظهر الفروق بين الغزالي وسينوزا نفى الشخصية الانسانية ، ونفى المسؤولية • وهذا واضح ، لأنه ما دام العالم هو الله ، والله هو العالم ، فلن يرى سينوزا للمرء شخصية ، ولن يحكم بأنه مسئول • أما الغزالي فيرى وجود الشخصية الانسانية ويرى أهليتها للجزاء ، والثواب ، والعقاب ، وان كانت عنده أضعف من أن تدرك شيئا بغير هداية الله •

الغزالي وجسندى Gassendi

- ولد « جسندى » في بروفس بجنوب فرنسا سنة ١٥٩٢ •

اشتغل حيناً بتدريس البلاغة والفلسفة ، ثم صار قسيساً وسافر الى هولنده واشتغل بالطبيعات ولا سيما الفلك والتشريح ، ثم دعى لتدريس الرياضيات بالمدرسة الملكية في باريس سنة ١٦٤٥ وظل بها الى أن توفي سنة ١٦٥٥ •

وأهم ما يمتاز به جسندى هو دفاعه عن فلسفة أبيقور المتوفى سنة ٢٧٠ قبل الميلاد • وأبيقور هذا يرى أن غاية الاخلاق هي السعادة الذاتية : فليست الفضيلة فضيلة إلا لأنها تجلب لذة ، وليست الرذيلة رذيلة إلا لأنها تحدث ألماً ، ولا قيمة لأى عمل في نفسه إلا بنسبته الى اللذائذ والآلام • وقد كان أبيقور يدافع عن مذهبه بطريقة تقربه من رضا العقلاء ، فكان

يرى أنه لا مانع من احتمال الآلام الوقتية فى سبيل ما يعقبها من اللذة الباقية ، ويحلل الفضائل الشاقة ، ويبين ما فيها فى نفس الأمر وحقيقة الواقع من البعد عن الآلام ، لأن ما فى الخروج على الفضيلة من اللذة لا يساوى ما يعقبه من الألم ، وكذلك ما فى الصبر على ترك الرذيلة من فوات اللذة العاجلة ، يعوض على صاحبه كثيرا من الآلام التى يتعرض لها باقتراف المنكرات •

ولكن الناس فهموا مذهب أبيقور فهما غير صحيح ، فحسبوه فقط داعيا الى اللذة وأخذوا يصفون الرجل الخليع بأنه (أبيقورى) فجاء « جسندى » فأحيا تعاليم هذا المذهب ودافع عنه • وقد أثر جسندى فى عصره تأثيرا شديدا • وحسبه أن كان من تلامذته « مولير » •

والغزالى تكلم عن اللذة ، وعنى بها كما فعل جسندى ، ولكن الفرق بينهما بعيد ، فان جسندى يرى اللذة غرضا من أهم أغراض الانسان • ولكن الغزالى يراها صفة من صفاته ، فللعين لذة ، وللأذن لذة ، ولعضو التنازل لذة • ولا قيمة للحياة بغير هذه اللذات • ولكن يجب أن تحد بحدود العقل والشرع ، ومن السهل أن يعرف المرء ما لهما من الحدود • ولكن جسندى يحد اللذة بما لا يصحبه ألم ولا يعقبه ألم • وهنا موضع الخلاف ، فان الزنا فى نظر الغزالى ليست له أضرار دنيوية ، ولكنه يذهب بصاحبه الى النار •

Malebranche الغزالى ومالبرانش

ولد « مالبرانش » فى باريس سنة ١٦٣٨ ومكث قسيسا خمسين سنة • وكان كل همه أن يوحد بين الدين والفلسفة • وقد توفى بعبد مرض طويل سنة ١٧١٥ •

وأهم مؤلفاته Recherche de la Verité , Traité de Morale وهو من أنصار ديكرات والمعجيين به ، ومن القائلين بوجوب حرية الفكر الى

اقصى حد • والقاعدة عنده أنه لا يصح ان نسلم تماما الا بالقضايا التي تظهر لنا واضحة الى حد أنه لا يمكننا أن نرفض التسليم بها ، والا تعرضنا لعتب العقل ، وتائب الضمير •

والقاعدة الأخلاقية عند مالبرانش أنه لا يصح أن نحجب خيرا من الخيرات حبا تاما ، ما دمننا نستطيع ألا نحبه بلا ندم • وهنا يتفق مع الغزالي ، فيقرر انه لا يجب ان نحجب غير الله حبا تاما مطلقا • ونحن نذكر أن الغزالي قرر ان الحب المطلق لا يكون لغير الله ، لانه لا نظير له ، لافى الامكان ولا فى الوجود •

ويتفق مالبرانش مع الغزالي فى عدم الثقة بأحكام الخواس ، لانه رأى البصر يختلف حكمه على الأشياء باختلاف القرب والبعد ، ويضيف الى ذلك شكه فى الوحدة الزمنية ، لأنه يرى اليوم على طوله قصيرا بالنسبة الى الفرح المسرور • ويرى الساعة على قصرها طويلة بالنسبة الى المتألم الحزين •

ويتفق الغزالي ومالبرانش فى فهم الرجل الخير ، فاذا كان الغزالي يقرر انه ما هلك امرؤ عرف قدره ، فان مالبرانش يقرر أن الانسان الخير حقيقة هو من لا يريد أن يكون سعيدا الا بقدر ما يستحق ، وبقدر ما تسمح له العدالة الالهية •

ويفترق الغزالي ومالبرانش فى تقدير اللذة • فهى عند الغزالي خير الى حد محدود ، ثم تنقلب الى شر • وهى عند مالبرانش خير دائما ، وان كان التمتع بها لايفيد دائما ، لأنها قد تصرفنا عن الله • ويختلفان كذلك فى فهم الألم ، فهو عند مالبرانش يكاد يكون خيرا ، وان كان شرا بالفعل • والغرض من ذلك تبرير الاحتمال • أما الغزالي فلا يخص الألم باهتمام خاص ، وان كان يرحب بكل ما يناله من الأذى فى سبيل الله • وبعد هذه المقارنات الموجزة • أوصى القارئ بأن يعتبر هذا الباب لمعة يسيرة فى جانب ما يجب من درس آراء الفلاسفة المحدين ، وأحضه على اتمام ما فاتنى انمايه ، والله بالتوفيق كفى •

الباب الرابع عشر

فى آراء علماء العصر فى الغزالى

تمهيد

لا يوجد هذا الباب فى النسخة التى قدمت للجامعة المصرية ، وإنما رأيت أن أكتبه بعد الامتحان ، تميماً للسلسلة التاريخية ، التى أردت أن أبين بها قيمة الغزالى فى مختلف العصور •

ولقد عجبت حين رأيت العلماء يخشون من تدوين رأيهم فى الغزالى بجرأة وصراحة • وحجتهم فى ذلك أن رأى العام لا يقبل فى الغزالى غير المدح الخالص ، وللغزالى كسائر المؤلفين حسنات وسيئات ، وهم لا يستطيعون أن يدعوا شيئاً من سيئاته فى العلانية ، كما لا يمكنهم أن يذكروا حسناته مجردة من النقد ، والا كانوا عرضة للسخرية والاستهزاء !

واذ كانت الخطأ التى جريت عليها فى نقد الغزالى تقضى على نشر ما له وما عليه ، عملاً بالنزاهة العلمية ، فقد رأيت أن أثبت آراء أنصار الغزالى وخصومه فى هذا العصر ، وأدونها كما هى بلا زيادة ولا نقص ، معتمداً فى ذلك على محادثات خاصة دارت بينى وبينهم ، وعلى سند كتابى فيما يتعلق برأى حضرة صاحب الغزة الأستاذ محمد بك جاد المولى وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار • وأنا أشكر هذين الاستاذين بصفة خاصة : لأننى لم أر من غيرهما جرأة على التقدم بشئ مكتوب ، وأعذر من أحجم عن الكتابة ، لأن الضجة التى قامت بعد الامتحان أفهمت من لم يفهم : أن حرية الفكر فى مصر لا تظهر لها ولا نصير •

- ١ -

رأى الدكتور منصور فهمي

الدكتور منصور علم من اعلام هذا العصر ، وهو أستاذ الفلسفة في الجامعة المصرية ، وقد لاقى بسبب آرائه ما يقدر لامثاله عادة من الظلم والاضطهاد . فصلته الجامعة في سنة ١٩١٣ مجازاة للجمهور الذي غضب وثار بسبب ما شاع اذ ذاك من أنه رمى النبي عليه الصلاة والسلام بحب الشهوات . وقد رأى حضرة صاحب الدولة سعد باشا زغلول أن حرمان الجامعة من مثل هذا العقل الناضج ظلم ميين ، فنصحته يومئذ بان يصلى الجمعة في الازهر ليكون في ذلك قطع لآلسنة المرجفين ، وليستطيع دولته أن يرجعه الى الجامعة ، ويصل من عمله ما انقطع ، ولكن الدكتور منصور أبى أن يشهد العلماء له بالايمان ، لأن الله على ايمانه شهيد ، فشكر لسعد باشا رفيقه به ، وظل بعيدا عن الجامعة بضع سنين . ثم رجع اليها على الرأس في سنة ١٩٢١ .

وللدكتور منصور رسالة عن الغزالي نال بها الدكتوراه من جامعة باريس ، فلرأيه في الغزالي قيمة خاصة . وهو لا يعد خصما للغزالي ولا نصيراً له ، وانما يشكره على ما أداه للعلم من الخدمات، ويغفر له أغلاطه، لأنه كأكثر المؤلفين لعهد يعتمد على ذاكرته ، والاعتماد على الذاكرة يورث التناقض والاضطراب .

- ٢ -

رأى الشيخ على عبد الرازق

الاستاذ الشيخ على عبد الرازق رجل ممتاز من بين رجال هذا العصر ، وقد تلقينا عنه دروس الادب والبيان في الازهر منذ اثني عشر عاما ، وأماله في علم البيان دليل على عقليته النادرة . ولو مضى في التأليف لأصبح قليل الأمثال .

وقد درس الغزالي بعناية ، وهو يقف ازاءه موقف الحياء • ويقرر أن الغزالي أوجد حركة فكرية في العالم الاسلامي • أما قيمة هذه الحركة فتختلف باختلاف الانظار ، فمن الناس من يراها ضارة ، ومنهم من يراها نافعة ، ولا يزالون مختلفين •

- ٣ -

رأى الشيخ يوسف الدجوى

الاستاذ الشيخ يوسف الدجوى عالم من هيئة كبار العلماء ، وهو ذو نفوذ كبير في الازهر والمعاهد الدينية ، وأكثر العلماء المتأثرين اليوم من تلامذته • ومن الخطأ أن تعرفه من مؤلفاته ، لأنها مع قلتها ضعيفة ، ولأن الفرق بعيد بين ما يقوله في دروسه الخاصة وبين ما يدونه في تلك المصنفات ، إذ كان يريد أن يصل بكتبه الى افهام الجماهير ، ومن هنا فقدت هذه الكتب قيمتها العلمية • ورسالته الصغيرة في تفسير قوله تعالى : (لا يسأل عما يفعل) تجعلنا نأسف كثيرا على هجره لهذا الاسلوب البديع ، واقباله على خطة الترغيب والترهيب ، التي تذكرنا بكتاب الاحياء •

ويكاد يُعد الشيخ الدجوى خليفة للغزالي في هذا العصر ، ففيه تقريبا كل خصائصه ، من القدرة ، والاخلاص ، وقوة النفوذ ، وبغض الفلسفة ، والحذر من أن يتجاوز العقل ما له من الحدود •

- ٤ -

رأى الاستاذ جاد المولى

الأستاذ محمد بك جاد المولى من نوابغ هذا العصر • تخرج من دار العلوم سنة ١٩٠٦ وكان ترتيبه الثاني ، فسافر في أول بعثة أرسلها دولة

سعد باشا زغلول حين كان وزيرا للمعارف في سنة ١٩٠٧ ففقي ثلاث سنين في الكلية الجامعة بمدينة ردينج • ثم عين في سنة ١٩١٠ مساعدا لأستاذ اللغة العربية بجامعة اكسفورد وقضى بها ثلاث سنين • ثم عاد في سنة ١٩١٣ فعين في فلم الترجمة بوزارة الاشغال ففقي بها ثلاث سنين • وفي سنة ١٩١٦ نقل الى الديوان العالي ، وظل في خدمة البيت المالك الى سنة ١٩٢٢ حيث نقل مفتشا بوزارة المعارف العمومية •

وقد انتدبته الوزارة مع حضرة الاستاذ عبده خير الدين ليشتركا في الامتحان الذي تقدمت له في الجامعة المصرية • ويذكر الجمهور أن الاستاذ جاد المولى بك كان يتاجج غيرة على الغزالي ، وقد ناقشني بشدة في كل الموضوعات التي خالفت فيها الغزالي • فبدأ لي بعد الامتحان أن أحادثه عن الغزالي من جديد ، فتوجهت الى منزله لهذه الغاية ، ففضل وأطلعني على المحاضرات التي كان ألقاها عن الغزالي في سنة ١٩١٨ فرأيتة يفضله على كثير من الفلاسفة المحدثين منهم والقدماء •

والاستاذ جاد المولى بك لا يشك في أن المسلمين انتفعوا بالتصوف أيما انتفاع ، وبقدر نفع التصوف يقدر جهد الغزالي في نشره وإذاعته • وقد كان الاستاذ جاد المولى بك يستشهد وهو يحدثني عن ذلك بما كتبه الاستاذ الغمراوي بك في كتاب الغرائز ويقول : ان الصوفي هو كالمعلم سواء بسواء ، فكما يجب على المعلم أن يعمل لاستئصال الغرائز السيئة ، وتوجيه الغرائز الحسنة الى النواحي النافعة ، كذلك يجب على الصوفي أن يراقب حركات المريدين • لأن التصوف ليس الا رياضة للنفس •

وبالرغم من عناية الغزالي بالتصوف ، فان الاستاذ جاد المولى بك يراه من المجددين وقد سأله عن معنى هذا التجديد ، فقرر أنه يريد به النهوض بالافكار الاسلامية التي آمن بها الغزالي ، والتي كاد يقضي عليها تيار الفلسفة اذ ذاك •

- ٥ -

راى الشيخ عبد العزيز جاويش

والاستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش امام من أئمة المسلمين فى هذا العصر • وهو معروف فى جميع الاقطار الاسلامية ، وله أبحاث فى فلسفة التشريع تفر على من رامها وتطول ، وقد استفاد من النفى والاضطهاد ايما استفادة ، ووقف بذلك على كثير من عقليات الامم والشعوب ، وعده الانجليز من بين أعدائهم الألداء فى الحرب العالمية • ولقبوه بالرجل الخطر المخيف •

ويعد الشيخ جاويش من خصوم الغزالي • فهو أولا يؤمن بقوة الغزالي ومبادئه ، ولكنه بعد ذلك يعجب من تساميه الى منزلة المجتهد المطلق ، مع أنه كان « جاهلا » بفن الحديث • ويرى الشيخ جاويش أن جهل الغزالي بهذا الفن هو المقتل الوحيد لقيمه العلمية ، ولن ينفعه بعد ذلك ذبوع اسمه فى العالمين • ويقرر الشيخ جاويش أن الغزالي متناقض ، وأنه من الصعب تحديد آرائه لأنها قد تختلف فى الكتاب الواحد ، وأنه لم ينكر شيئا الا وقد قال به فى بعض أحواله •

- ٦ -

راى الكونت دى جالارزا

ظل الكونت دى جالارزا أستاذا للفلسفة فى الجامعة المصرية ست سنين ، وهو نادرة النوارى فى كرم الاخلاق • وله مؤلفات فى الفلسفة لا عيب فيها غير الغموض ، وعذره فى ذلك أنه أجنبى عن اللغة العربية • وهو من أشد أنصار الغزالي ، ويراه المسلم الحق بين فلاسفة المسلمين ويعجب كثيرا بوجهته الروحية وله على الغزالي مأخذ واحد وهو منعه

الاخلاق عند الغزالي - ٣٢١

الناس من ورود مناهل العلم ، مع أنه لم يمنع نفسه شيئاً من العلوم •
ويرى أن الغزالي حرم بذلك من كانوا أهلاً للاستفادة ، وإن كان عصم من
ليسوا أهلاً للاقتناع ، من سواد الناس • والغزالي في رأيه غاية الغايات في
الاخلاص •

- ٧ -

رأى الدكتور العناني

الدكتور على العناني من كبار الأساتذة في هذا العصر ، وقد مكث في
ألمانيا نحو عشر سنين ، فتمكن بذلك من أن يدرس الفلسفة دراسة عميقة ،
وهو من أساتذة الجامعة المصرية •

والدكتور العناني ينظر الى الغزالي نظرة خاصة ، من حيث تطور
الفكر الاسلامي فهو يرى أن الفكرة الاسلامية كانت تعتمد أولاً على
الوحي ، ثم دخل العقل على أنه مفسر وموضح ، ولكنه ما زال يقوى
وينمو حتى كاد يستقل عن الوحي استقلالاً تاماً ، فرأى الغزالي أن يقف
في وجه هذا الاستقلال ، فأخذ يحارب الفلاسفة ويناضلهم حتى أخمل
ذكرهم في الشرق ، وبذلك انتقلت الفلسفة الى الأندلس ، ووجدت هناك
مرعها الخصب •

والدكتور العناني يرى أن الغزالي سلك تلك السبيل خضوعاً للرأى
العام في البداية ، ولكنه تأثر بما دعا اليه في النهاية ، وعاد حرباً للعقل ،
وسلاماً للمبادئ الروحية • وهو لا يصدق ما ذكره ابن تيمية من رجوعه
الى ظاهر الشريعة ، فإن الرجل كان أخذ أخذاً بمذاهب الصوفية ، وإن
كان لا يتكز مع ذلك أن له آراء كان يخفيها ويضن بها على الناس •

- ٨ -

رأى الشيخ عبد الوهاب النجار

الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار نادرة هذا العصر ، فقد يندر أنه يفوته شيء من معارف هذا الجيل • وهو أعرف الناس بروح العرب والاسلام • وقد درس الغزالي دراسة جيدة • وله على هذا الكتاب ملاحظات يراها القارىء فى الهوامش ، وهى ملاحظات سديدة لم نشأ أن نحرم منها القراء • وقد قابلته أخيراً فذكر لى أنه فاته أن يضع ملاحظة عما أخذته على الغزالي من تحريم الغناء فى أكثر الأحيان ، وهو يرى أن الغزالي محق فيما يقرر من الاكتفاء باباحة الغناء حين لا يوجد موجب التحريم • لأن مهنة الغناء مجلبة للشقاء ، وعلى الأخص حين تضطرب الأحوال •

ورأى الشيخ النجار فى الغزالي رأى وسط : فهو يرى أنه فى جلته لا نظير له ، وأن الحكم بتناقضه فيه شيء من المبالغة ، لأن الرجل كان ينظر الى الأشياء من جهات متعددة ، وكان لسنه فى ذلك أكبر تأثير • وينكر عليه المبالغة فى متابعة الصوفية ، ويضرب المثل بما يبيحه للفقير من تمزيق الثوب قطعاً مربعة تصلح للترقيع ويقول : هذا للفقير اما أن يكون فى حالة صحو أو فى حالة ذهول : فان كان ذاهلاً فهو معذور ، ولا حكم له ، وان كان صاحياً فهو عابث ، لأنه ما معنى تمزيق الثوب بطريقة خاصة تجعله صالحاً لأن يرقع به سواء ؟ ان هذا الا اتلاف !

- ٩ -

رأى الشيخ حسين والى

الأستاذ الشيخ حسين والى من كبار العلماء ومؤلفاته تمتاز بالوضوح والبيان ، وعلى الأخص (كتاب التوحيد) الذى ظهر منذ سنين ، ولولا أنه

شغل بالادارة عن التأليف لكان لمصنفاته تأثير عظيم فى بسط آراء المتقدمين
فى الأصول والتوحيد والأخلاق •

ويعمد الشيخ حسين والى من أشد أنصار الغزالى ، فهو يدافع عن
وجهته فى التصوف لأن التصوف فى رأيه لا يخرج عن الأصول الاسلامية،
والغلو الذى نراه فى الاحياء ليس الا تمكيناً للمعاني التى يدعو اليها
الغزالى • وهو لا يرى أن الغزالى قصد بمؤلفاته فئة من الناس ، وانما
يرى أنه كتبها لجميع الطوائف ، وكل فريق يأخذ بقدر استعدادة ، وبقدر
ما يصلح له من أنواع الخلال • والغزالى عنده معذور فيما وقع له من
ضعيف الحديث • لأنه لم يرد غير تأييد وجهة نظره بما اتفق له من
الأحاديث والأخبار والآثار • ومن البعيد أن يضع حديثاً فى كتاب من كتبه
وهو يعلم أنه موضوع أو ضعيف ، مع ما عرف عنه من الأمانة والاخلاص •

- ١ -

رأى الشيخ عبد الباقي سرور

الأستاذ الشيخ عبد الباقي سرور من العلماء الأفذاذ الذين جمعوا بين
المعقول والمنقول وكتابه عن « ماضى الاسلام وحاضره » الذى نشره فى
جريدة الأفكار من أدق ما كتب المصلحون فى العهد الأخير • ويندر أن
يظهر كتاب ولا يطلع عليه ، فهو لذلك أعرف العلماء بالحركة الفكرية ،
وأعلمهم بما يجرى فى عالم السياسة ، والفلسفة والاجتماع • وهو فوق
ذلك أغير الناس على وطنه ودينه ، وانه لعل خلق عظيم •

ويرى الشيخ عبد الباقي أنه ليس للغزالى مذهب خاص ، وانما
يتنوع دفاعه بتنوع الرأى الذى يدافع عنه ، وهذا منشأ ما فى كتبه من
تباين الآراء : فقد كان يحتج بأصول المعتزلة والأشعرية والكرامية ، وهو
يناقش الفلاسفة ، ويريد بهذا أن يجمع فى يده كل الأسلحة الفكرية

ليدفع بها طغيان الفلسفة الذى كان يخشى على الدين من تياره * والشيخ عبد الباقي يرى أن التصوف فى كتب الغزالي انما كتب للصوفية ، لا لجميع الناس ، كما ظن ذلك كثير من الباحثين * ودليل هذا رجوعه فى أخريات أيامه الى دراسة كتب السنة حتى يذكرون أنه مات والبخارى على صدره * ولعدم اختصاص الغزالي بمذهب خاص وجهة شريفة ، هى تحرى الحق والبحث عن عناصر القوة فيما كان لمهده من مختلف المذاهب * وهذه الوجهة فيما يرى الشيخ عبد الباقي ضمان للسلامة من التقاليد المذهبية التى تغل حرية الفكر ، وتحرم الباحث من الانتفاع بشمرات العقول *

- ١١ -

رأى الشيخ أحمد أمين

أحسن ما يوصف به الأستاذ الشيخ أحمد أمين أنه رجل نافع ، فان كتبه ورسائله مفعمة بالآراء الجيدة ، التى تغرس الحياة فى نفس المستفيد * وعمله فى لجنة التأليف والترجمة والنشر عمل الرجل الذى يعرف أن لا حياة لأمتة بغير العلم ، ولهذه اللجنة أثر كبير فى الحركة العلمية ، ولأعضائها فضل عظيم على شباب هذا الجيل *

ويرى الشيخ أحمد أمين أن الغزالي حوّل الناس عن الاشتغال بالفلسفة ، ورجعهم الى الكتاب والسنة ، وأعلى شأن التصوف والصوفية * وحجب ذلك الى الناس * وأسلوبه فى الترغيب والترهيب أنفع الأساليب فى هداية الجماهير * ويرى معنا أن الغزالي لم يضع طريقة نافعة لخلوص المرء من شكوكه * وأن آراءه فى الأخلاق لا تنفع فى هذه الأيام ، لأن المدنية الحديثة تتطلب قوة التنازع ، وهو يفضل السلامة على كل شيء !

خاتمة الكتاب

الآن ، وقد قدمنا للقارئ ما وقفنا اليه في درس الاخلاق عند الغزالي ، نوصيه بان يرجع إن شاء الى كتاب الاحياء ، وكتاب الميزان ، وكتاب المنهاج ، وكتاب المستصفى ، والى المصادر الاجنبية التي ذكرناها في غير هذا المكان ، والى كل ما يستطيع الوصول اليه مما يتعلق بالغزالي ، ليعرف صحة ما في هذا الكتاب من مختلف الأحكام .

ونحن لا ننكر أننا كنا قساة في نقد الغزالي ، ولكننا نرجو أن يتنبه القارئ أيضا الى ما كشفنا الغطاء عنه من حسناته . ونحب أن يذكر الذين أسرفوا في اللوم عندما علموا بعض ما يحتويه هذا الكتاب ، أننا لم نكتب لارضائهم أو اغضابهم ، وانما وضعنا نصب أعيننا غاية واحدة ، هي خدمة العلم والتاريخ ، خدمة خالصة لوجه الله ، لا للناس .

وأحب أن أسجل هنا كذلك ، أنني ترددت فيما نصحني به حضرات الأساتذة من رفع بعض المسائل التي ثار من أجلها الخلاف ، فلم أرفع منها شيئا ، وانما أضفت اليها بعض البيان ، فليس على لجنة الامتحان أية مسئولية ، وانما أنا وحدي المسئول .

أما بعد فاني أسأل الله أن يجزييني بفضلته على ما قدمت في سبيل العلم والدين من صادق الجهود ، واليه وحده أرفع الرجاء ، فقد مني الناس بالجهود ، ونكران الجميل .

« رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا . رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ . »

الاسلام والأخلاق

يقول المرجفون انى قررت أن الدين الاسلامى دين فتح لا دين أخلاق • ولولا ضعف ملكة النقد فى مصر ، لما شاعت هذه الأكذوبة ، ولما وجدت من يتلقاها بالقبول • فليس من الجائز أن رجلا مثلى قضى فى الأزهر خمسة عشر عاما يحكم بين الجماهير فى دار الجامعة المصرية بأن الدين الاسلامى ليس دين أخلاق ، وهو يعلم على الأقل أنه يجد معارضين أشداء من طلبة الأزهر وعلمائه ، وقد حضر منهم يومئذ عدد غير قليل •

وهأنذا أشرح للقراء أصل هذه الأكذوبة التى تناقلها الناس ، ليعلموا الى أى حد يجرؤ المتقولون على تشويه الأحاديث !

قلت فى رسالتى : « ان ما كتبه الغزالى عن التوكل صريح فى الدعوة الى الرهينة ، وقطع الملائق مع الناس ، والتدرج على احتمال الظما والجوع ، والافتناع بأن الموت من جملة الأرزاق ، فلما سألتى حضرات الأساتذة المتحنيين عما يؤيد هذا الحكم من كلام الغزالى ، قدمت لهم قوله : « فان قلت فما قولك فى القعود فى البلد بغير كسب : أهو حرام أو مباح أو مندوب ؟ فاعلم أن ذلك ليس بحرام ، لأن صاحب السياحة فى البادية اذا لم يكن مهلكا نفسه ، فهذا كيف كان لم يكن مهلكا نفسه ، حتى يكون فعله حراما ، بل لا يبعد أن يأتية الرزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخر عنه ، والصبر ممكن الى أن يتفق • ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا طريق لأحد اليه ففعله ذلك حرام ، وان فتح باب البيت وهو غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج أولى له • ولكن ليس فعله حراما الى أن يشرف على الموت ، فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال والكسب » وهنا لا أكتفى القارئ أنى حملت على الغزالى حملة شديدة ، ورميته

(*) نشرت هذه الكلمة فى المقطم بتاريخ ٤ يونيه سنة ١٩٢٤ •

بجهل أسرار الدين ، وسخرت من الآداب التي وضعها للمتوكل حين يخرج من بيته : اذ يدعوهُ الى أن لا يترك في البيت متاعاً يحرص عليه السراق ، والى أن لا يحزن اذا سرق متاعه بل يفرح اذا أمكنه ، والى أن لا يدعو على السارق الذي ظلمه بالأخذ ، فان فعل بطل توكله ودل على تأسفه على ما فات ، ويدعوهُ الى أن يغتم لأجل السارق وعصيانهِ وتعرضه لعذاب الله ، ويشكر الله اذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما !

ثم قلت في التعليق على هذه الآداب الميِّتة « وما أدري ما الذي أنسى الغزالي أن يحض المتوكل على أن يترك باب البيت مفتوحا وان يعلق عليه لوحة مكتوبا فيها بخط واضح جميل • من أراد أن يأخذ شيئا من هذا البيت فهو مغفور الذنوب ، بل مجزى بما مكن صاحبه من صنع المعروف ! » عند ذلك تذر الحاضرون من العلماء ، وقال فضيلة الأستاذ الشيخ اللبان : لا عيب على الغزالي في ذلك لأن الدين الاسلامي دين أخلاق ، فقلت : وهو قبل ذلك دين فتح وامتلاك ، وليس من الأخلاق في شيء أن يجرد المرء بيته حتى لا يبقى فيه متاع يحرص عليه السراق ، فهل جانبت في ذلك الصواب ؟

والظاهر أن حضرات العلماء فهموا من الفتح التخريب ، والاعتداء على الشعوب • كلا يا هؤلاء ! الدين الاسلامي دين فتح ، رضيتُم أم كرهتم ، وللفتح شروط وآداب سنّها الدين الحنيف ، وأنتم حين تنفرون من كلمة « الفتح » انما تجارون الأجانب الذين يتوددون اليكم بوصف الاسلام بالقناعة والرضا بالقليل • وهذا خطأ صراح ، فان الدين الاسلامي أبعد الأديان عن الزهادة ، وأبغضها للخمول ، ولا حرج على الاسلام في أن يرغب أتباعه في امتلاك ناصية العالم ، فان هذا أمل نبيل ، ولم يحدثنا التاريخ عن أمة قوية ، أو ملة قوية ، وضعت حداً لمطامعها في الحياة ، وانما ترغب الأمم الضعيفة ، أو الملل الضعيفة ، على أن تحدد آمالها ، وأطماعها بضيق الحدود !

ستقولون : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يأمرُوا
المجاهدين بحرب القسيسين والرهبان ، بل أمرهم بالرفق بهم ، والابقاء
عليهم ، كما أمرهم بعدم التعرض للأطفال والنساء والكهول . وأقول
لكم : ان هذه المعاملة لا تدل على ان الاسلام ليس دين فتح ، ولكنها تدل
على أن الاسلام كان أحكم من أن يبدأ فتوحاته بارتهاق النفوس وتنفير
القلوب . وهذه الملاينة ، وذلك الرفق ، من الأسلحة الماضية في استلال
السخائم ، والتبشير بالدين الجديد . وكذلك دعا النبي الى سبيل ربه
بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادل خصومه بالتى هى أحسن ، حتى ظفر
بافتح المين .

هنا ما أريد من أن الاسلام دين فتح وامتلاك . ولو بعث رسول الله
صلى الله عليه وسلم اليوم ، ورأى ما أتم عليه من قلة وذلة ، لبلى رداءه
بدموعه ، ولكان له مع حضرات العلماء موقف يرد الولدان شيئا .
أفحسبون أن قوله عليه الصلاة والسلام (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)
معناه أنه جاء لينشر علينا ، ويذيع فينا ، تلك المبادئ السقيمة ، التى دافع
عنها الغزالي وأمثاله ، حين تكلموا عن التوكل والصبر والخمول ، وتابعهم
فى ذلك مع الأسف علماء هذا الجيل ، فى غير خجل ولا استحياء ؟

أما لا أنكر أن التوكل فضيلة ، ولكن أنكر أن يكون معناه الاقتناع
بأن الموت من جملة الأرزاق ، وانما التوكل أن تقتحم المصاعب معتمدا على
الله (وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين) والصبر فضيلة . ولكن على أن
يكون صبرا على الجهاد لا صبرا على الضيم . والخمول فضيلة . ولكن على
معنى أن تقبل على عملك غير حاسب للشهرة حسابا . فأما ما نقل الغزالي
من أن بعض العلماء كان يترك الدرس اذا زاد الطلبة على ثلاثة ائصارا
للخمول ، فهى خطة سلبية ، وهروب من الواجب ، تعالت الأخلاق عما
يصفون !

ومن العجيب أن نجد العلماء يضربون الأمثال بزهد النبي وخلفائه

وكان عليهم أن يعرفوا أن الزهد من النبي وخلفائه فضيلة فضت بها
الضرورة ، وها نحن أولاء نرى بأعيننا كيف تنظر الجماهير الى ما يملك
رؤساء الحكومات نظر المحقق المغيظ ، فلا عجب أن يتنبه رسول الله صاحب
الخلق العظيم الى ما فطرت عليه الجماهير من حسد من يملكون زمام
الأمر • ولو قضت الظروف اذ ذلك بان يكون النبي فرداً من جماعة
يسوسها غيره ، لرأيناه ينمي ثروته ، ويسعى جادا في استغلال ما يملك
من أرض أو مال •• على أنى أعلم من سيرة رسول الله عليه الصلاة
والسلام ما يدل على أنه كان ينظر الى الدنيا بعين ملؤها الحب والاعزاز ،
وحسبنا أن تتلو قول أصدق القائلين : « ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي
الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » فهل ترونه قال : اتنا في الدنيا حسنة
وفي الآخرة حسنتين أو حسنات ؟! أوليس من جلال الدنيا أن تسوى
بالآخرة ؟

من أجل هذا تروني أنكر أن تكون « الاخلاق » في الاسلام معناها
الرضا بالموجود وان فل وهان ، ومن أجل هذا عارضت الغزالي
يعد ما عاشرته في مؤلفاته بضع سنين ، فماذا تتقنون منى بعد هذا البيان ؟

المراجع

تنقسم مصادر هذا الكتاب الى عربية وفرنسوية • أما المصادر العربية
فأهمها مؤلفات الغزالي ، وهى : احياء علوم الدين ، ومنهاج العابدين ،
والأربعين فى أصول الدين ، وميزان العمل ، وجواهر القرآن ، والادب
فى الدين ، ومشكاة الأنوار ، ونصيحة الملوك ، والمنقذ من الضلال ،
والجام العوام ، وخلاصة التصانيف ، ورسالة الطير ، وكيمياء السعادة ،
ومكاشفة القلوب ، وقواعد الطريق العشرة ، والاملاء على ما أشكل من
الاحياء ، والكشف والتبيين ، والقسطاس المستقيم ، ومقاصد الفلاسفة ،
والترفة بين الاسلام والزندقة ، والدرة الفاخرة ، والمستصفى فى
الأصول •

ومما يتعلق بالغزالي من المصادر العربية : طبقات الشافعية الكبرى
للسبكي ، وشرح الاحياء للزبيدي وقوت القلوب لأبى طالب المكي ،
والرسالة القشيرية ، ومجلة الهلال ، والسعادة لابن مسكويه ، وتهذيب
الأخلاق له ، وفلسفة ابن رشد لفرح انطون ، والذخيرة فى المحاكمة بين
تنهايت الفلاسفة لعلاء الدين الطوسى ، وحياة الغزالي للدكتور زويمر ،
وقتاوى ابن تيمية ، واعلام الموقعين لابن القيم ، وفصل المقام لابن رشد ،
ومحاضرات الكونت دى جالارزا فى الجامعة المصرية سنة ١٩١٩ و ١٩٢٠
ومبادئ الفلسفة تعريب أحمد أمين ، والملل والنحل للشهرستانى ، ومعجم
البلدان لياقوت •

وأهم المصادر الفرنسية :

·Gazali, par Carra de Vaux

·Etudes sur la philosophie d'Averroës concernant son rapport
avec celle d'Avicenne et Gazali, par Moher

·Traité d'eschatologie musulmane, par Lucien Gautier.

·Encyclopédie de l'Islam (20ème livre).

·Histoire de la philosophie, par Paul Janet.

·Cours de philosophie, par E. Boirac

·Averroës, par E. Renan.

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
فاتحة الكتاب	١٠
الباب الأول	
في العصر الذي عاش فيه الغزالي	١٣
تمهيد	١٣
الفصل الأول : الدولة السلجوقية	١٥
الفصل الثاني : الباطنية	١٧
الفصل الثالث : الحروب الصليبية	١٩
الفصل الرابع : المدارس النظامية	٢٢
الفصل الخامس : روح ذلك العصر	٢٥
الفصل السادس : البلدان التي عرفها الغزالي	٢٩
الفصل السابع : أعيان ذلك العصر	٤٢
الباب الثاني	
في حياة الغزالي	٤٦
تمهيد	٤٦
الفصل الأول : أسرته	٤٧
الفصل الثاني : مولده ونشأته	٤٩

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث : حياته الروحية	٥١
الفصل الرابع : فهمه للحياة	٥٣
الفصل الخامس : وفاته وراثؤه	٥٧

الباب الثالث

في منابع التي استقى منها الغزالي	٦٠
تمهيد	٦٠
الفصل الأول : المصادر الفلسفية	٦٣
- الفصل الثاني : منبع التصوف	٧١
الفصل الثالث : من عرف الغزالي من الصوفية	٧٦
الفصل الرابع : منبع الشريعة	٧٩
الفصل الخامس : أساتذة الغزالي وأصحابه	٨٣

الباب الرابع

في مؤلفات الغزالي	٨٤
تمهيد	٨٤
الفصل الأول : طريقته في التأليف	٨٦
الفصل الثاني : الصوت المردد في مؤلفات الغزالي	٨٨
الفصل الثالث : كتاب الأحياء	٨٩
الفصل الرابع : أغلاط الأحياء	٩١
الفصل الخامس : غفلة الغزالي وعناده	٩٧

الصفحة

الموضوع

الباب الخامس

١٠٣	في مباحث تمس الأخلاق
١٠٣	الفصل الأول : الخير والشر
١١٤	الفصل الثاني : الإرادة
١٢٢	الفصل الثالث : الضمير
١٢٤	الفصل الرابع : الأغراض والنتائج
١٢٦	الفصل الخامس : الوسائل والغايات

الباب السادس

١٣٠	في الأخلاق
١٣٠	تهذيب
١٣٢	الفصل الأول : تربية الخلق
١٣٤	الفصل الثاني : إمكان تغيير الخلق
١٣٨	الفصل الثالث : الطريق إلى تهذيب الأخلاق
١٤٠	الفصل الرابع : غاية الأخلاق
١٤٢	الفصل الخامس : هل تورث الأخلاق

الباب السابع

١٤٥	في الفضائل
١٥٠	الفصل الأول : فضيلة الصدق
١٥٢	الفصل الثاني : فضيلة الصبر
١٥٦	الفصل الثالث : فضيلة الخمول

الموضوع الصفحة

١٥٧	الفصل الرابع :: فضيلة التوكل
١٧١	الفصل الخامس : فضيلة الاخلاص

الباب الثامن

١٧٣	في توقي الرذائل
-----	----	----	----	----	----	----	-----------------

١٧٣	تهيد
-----	----	----	----	----	----	----	----	------

١٧٤	الفصل الأول : رذيلة الغضب
-----	----	----	----	----	----	----	----	---------------------------

١٧٧	الفصل الثاني : رذيلة الحقد
-----	----	----	----	----	----	----	----	----------------------------

١٧٩	الفصل الثالث : رذيلة الحسد
-----	----	----	----	----	----	----	----	----------------------------

١٨٠	الفصل الرابع : رذيلة العجب
-----	----	----	----	----	----	----	----	----------------------------

١٨٣	الفصل الخامس : رذيلة الكبر
-----	----	----	----	----	----	----	----	----------------------------

١٨٥	الفصل السادس : آفات اللسان
-----	----	----	----	----	----	----	----	----------------------------

١٩٩	الفصل السابع : رذيلة الرياء
-----	----	----	----	----	----	----	----	-----------------------------

الباب التاسع

٢٠١	في العلوم والفنون والتربية
-----	----	----	----	----	----	----	----	----------------------------

٢٠١	الفصل الأول : العلوم
-----	----	----	----	----	----	----	----	----------------------

٢٠٨	الفصل الثاني : الفنون
-----	----	----	----	----	----	----	----	-----------------------

٢٢٠	الفصل الثالث : تربية الأطفال
-----	----	----	----	----	----	----	----	------------------------------

٢٢٥	الفصل الرابع : آداب المعلمين
-----	----	----	----	----	----	----	----	------------------------------

٢٢٨	الفصل الخامس : آداب المتعلمين
-----	----	----	----	----	----	----	----	-------------------------------

الموضوع	الصفحة
الباب العاشر	
في الحقوق والواجبات	٢٣٠
الباب الحادى عشر	
في تأثير الغزالي في عصره	
وما تلاه من العصور	٢٦٩
الباب الثانى عشر	
في أنصار الغزالي وخصومه	٢٨٥
الباب الثالث عشر	
في الموازنة بين الغزالي وبين الفلاسفة المحدثين	٢٩٤
الباب الرابع عشر	
في آراء علماء العصر في الغزالي	٣١٧
خاتمة الكتاب	٣٢٦
المراجع	٣٣١

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالمطاهرة
فرع الساحل

الثنى ٥٠ قرشا

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

فرع مصر - ١٩٦٨